رواية

بحر النور

الجزء الأول

إسلام علام

بحر النور : إسلام علام

ردمك: ٣-٩٢٥-٦٤٥١٦-١-٩٧٨

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسئولة عن أراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن أراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن أراء المنصة والعاملين فيها.

إهداء

إلى كل إنسان ما زالت إنسانيته فيه، فلم ينافق بعد.

إلى يونس ابن بشبوش الذي أتمنى أن يشبه أباه الإنسان.

- **الشخصيات حقيقية؟**
- **ربما.**
- **خيالية؟**
- **ربما.**
- **بها جزء من الواقع والآخر خياليِ؟**
- **قد تكون كذلك.**

من الأفضل، لي ولك، أن تقرأها كرواية.

كرواية فقط.

(١)

في مبتدأ أحد الأنهر الشتوية الكئيبة، لم تكمل الثامنة دورتها حتى توقفت ثلاث سيارات متباينة النوع واللون أمام أحد مداخل ذلك المبنى، رحب الأرجاء واسع الحيز مجهول الإنعات، فبرز من السيارة الأولى رجل عريض المنكبين طويل القامة ذو شارب أسود خفيف، ونزل من الثانية والثالثة رجلان لا ينقصان عنه طولًا ولكنهم أنحف قليلًا. سار الرجل الأول ثم تبعه الثاني والثالث، مشى ثلاثتهم في خطوات صلبة واثقة، ما أن عبروا البوابة الإلكترونية مشددة الأمان ببصمة الوجه حتى انتفض الحارس لفتح باب المصعد، فركبوا به وما هي إلا ثوانٍ حتى انفتح معلنًا الوصول للدور السابع عشر الذي تميزه لافتة منيرة في مدخله كتب عليها:

(اللجنة القانونية المعنية بحقوق الإنسان والاستشارات القانونية العاجلة)

وأسفلها نُحتت لافتة مستديرة نُقش عليها:

(تحت رعاية ورئاسة الفيخمان الزعيم القائد، أُنشئت "اللجنة القانونية المعنية بحقوق الإنسان والاستشارات القانونية العاجلة" طبقًا لما يتوافق مع مبادئ الميثاق العالمي لحقوق للإنسان، فلإيماننا المتين بأهمية وحتمية تغيير الأسلوب الأمني المُتبع جاءت اللجنة لتكون المنبع القانوني والإنساني من خلال اختصاصها كجهة معنية بالتعامل مع جميع القضايا والمتهمين، وحتى نطمئن أن ينال المواطن كل حقوقه).

هكذا كان نصها وختمت بالجملة الشهيرة:

(في خدمة الشعب).

خرج الثلاثة من المصعد قاصدين مكتبًا يقع آخر الممر عُلقت على يمنيه لافتة مصغرة حاملة عبارة:

(المدير).

في حركة نشيطة قفز محسن معاون المكتب ففتح الباب، فانكشف ما في الداخل حيث وجد، على غير العادة، ثلاثة مكاتب خشبية متماثلة للغاية، لا يميزها سوى أسماء مختلفة رسمت على ألواح زجاج متناسقة القطع، المكتب الأوسط المقابل للباب تجد الدكتور صلاح العقيلي، وأما المكتبان الآخران فوضعا بعناية حيث يقابلان بعضهما البعض، أحدهما تعلوه الدكتور علاء الدين، والآخر الدكتور جروان النجار، تقدم كل منهم إلى مكتبه، ولم تكمل الدقيقة دورتها حتى توجه محسن إلى المكتب الأوسط وقال في أدب بليغ:

- المُسيف رئيس الجهاز ينتظرك يا صلاح بيه في الحال.

رأى محسن علامات النفور وسمات الضيق وآثار الضجر شرعت تعلو سحنته لهذه العجلة، فأراد أن يبرهن هذا الاستعجال بطريقة أكثر جدية فتابع:

- من الواضح أنه أمر هام وعاجل؛ لأنه حضر للجهاز منذ الخامسة فجراً.

طرأ من الخلف صوت قهقهة ساخرة يتضح من سماعها أنها ممزوجة بين شخصين، أتبعها جروان بقوله:

- وأي جديد في هذا؟ ما أتى يوم إلا وينصب علينا أمر هام وعاجل.

فاستفهم صلاح:

- أين هو الآن؟ أفي مكتبه؟

فجاءته كلمات محسن بما لم يكن يرغب في سمعه:

- لا يا أفندم، إنه ينتظرك في التجويف.

وما أن فرغ محسن من قوله حتى علت أصوات علاء وجروان ضحكًا لأنهما أيقنا بالضيق المحتوم والغيظ المشهود الذي سيجتاح صديقهم لغليانه من هذا النفق وهيجانه لمراته، أما صلاح فصاح بنبرة حادة متأففًا:

- أفندك الكبر! أغرب عن وجهي يا محسن الآن.

ونظر إلى صديقيه وخاطبهم في امتعاض:

- كل منكما في عمله.

فجاءت نبرتهم المتهكمة في آن واحد:

- كما تأمر يا مدير.

فتعجب منهم وقد انفرجت أساريره قليلًا:

- سبحانك يا ربي! فعندما تأتي الاجتماعات وما يتبعها من مصائب أصبح أنا المدير!

تناول من مكتبه بطاقة بلاستكية حمراء بها بعض الكتابات والرموز غير الواضحة، ثم فتح الباب الخلفي للمكتب وأخذ يخطو سريعًا إلى أن وصل للمهبط الإلكتروني، فضغط بكفه اليمنى على شاشته المعقدة، ثم زرع البطاقة في فتحة جانبية، فانفتح، فدخله ثم ضغط زر Under، وأتبعه برقم ١٠ فانغلق الباب، فأخذ يتعجب في نفسه مستبشعًا:

- عشرة أدوار تحت الأرض! كيف؟ ولماذا؟ أهذا مبنى حكومي أم مغارة؟

لا شعورياً أخذته الذكريات البشعة لأول هبوط اضطر له لهذا الوكر الحقير، فاسترجع ما ينحفر برأسه ويأبى الفراق، مما سبب له الاضطرابات النفسية اتجاه هذا المستنقع، وفي أقل من دقيقة فتح المهبط، فهم بالخروج، وإذ فجأة بكائن

أسود ضخم تكسو ملامحه الغضب، ذي شارب عريض يغطي جزءًا كبيرًا من أسفل وجهه يندفع ناحيته، فيدب الارتعاش في أوصاله، فيهتف الرجل به:

- ما بك يا صلاح بيه؟

فبذل صلاح غاية جهده ليتمالك نفسه حتى يظهر بثقة تليق بمركزه ويجيب بنبرة تتناسب مع وظيفته، فقال بصوت حاسم:

- لا شيء يا حمادة، ولكن عندما تسير أصدر صوتًا، أو على الأقل بعض الحمحمة، فقليل من حمحمتك كافية أن توقظ النائم.

فرد حمادة متأسفًا:

- سامحني يا دكتور.

ثم تابع بلهجته القوية المعتادة:

- المُسيف في انتظار معاليك.

تنهد من الأعماق. وتنهد ثانيًا. ثم قال وقد بدا عليه الارتياح:

- إليه ذاهبون يا حمادة، ولكن أرغب في طرح سؤال يلح عليّ دائمًا، ودومًا ما يلحفني حينما أراك، لماذا اسمك حمادة؟ فلا هيئتك تدل على حمادة، ولا هذه الأدغال التي نحن فيها الحين تدل على حمادات.

فأجابه بامتعاض شديد وكأن استشاطة أصابته:

- إنه قدر ربنا يا باشا.

فتمتم صلاح همسًا:

- قدر ربنا! وهل أمثالكم يعرفون ربنا؟
- أتحدثني بشيء يا بيه؟

فأجاب صلاح محاولًا رسم بسمة مزيفة على شفتيه متهكمًا:

- لا شيء، فهيا بنا يا حموكشة.

أخذ صلاح طريقه خلف حمادة وهو يقرأ العبارات المبعثرة ويطالع الرسومات المتناثرة المدونة على الجدران، يتحير من هؤلاء البشر، فمن جانبه كيف هؤلاء المعتقلون في مثل هذا المحبس البغيض الذي يشبه القبر في ظلمته ووحشته، ولهم من الجرأة ما يجعلهم يسطرون مثل هذا الكلام، وما يمكنهم من التفنن في إبداع هذه الرسوم! ألم يخشوا تلك العقارب اللدغة المنتشرة حولهم؟! ألم يتذكروا تلك

السياط المتعاقبة على أجسادهم، والتي كان يراها بعينه! ما كان يستقر في معتقده أن لو أحدهم تذكر ألمه من تلك اللكمات والكدمات ما تشجع لمرة واحدة أن يكتب مثل هذه الكلمات، ولكنه يزال حائرًا، فما هذه السبورة الجامعة التي توحد عليها المصريون! فلم يرَ المصريين مجتمعين أو متفقين من قبل، لا في كلام مرسل ولا في كتابة مسطرة، الآن يراهم يسجلون عبارات مختلفة كل الاختلاف فكريًا وثقافيًا وسياسيًا، يا الله! جميع الشعارات الفكرية والرايات السياسية متمثلة على هذا الجدار، لهذا الحد لم يُرحم أحد، ولم تُرحم فئة من هذه القبضة التي لا تعرف للعفو طريقًا ولا لرقة القلب دليلًا ولا لإنصاف الحق وإقامة العدل أهلًا، كلما تقدم للأمام خلف هذا الكائن المتمثل في حمادة يبصر عبارة أو شعار يسترعى انتباهه ويستميل نظره ويشد تركيزه أكثر وأكثر، ولكن هنالك شيئًا هو وحده الذي احتل عقله وغزا لبه في نهاية المطاف، فكل هذه الكتابات بلون واحد! فهل يهبونهم قلمًا مع كل بطانية؟ أم يعطونهم فرشاة مع كل لحاف؟ ولكن ليس من حقهم أغطية، إذن يحضرون هذه الأقلام معهم؟ ولكن لماذا يختار الجميع هذا اللون؟! هل هو دليل على حركة سياسية أو اتجاه فكري بعينه؟ أخذ يتساءل في نفسه ويقترب من الكتابات، ويقترب أكثر وأكثر، وحينما دنت عيناه من الحائط، كانت الصاعقة، ويا لها من صاعقة، فأطلق صرخة مدوية وثبت مكانه جامد بلا حراك وكأنه تسمر.

***

- صلاح بيه، صلاح بيه، هل أنت على ما يرام؟

بهذه الكلمات انتشل حمادة الدكتور صلاح من رجفته لما اكتشفه في تلك اللحظة، آثار الصدمة تكسو سحنته واضحة على ملامح وجهه، ظهرت جليًا في صوته وهو يرد على حمادة بحروف مهزوزة مرتعشة:

- لا، لا، لا يوجد شيء.

ظل ينظر بتوجس للعبارات التي سُطرت بخط عريض يدل على آثار أربع أصبع، وأخذ يقلب بعينه بين هذه وتلك التي كشفت له حقائق مؤلمة دومًا ما كان يشعر بها، ولكنه كان على مدى الوقت يجعل من نفسه المواطن الشريف الذي يحاول إقناع عقله وملء قلبه بحجج هاوية من وحي خياله أو تلك التي زرعها الإعلام فيه، كالحفاظ على أمن البلاد والعباد، والمؤامرة الكبرى والخطة الملعونة وكل ما شابه هذه الادعاءات التي اعتدها وألفها العرب من السلطات الحاكمة الفاسدة، والتي دائمًا ما تكون فاسدة وظالمة، وكأن الظلم والفساد أصبح صكًا عربيًا ملكًا لنا لا يفارقنا ولا نفارقه. استأنف سيره لكي يتحاشى نظرات حمادة الساقطة عليه كالسهم المسموم، وأخذت تتردد بداخله جملة واحدة، أحقًا كتبوا هذا بدمائهم. كيف ومتى؟ فات أوان السؤال، وما نزعه من أفكاره إلا جلجلة صوت حمادة وهو يفتح باب المكتب بقوته المعهودة ويقول:

- تفضل يا باشا.

فقرر صلاح ربط جأشه حتى لا يبدو عليه شيء من الانزعاج، ودخل المكتب المهيب شكلًا، فسارعه صوت المُسيف الجالس وراء مكتبه الفاخر:

- لماذا تأخرت يا صلاح؟ أنتظرك منذ ساعات طوال.

- أعتذر لك سيدي، ولكني قدمت إليك بمجرد إخباري.

- تفضل بالجلوس، وقبل كل شيء اعذرني، أنا أعلم أنك لا تحب هذا النفق، ولكن لديّ اتصالات هامة للغاية من هنا.

- لا عليك، ولكن ما هذا الأمر العاجل؟

- اقرأ هذا الملف لحين أن تأتي قهوتك. اقرأه بعقلك، عقلك وعلمك فقط.

تناول صلاح الملف، وأخذ يقلب بين ورقاته صفحة تلو الأخرى، وعلامات الدهشة تتجلى على وجهه الشاحب، تتغير ملامحه من سطر لسطر، تزداد من ورقة لورقة، فيا لها من غرابة غريبة حقًا، بعضها يمثل له روعة يعجب بها، وبعضها يحيره فيستدعي خوفه، احتسى صلاح آخر شربة من قهوته، وعاد ينظر في الملف المُلقى على ركبتيه، أما المُسيف فقد زاد توتره وشبك يداه أمامه، وبدأ يصدر صوتًا خفيفًا من أسفل المكتب مما يدل على هزة رجليه، وهذا يعني أن التوتر قد بلغ أقصاه، فأدرك صلاح هذا سريعًا، فألقى نظرة عابرة على أواخر الورق، وأغلق الملف في حركة رشيقة وهلم يضعه أمامه، فجاءه صوت المُسيف سريعًا:

- أي الاعتقادات تكونت لك؟

- لا أراها القضية التي تستدعي كل هذا القلق، ولا المشكل الذي يبدو عويصًا، وإن كان الموضوع غريبًا والأمر ملتبسًا بعض الشيء.

- نعم! ألا تتخيل ما الذي سوف يحدث نتيجة هذا الطياش؟!

فأبدى صلاح اندهاشه وقال مستنكرًا:

- طياش!

ثم أعقب بهدوء:

- في كل الأحوال هذا الملف ليس من تخصصنا.

ما كاد ينهي كلماته المستفزة حتى فتح باب غرفة جانبية، وجاء صوت ما، يشبه الصوت الرجالي قليلًا، صائحًا بتوتر:

- هناك اتصال من الفخامة سيدي.

فالتفت صلاح لمصدر الصوت، فوقعت عيناه على جسد يتناسب عكسيًا مع هذا الصوت، فيا له من جسد يتفجر أنوثة، طويل ممشوق كأنه مرسوم بريشة فنان، شعر طويل حرير فاحم السواد، ويا له من خصر ملفوف جذاب، كما يزينها هذا

السلاح المُسدسيَ المحشور أعلى استها، مما يزيدها أنوثة وولعة. أما المُسيف فارتبك بشدة، وجرت في عروقه هزة لسماعه هذا النداء، فقفز من وراء مكتبه يركض في اتجاه الأنثى ويتعتع بالكلمات غاضبًا:

- الفخامة تتصل، وهذا يقول ليس من تخصصنا!

وأخذ يسرع حتى اختفى داخل الغرفة، أتبعته تلك الأنثى في حركة نشيطة تليق بامرأة لعوب مثلها، رشيقة الحركة حسنة الدلال، وأغلقت الباب، فتناول صلاح الملف وفتحه من جديد وهو يغمغم هامسًا:

- لماذا كل هذا التوتر والتأزم؟

ثم تابع في قرارة نفسه:

هذا ليس مهمًا، فتلك الفتاة هي الأهم، إنها حقًا لجذابة، أراها لأول مرة بينهم، ولكن ما الذي أتى بهذا الغزال وسط هذه الخراف، ثم أخذ يقلب بعينيه بين الورق، بينما تفكيره يقلب في جسدها، بعد ما يقرب من ثلث الساعة، وبينما هو كذلك، انفتح باب الغرفة الجانبية ثانية، خرج المُسيف، وقد غابت عن وجهه علامات الانفعال والانزعاج، بدا مسترخيًا، يتماشى بفخر وتثاقل كمَن خرج منتصرًا من معركة حربية، ومن خلفه تلك الأنثى تصلح من وضع مسدسها وتخصر قميصها لأسفل، فتفعل شيطان صلاح تلقائيًا ليخبر صلاحه خلسة:

- لماذا هو مرتخ هكذا؟! منذ قليل كان يقفز مثل البط، والآن يخرج كقائد ظافر، لماذا مكث ما يقرب من ثلث ساعة بالداخل؟ أهكذا الفيخمان عاطل لكي يضيع مع مثل هذا كل هذا الوقت؟ ولماذا هذه الفتاة تصلح من ملبسها؟

استفاق صلاح من ركوب شيطانه فغمغم له:

- كفى يا إبليس وسوسة وارحل عن أذني.

ما أنهى أفكار الشيطان عن صلاحه إلا وصول المسيف إلى مقعده، أما تلك الأنثى فوقفت على يمين المكتب، فأخذ يتفحصها بعينين ثاقبتين، متأملها من خصلة شعرها إلى أخمص قدميها، وفجأة إذ يقول المُسيف بنبرة أقل حدة عن تلك، تدل على استماتة قادمة:

- يا دكتور صلاح، هذا الموضوع غاية في الخطورة، مما سيجلب للبلاد ما هي في غنى عنه، ولهذا كان يحدثني الفيخمان شخصيًا عن طريق الخطوط السرية، فلذلك يجب علينا وضع حل عاجل لهذا الأمر.

فقال صلاح في دهاء ومكر:

- من الواضح أنه مهم للغاية حتى أن المكالمة استغرقت كل هذا الوقت، كان الله في العون سيادة المُسيف، فالنسر على الأسيف حمل لا يتحمله إلا مُسيف مثلك.

ثم ألقى نظرة سريعة باتجاه الفتاة الكائنة أمامه معبرة عن قصده، ففهمت سريعًا إلى ما يرمي، أما المُسيف فتجاهله وقال بلهجة كبرياء، وهو يشعل غليونه الفاخر ويميل بظهره للخلف منتفخًا برأسه:

- إدارتكم هذه أنشئت في ظروف خاصة، كان إلزامًا علينا بأن نحتوي الشعب والرأي العام والمعارضين العاصيين وأمثال هؤلاء المتمردين حتى نستعيد قوتنا ونستأنف عملنا، لنمسك بزمام الأمور مرة أخرى، وكان الجميع وقتها ينادي بتطبيق حقوق الإنسان ودور الشباب في القيادة والمناصب وهذه الخزعبلات التي ملأت عقولهم وسيطرت على قلوبهم، فكنتم أنتم الثلاثة أفضل اختيار أمامنا لدراستكم المتميزة والفريدة في مجال حقوق الإنسان ولدرجاتكم العالية المسجلة في أعظم وأعرق جامعات العالم، بالإضافة إلى صداقتكم الوطيدة التي تدعم روح العمل، ولكن وبكل صراحة لم أقتنع يومًا بكم أو بعملكم، ولكني أنفذ الأوامر العليا، ولهذا تم إنشاء إدارتكم، ومنذ ذلك الحين نستشيركم في كل الأمور.

فجاء صوت صلاح مقاطعًا بسخرية:

- مناصفة للحق، بالفعل تستشيروننا في كل الأمور، ولكن لم ينفذ منها للآن استشارة واحدة، فدائمًا لا تفعلون إلا ما تبتغونه.

فجاء صوت تلك الأنثى للمرة الثانية، ولكن كانت أكثر وحشية عن ذي قبل:

- نعم لم ولن نأخذ بآرائكم لأنكم سطحيون، تدرسون كلامًا على ورق فلا تعرفون عن الواقع شيء، كيف نمارس الديموقراطية وحقوق الإنسان مع هذا الشعب الجاهل؟ أتعيشون معنا هنا، أم في كوكب آخر؟

فتجاهلها صلاح وألقى بنظره إلى المُسيف الذي سارع بقوله:

- النسر جيلان الحسن من أكفأ حراس الجهاز

فقال صلاح وقد ظهر عليه حدة الانفعال قليلًا:

- بما أننا سطحيون هكذا، فما شأننا وشأن ملفاتكم؟ فلنذهب لقراءة كتبنا، وتتعامل سيادة النسر مع الأمور، فمن الواضح أنها خبرة في التعامل الأمني، وأيضًا في أشياء أخرى.

فشعر المسيف بتفاقم الموقف فقال متبسمًا:

- يا دكتور صلاح، جيلان لا تقصد مضايقتك أو إهانتك.

فلم يعره صلاح بالًا، فتابع بصوت هادئ وقور:

- مكالمة الفيخمان كانت تؤكد وجوب إيجاد حل عاجل وتكتيكي لأنه يحتاج إلى دهاء وذكاء من نوع خاص، لأن مسألة الدين حساسة للغاية بالنسبة للشعب المصري، فلا بد أن نقضي على هذه الأزمة بشكل سلس وسري للغاية، لهذا سوف نجتمع في الثانية عشرة ظهراً لمناقشة الأمر بعد دراستكم له.

فنهض صلاح:

- حسنا سيادة المسيف، سوف ندرس الأمر، ونضع الحلول الممكنة، وسنتواجد في الموعد المحدد.

وقبل أن ينصرف ألقى لمحة من الازدراء على جيلان التي أدركتها غيظًا، ثم خرج وهو يتمتم:

- متى نراكما قشعمين!

فمالت النسر على المُسيف، وقالت، وقد أضحيا نسرين وسيفين:

- لا أعلم كيف تصبر على هؤلاء، خاصة هذا، إنهم ما زالوا صبية، فهناك خبراء قانون ونخب سياسية وحقوقية من أهل التعريض، والضاد صاد، في إمكانهم

إصدار أي فتوى قانونية مهما كانت، كما أنهم قادرون على تفصيل مواد القانون وقتما وكيفما شئت.

فرد المُسيف متهكمًا:

- أنا أنفذ أوامر القيادة العليا، والقيادة العليا تريد إرضاء الشعب، فيجب علينا نحن أيضًا إرضاء الشعب، ألا يقال إننا في خدمة الشعب؟!

فتعالت أصوات ضحكاتهما الساخرة التي قاطعتها جيلان قائلة:

- المدير، لماذا صلاح؟

- لأنه الشخص الأنسب لنا، فشخصيته ضعيفة لحد ما فليست له الجرأة الكافية لمواجهتنا، أو معارضتنا، فلو شخص آخر نزل هذا النفق ورأى ما رأى، فمن المحتمل أن يثرثر كثيراً، وخاصة في الصحف والإعلام لتسلط الضوء عليهم.

- بالنسبة لهذا الأمر لا تقلق فلا تنسَ أن الإعلام هو ابننا الغالي، وماذا بشأن جروان وعلاء؟

- علاء يتمسك بالمبادئ القانونية والإنسانية ويعارضنا دائمًا، أما جروان فمنبهر بأسلوبنا في التعامل، ويتمنى لو كان ضابطا بيننا، ولكنهم يتفقوا في شيء، حبهم وصداقتهم الوطيدة مع صلاح، مما يدعم روح العمل بينهم ويسهل علينا

مهمة التحكم فيهم، ولهذا فهم يعملون في مكتب واحد، وسوف تتعرفين أكثر على شخصياتهم وأنماط تفكيرهم في اجتماع اليوم.

انتهى المُسيف، وساد الصمت لحظات سرحت خلالها النسر، وحينما أفاقت من شرودها نظرت له فوجدت عيناه ترتكزان على نهديها البارزين من بين جناحيها، فابتسمت بخبث وسريعًا أخفتهما وعدلت لباسها، وأخذت تسير بتمايل ودلال إلى أن خرجت، بينما يتابعها سيادة المُسيف من خلف مكتبه بنظرات ثابتة ثاقبة على خلفيتها المتراقصة.

***

عاد صلاح أدراجه، وقد علت سحنات وجهه سحابة من الوجوم والكآبة، جلس على كرسيه صائحًا في محسن، فجاءه مسرعًا، فرمى إليه الملف الذي صعد بصحبته قائلًا:

- استنسخ هذا الملف وأعطِ كل منهما نسخة.

فأسرع محسن ينفذ ما توجب عليه، أما جروان وعلاء فشعرا بالضيق الذي حل بمديرهما وصديقهما فبادر علاء:

- ما أصابك يا صديق؟

وتابع جروان:

- هكذا يكون عندما ينزل هذا النفق، إنني أتطلع بشغف لرؤيته حتى أعرف العلة التي تبغضك فيه.

فلم يجب صلاح، ولكن تكلم علاء متعجبًا مستغربًا:

- أحقًا لا علم لك بما في هذا النفق يا دكتور جروان؟

خيم الصمت لبعض الوقت إلى أن قال صلاح:

- محسن سوف يعطيكما ملفًا هامًا جدًا، استوصتنا عليه الفخامة كثيرًا، علينا دراسته بجدية، ووضع حل قانوني وسياسي عاجل، فهناك اجتماع لمناقشة مقترحاتنا في تمام الثانية عشرة ظهرًا.

فقال علاء بلا مبالاة:

- ولمَ هذا التعجل؟ فإنهم لا يأخذون بتوصياتنا على أي حال.

فكان صوت صلاح هذه المرة حازمًا:

- هذه المرة تختلف عن سابقيها، فإنهم في أمس الحاجة لنا، فآراؤنا وخبراتنا لها ثقلها اليوم.

فتدخل جروان:

- وما هذا الموضوع؟

بسط صلاح رجليه أعلى المكتب، وأراح ظهره للخلف وقد شبك يديه، وأخذ يسرد:

- تسع شباب وبنات، أعمارهم غير محددة، منهم من هو في الجامعة، ومن هو في مرحلة التجنيد، ومنهم من ما زال في الثانوية العامة، هؤلاء الشباب أقباط، أو بمعنى أدق كانوا أقباطًا.

فظهرت علامات الدهشة والفضول على جروان وعلاء وتساءلا معًا:

- ثم؟

في تلك اللحظة دق محسن الباب، ودخل فأعطى كل واحد نسخته، فأمرهم صلاح:

- اقرأوا لتعرفوا التفاصيل برَمتها.

فأخذوا الملف في عجلة ولهفة رغبة في معرفة دقائق هذه القصة المفاجئة.

(٢)

بداخل قاعة الأستاذ الدكتور السيد السيد سهيم بكلية الألسن، حيث يعقد مهرجان الألسناوية للتعريف باللغات والثقافات الأجنبية، يُعلن منظم المهرجان عن المتحدث التالي ألا وهو المنسق العام لرابطة (لغوي)، فما أن نطق بأحرف الدكتور أنس حتى قام من وسط الصفوف الأولى شاب فارع الطول، أنيق قصير الشعر، ذو طلعة حسنة، يرتدي بدلة سوداء توسطها رابطة عنق زرقاء، وأخذ الجمهور التصفيق بحرارة، وبمجرد أن وصل هذا المعيد الشاب إلى المنصة وتطلع، فوجد أمام عينيه أناس طالما تمنى من أعماق قلبه أن يصطفوا أمامه ليتحدث فيهم، فبعد البسملة، وحمد الله، والصلاة على أشرف الخلق، عليه الصلاة والسلام، أخذ يقول بلغته الرفيعة:

- ألا تسمحون لي أن أحدثكم اليوم حديثًا من القلب، حديث ابن لأبيه، وإن كانت الكلمات جافة نازعة والمعاني محرقة موجعة، فأرجو أن تتقبلوه مني، فهذه هي حقيقة الحقيقة في كل زمان وأوان.

ثم أردف:

- أساتذتي الكرام، ما من معلم إلا وله مهابة لدى طلابه، قد تكون مهابة تقديرية وقد تكون مزيفة، وهذه المزيفة تكون ناتجة عن الخوف من سلطته، اتقاء لشر بطشه، أما المهابة التقديرية فهي مؤقتة تسير في اتجاهين لا ثالث لهم

بمجرد الحديث أو التحاور مع هذا المهيب، فإن كان يملك بجانب شهادته العلمية وخبرته المعلوماتية بعض الصفات الإنسانية والاجتماعية وليس بالضرورة كلها، صار هذا المُهيب من معلم واجب تقديره إلى مثل أعلى، وُجب له الامتثال والامتنان بحُب فياض ينتهي دائمًا بالدعاء له، وإن كان يعتريه بعض الكبرياء، أو شيء من الغرور فسوف تصير هذه المهابة التقديرية لنظرة استهانة وازدراء، وإن وجدت بعض المهابة فهي تصبح مزيفة لا أكثر.

دوى صوت الصفير والتصفيق والهي والهاه في القاعة المكتظة بالطلاب والطالبات والتي طابقت كلماته ما تكنه قلوبهم وتخشاه ألسنتهم، ولكنه تابع بلغته الشجاعة:

- فإن كان من حقك أن تصبح معلمًا لخبرات وشهادات مزخرفة ومعلقة خلف مكتب فخامتك، فمن حقي كطالب أن أختار معلمي ومثلي الأعلى لما يتراضى مع أخلاقي وطموحاتي، وليس لما يتراضى مع شهادتك الورقية.

وأخذ يستأنف والعقول موجهة إليه، والأذن مصغية له والأعين مصوبة نحوه، إعجابًا وحبًا من جلساء المدرجات، وضيقًا وغضبًا من جلساء المنصة فكادوا يتطيرون شتتًا:

- بالنسبة لي لم أترك فرصة مناسبة إلا وتحاورت مع أحد أساتذتي، والحمد لله وجدت فيهم من هم أرقى من أن أتخذهم مثلًا أعلى لما يملكونه من التواضع

والحلم والوقار والحب والحنان الأبوي للطلاب بجانب علمهم الغزير وخبراتهم المتدفقة، ولكن واأسفاه ما كانوا إلا العُشر، أما الأغلبية العظمى فلا أستطيع وصفهم أو معرفة جوانب شخصياتهم، لأنني لم أحصل على شرف الحديث معهم وهذا لسبب صغير للغاية وهو سمة الكبرياء المتغطرسة السائدة بينهم، والتي يبررونها بوضع حدود بين الطالب ومعلمه، وكأنما نسوا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يضع حدوداً بينه وبين أمته وأحبابه، فتذكر معلمي الفاضل أن من أعطاك هذا العلم وهذا المنصب هو ذاته المُكلف بنشر هذا العلم والعدل فيما نصبت به وفيه.

فعليك أن تعلم أيها المهيب إذا أعطيت المعلومة لطالبك بشيء من الرياء أو الغرور فلن يتقبلها عقله ولن يسعى لفهمها أو حتى تذكرها، وإن أُجبر على تقبلها مؤقتا اتقاء لبطشك المتمثل في امتحاناتك واختباراتك فلن يتقبلها منك ربك قبولًا حسنًا.

بمجرد انتهائه من خطبته، اشتعلت القاعة صياحًا وتصفيقًا من قبل الطلاب، أما الأغلبية من جالسي المنصة تجلى على وجوههم الامتعاض والحنق الشديد، ومن بين مئات الطلاب والطالبات المعجبات، رغبت إحداهن في نشر هذا الفيديو الذي قامت بتصويره لتلك الكلمة الحماسية، ففتحت حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي، فوجدت أنه الحساب السري ما زال مفعلًا، فلقد نسيت الخروج منه ليلة أمس، فحمدت الله كثيراً لعدم تصفح أحد لهاتفها، وكادت أن تغادر هذا الحساب السري إلا أنها رأت منشوراً يتمثل في صورة للمسجد النبوي رسم عليها عبارة بحروف تكاد أن تنير، (سلام الله عليك يا حبيبي يا رسول الله)،

فأحست بقشعريرة تنتاب جسدها مما زاد من نبضات قلبها، وأسرع معدل تنفسها، فتمتمت بحروف مهموسة دون أن تحرك شفتيها، واغرورقت عينيها بالدموع، فكيف لا تنسكب دموعها لقراءة اسم حبيبها المشتاقة إليه، المحرومة من جهر محبته، فكتبت تعليقًا وهي ما بين الوجيف والرجيف:

(عليه الصلاة وأفضل السلام. أشتاق إليك يا حبيبي يا رسول الله فما أحببت ولن أحب مثلك قط).

ثم نوت مغادرة الحساب، فلم يمهلها الزمن ولا القدر ولا الحظ ولا النصيب لتغلقه، فتعكس الرياح شراع سفنها، وإذ بالبلوى، ويا لها من بلوى، انتزع هاتفها من بين يديها بقسوة، وجاء صوت زميلتها المرتفع بطبعه:

- رواية، رسول الله؟! صلاة وسلام؟! ما هذا الذي تفعلينه؟!

فأصابها الذعر، كل الذعر، ولم تنبس ببنت شفة.

(٣)

دقت الساعة المركزية دقتها الكبرى لتعلن عن تمام منتصف النهار، فانتبه صلاح للوقت، وأخذ يطرقع أصابعه ورقبته، ثم سأل رفاقه:

- أنتهيتم؟

فجاء رد جروان وهو ممسك بهاتفه:

- انتهيت منذ ساعة، والآن ألعب صاب واي.

فالتفت إليه صلاح بنظرة عابرة، وتجاهله، ثم دار وجهه لعلاء:

- علاء، فرغت منه؟

استغرق علاء ثواني معدودة في متابعة القراءة ثم أغلق الملف، وقال:

- انتهيت.

ثم تابع في اندهاش ورضا نفسي:

- سبحان الله.

فتوجه صلاح ناحية جروان:

- انتبه معنا في الحوار وكفى لعبًا.

فقال جروان وقد وضع الهاتف أمامه على المكتب:

- رأيي أن هؤلاء الشباب توافه.

فسأله علاء في استنكار:

- وماذا تعني بتوافه؟

- أعني أنهم لا يريدون الدين حقًا، وإنما هدفهم ظهور إعلامي، وشهرة لامعة اعتمادًا على مبدأ خالف تُعرف.

- ولماذا استنتجت هذا أيها المفتش؟

- من منكم يستطيع أن يفسر لي لماذا يريدون إشهار إسلامهم الآن بعد أن صبروا كل هذا الوقت؟ ولماذا يريدون عقد مؤتمر عالمي ليشهروا من خلاله إسلامهم؟

فقال صلاح:

- فكرة هذا المؤتمر وإعلان إسلامهم الجماعي هي ما تقلق الدولة حاليًا.

فرد علاء بكل ثقة:

- طبقًا لما قرأته في التقرير فإنهم لم يعلنوا إسلامهم خوفا من أهاليهم، ومن رد فعل الكنيسة التي بكل تأكيد لن تسمح ولن تغفر لهم هذا، ولذلك أردوا أن يعقدوا مؤتمرًا عالميًا تحت قيادة الأزهر حتى يُجبر الجميع على الاعتراف بهم، وتلزم الدولة والمنظمات الحقوقية بحمايتهم وعدم المساس بهم.

- هذه أفلام سينمائية يا دكتور، وأيضًا أنا لا أطمئن لهذا الدكتور المسلم الذي يقودهم وكان سببًا في إسلامهم، فمن جانبي هؤلاء الشباب لا يسمح لهم بالدخول في الإسلام إطلاقًا، والأزهر سوف يساعدنا على هذا، وإن تعقدت الأمور بعد كل المحاولات لإجبارهم على ترك الإسلام وأصروا، فليعتنق كل منهم في سرية تامة بدون قلق أو إزعاج، فالدولة لا تحتمل مشاكل أو مصادمات مع الكنيسة، أو مؤسسات التبشير الدولية.

فجاء صوت علاء مستنكرًا وقد بدا عليه بعض الضيق:

- أأنت مجنون، أم التفكير العلماني قد أثر على دينك ومبادئك؟

ثم تابع علاء بثقته المعهودة وبنبرة رجل له الحجة، طويل الباع:

- لقد درست السياسة والقانون، سمعت الموسيقى باختلاف ألوانها، قرأت في الأدب العالمي بكل أشكاله، اطلعت على العهد القديم والجديد، قارنت في

مختلف الأديان غير السماوية، عشت في الغرب والشرق، صادقت أناس من كل الأجناس ومن كل البلاد، ولكن هذا لم ينسني يومًا إسلامي أو عروبتي، ولم أكل يومًا في الدفاع عنهم بالحكمة والموعظة الحسنة، أليس من حقوق الإنسان التي أضعنا شبابنا في دراستها في أعرق جامعات العالم، أن يختار كل إنسان ديانته وأن يمارسها كما يرغب، كما أن على الدولة حمايته والآخرين احترامه؟

فحاول جروان مدافعًا عن وجهة نظره:

- أنا أتحدث بالمنطق ولا يهمني سواه، فهذه العواطف لا مكان لها اليوم، تخيلوا معي هذا السيناريو. أولًا، الأزهر وعممه أجبن من أنهم يتولوا مثل هذه المهمة بدون موافقة الجهات الأمنية، ثانيًا إن عقد هذا المؤتمر المزعوم بالأزهر أو بغيره الكنيسة بالطبع سوف ترفض وتهاجم هذا الإشهار بكل قوتها، ولهذا ستوجه حركاتها وجمعياتها الخفية لاحتواء الأزمة وكلنا يعلم ما للكنيسة من قدرات، مما يجعل المسلمين يقومون بالرد والدفاع عنهم، وكل هذا سيؤدي بكل تأكيد لملء نفوس المسلمين والمسحيين بالحقد والكراهية، وتصبح فتنة طائفية نحن لسنا بحاجة إليها.

فتوجه علاء إلى صلاح:

- أتسمع ما يقول؟
- نمط تفكيره مطابق تمامًا لتفكيرهم، ولولا أنه صديقنا لحسبته منهم.

فجاء صوت جروان ضاحكًا في محاولة منه لغيظ صديقيه:

- إنه لشرف لي أن أكون حارسًا به، فهو من أقوى الأجهزة الإقليمية في المنطقة.

فأردف علاء في عجالة:

- وأقذرهم أيضًا.

حينما سمع صلاح كلمات علاء سرح بخياله قليلًا، لقد سمع هذه الكلمات، أو رآها من قبل، فتساءل في نفسه:

- أين قرأتها؟ أين سمعتها؟

وحينما تذكر انتابته قشعريرة باردة سرت في جسده، إنها القشعريرة الثانية في نفس اليوم، ولنفس السبب، رآها مكتوبة على إحدى جدران ذلك النفق، إنها أيضًا مرسومة بالدماء، كانت واضحة تترد في فكره، وتظهر كشريط عرض أمام عينيه:

(القذارة ليها ناسها).

ولم يشعر بشيء إلا عند صياح جروان به:

- لقد تأخرنا على الاجتماع، فهيا بنا.

توجه الثلاثي للطابق الأعلى حيث الحجرة المركزية للاجتماعات الخاصة بالهيئات العليا التابعة مباشرة للمسيف، وفي طريقهم مروا بعشرات الممرات التي يتفرع عنها مئات الغرف الصغيرة المخصصة لمتابعة العمليات المدنية في الأقطار المائة، وفي داخل الحجرة يجلس المُسيف على رأس المائدة وعلى يمينه سيدة، حينما أبصرها صلاح توقف عن السير، أما عند وقوع نظر جروان عليها قال وهو يوجه سهامه إليها:

- إنه لأفضل اجتماع أحضره هنا.

فرمقه صلاح بنظرة صامتة، أما علاء فصاح بهما:

- لمَ توقفتما هنا؟ تقدما يا رفيقيَ.

فسار الجميع نحو المائدة المستديرة، فحيوا المُسيف رئيس الاجتماع، وجلسوا على الجانب الآخر المقابل للأنثى:

فقال المُسيف:

- قبل ذي بدء، أعرفكم بسيادة النسر جيلان الحسن، خلفًا لحيات العاصي، والتي سوف تتولي هذا الملف الذي سنناقشه اليوم.

فرسم علاء وجروان ابتسامة مجاملة على شفتيهم، أما صلاح فلم يتجاهل حدة الحوار الذي دار بينهم في الصباح، وتابع الجميع الاجتماع، عرضوا أفكارهم وآراءهم، وما أن فرغوا من الحديث عن وجهات نظرهم، حتى نظرت جيلان لجروان قائلة:

- من الواضح أن كل ما سمعته عنك صحيح ويبعث على الأمل.
- لعله خير!

فأجابت وعلى شفتيها ابتسامة لا تخفي خبثها:

- بالطبع كل خير، فأنت مكانك ومقامك أرفع وأعلى شأنًا، ومن الأجدر أنك تكون واحدًا منا لأنه سوف يكون لك مستقبل مبهر.

فقال جروان وهو يطرف بأحد رمشيه:

- بكل تأكيد إن العمل مع سيادتك سيكون مبهرًا، وممتعًا أيضًا.

قاطعهم المُسيف بقوله:

- سوف أبلغ الفخامة بكل اقتراحاتكم، ولننتظر الرد.

فانصرف الجميع ما عدا جيلان، فمن الجلي للعيان أن مهمتها لم تنتهِ بعد، وفي خلال عشر دقائق استقبلت الفخامة التقارير بما فيها من اقتراحات وحلول.

(٤)

في أهم الغرف الفتاكة والأكثر خطورة وجسامة وجدية ورصانة على الإطلاق، حيث تُطبخ الأحداث وتشتوى كما ينبغي لها ولأهلها أن تكون، كانت شمس الغروب الذائبة تتسرب على مكتب من أجل المكاتب وأعظمها في البلاد، يقبع في ركن الغرفة، عسى أن تنعش الجو من سقعه المفرط، ولكأنها مرتعشة مهزوزة مرتجفة من بث أشعتها داخل هذه الغرفة دون استئذان الصَقَّار الأكبر، شيخ الصقارين، الأنيق ذي الهيبة، الذي يجلس يحتسي قهوته السادة وجسده باتجاه النافذة، ويقرأ بنهم في ورق تختبئ كلماته بين ملف داكن يحجب الرؤية عن ما بداخله، وإذ فجأة يدير نفسه بالكرسي المتحرك بنشاط في حركة مهفهفة رشيقة سريعة خفيفة كعادة جميع أعماله، ويمسك سماعة هاتفه الداخلي وينادي في سكون ولطف:

- إحسان، احضر في الحال.

يغلق الخط وما أكملت الدقيقة دوراتها حتى دلف المعاون سريعًا قائلًا:

- أمرك يا أفندم.

فقال في عجالة:

- أبلغ الصَقّارين باجتماع هام بعد ساعة وأعطهم نسخًا من هذا الملف لدراستها.

- علم وينفذ سيادتك، أوامر أخرى؟

- قيادات الهياثم الكبرى؟

- متواجدون في مكاتبهم.

- أبلغهم بالاجتماع و ...

سكت قليلًا ليدرك أمرًا ما، ثم عاود الحديث:

- لا تبلغ الهياثم شيئًا، فعّل خطهم الجماعي.

فاستأذن إحسان منصرفًا، وفي خطى سريعة تجاوز الطرقة الطويلة، وما أن وصل مكتبه حتى نفذ ما أمر به، وفي دقيقة واحدة علت أجراس التواصل المباشر، فهيئت كل الهياثم بقياداتهم جميع جوارحهم للتلقي والإنصات للشيخ الكبير، فدقت الخطوط المنفردة فكانت الاستجابة بأقصى سرعة، فخرج الصوت الوقور منها مخاطبًا إياهم:

- صباح الخير يا بهوات، أتمنى أن الجميع على ما يرام، لقد اطلعت على التقييمات النهائية عابرة المكان وكانت جيدة، أما ما فوق الزمان فلنا فيها آراء سنناقشها فيما بعد، وعلى كل حال أعلم أن خريف الصيف الماضي وربيعه كان من العصيب والعسير تجاوزهما بدون أخطاء، ولهذا أقدر مجهوداتكم، ولكن القادم

ليس فيه مجال لخطأ، خطأ واحد. سيادة الهيثم البكر، يرجى حضورك لاجتماع بعد ساعة، ويرافقك قيادات الهياثم الكبرى.

وتوقف قليلًا. ساور الشك قلوبهم واجتاحت أذهانهم الريبة، فلن يحدثهم شيخ الصقارين بذاته ليبلغهم بنتيجة تقييم أو مجرد اجتماع عادي، فظل الجميع ينظرون لبعضهم البعض وآثار القلق تكسو الوجوه، وكل يترقب بحذر إلى أن استأنف حديثه:

- عليكم جميعا بتكرير مبدئي لـ (خلق من خلق)، بالتوفيق، في انتظاركم.

وأنهى الاتصال بهدوء كالمعتاد، وهو يعلم علم اليقين أن مخاطبيه لن يعود لهم هدوء بعد كلماته هذه، فالمفاجأة والصدمة كانت أكبر مما يتخيلون، ران الصمت المطبق، حاول الجميع استيعاب الأمر، ولكن لا أحد يفهم أو يدرك من أين يبدأ، فبدأت المجموعات تخرج أمام مكاتبها موجهة نظرها لباب مكتب الهيثم البكر، القائد العام، والذي يقع في منتصف الممر، حيث صدق حدسهم بأنها ستفاجأ مثلهم، وبالفعل خرجت لهم وعلى وجهها آثار الصدمة لا تقل عنهم، فهزت بكتفيها وحاجبيها وضمت شفتاها مما يدل على تعجبها، وبإشارة من يدها فهمتها القيادات سريعًا، فتوجهوا لها.

(٥)

لم ينقذها من هذا الموقف العصيب سوى صديقتها الحميمة قصة التي تعرف جميع بنات قلبها وتكتمها، كما تساعدها في تحقيق جميع رغباتها وأمانيها، حينما سمعت الدكتورة قصة جهارة الصوت المنبعث من ماريا ثقيلة الفهم ثقيلة الظل ثقيلة الروح، شعرت بالكارثة المحتومة، فبادرت لتخليص الوضع، انطلقت سريعًا باتجاه ماريا لاستعادة الهاتف من بين يديها، ثم أخذت بيد صديقتها ورفيقة دربها وذهبتا بعيدًا، ولكن لاحظ غالبية الحضور التغيير المفاجئ الذي طرأ على رواية، فمن في الكلية بأسرها لا يعرف رواية، والتي لم تشتهر لتميز اسمها أو لجمالها، فقد كانت صغيرة الجسم ضعيفة البنية، قوامها طويل نحيف، وإن كان هذا أكسبها ملاحة وجاذبية، رواية، على غير مرغوبات جنسها، دائمًا ما تسحر الناس برشاقتها، ورقتها، ودماثة خلقها، ورجاحة عقلها، واتساع ثقافاتها، وفكاهة لسانها، وبلاغة كلمتها، وفصاحة عبارتها، كما كانت حنونة وهادئة.

مكثت رواية منذ عودتها من الجامعة في غرفتها جالسة القرفصاء على سريرها بينما على يمنيها مرآة، فتلقي إليها من حين لآخر نظرات زائغة، وتحدثها بعين تطفح كلمات مبعثرة من كثرة ما تحويه بين جفونها، بينما شفتيها ساكنة ولسانها صامت، أكثر ما يستحوذ على تفكيرها هو رد فعل ماريا وما الذي ستصنعه، فهل ستخبر أباها قسيس الكنيسة؟ أم ستحدث والدتها التي تبغضها لتفوقها على ابنتها، والتي ستجدها فرصة سانحة للتشهير والانتقام منها؟ بعد تفكير عميق في ماضي لا تعرف

كيف بدأته، وفي مستقبل لا تعلم كيف سينتهي، حيث سحبت الشموس أشعتها وحلت الأقمار أنورها، قامت إلى المرحاض، وما هي إلا دقائق معدودات حتى عادت لغرفتها فأحكمت غلقها، وحيث قد اقتربت الساعة من جميع أجزائها طرق الباب، فمن سيكون غير والدتها، فهما اثنتان وحيدتان في المنزل لا ثالث لهما، حينما أدركت أنامل والدتها تدق قامت مهرولة، فلملمت السجادة وأخفت الإسدال، ثم فتحت الباب، فدخلت سيدة تعتقد من الوهلة الأولى أنها في أواخر الستينيات أو السبعينيات لكبر معالم وجهها وكثرة التجاعيد به، ولكنها في الحقيقة ما زالت في عمرها الرابع، لعب الزمان بها وقلبتها الأيام والليالي، ذات بشرة قمحية، وقور، هادئة الطباع، تزين عنقها بسلسلة فضية يتوسطها صليب متوسط الحجم، دخلت أم إسحاق غرفة ابنتها، فطبعت قبلة خفيفة على جبينها، ثم بدأت في أسئلتها المعتادة عن سبب مكوثها في الغرفة وحيدة، وكالعادة تهربت رواية بكلام مرسل، دائمًا لا تقتنع الأم به، وغالبًا لا تفلح البنت في إتقانه، فتبادلتا أطراف الحديث من هنا وهناك، عن الكلية تارة، وعن الحياة العامة تارة أخرى، إلى أن حان وقت سؤالها عن الرجل الوحيد بحياتهن فقالت الأم:

- متى إجازة الباشمهندس؟

قبل أن تحرك رواية شفتيها للإجابة دق جرس الباب، فتابعت الأم مبتسمة:

- سأرى من الطارق، ثم أني آتية لمعرفة أخبار مهندسنا العاشق.

ذهبت الأم باتجاه الباب، أما رواية فتابعتها مرتعشة بخطى خفيفة مهزوزة، وقلبها يرتعد مرتجفًا يدق دقًا خشية أن تكون الزائرة ماريا أو والدتها، وعندما فتحت الأم الباب ظهر ما لم يخطر على بالهما.

(٦)

- لقد أمرت الفخامة بغلق هذا الملف تمامًا والتكتم على أموره، والتخلص من كل أوراقه في الحال.

هكذا أبلغ المُسيف نسره عبر الهاتف، والتي استشاطت غضبًا صائحة به:

- ما هذا الهراء؟ ماذا تقول؟ لن أوافق أن يحدث هذا على الإطلاق، فهذه قضيتي وملفي ولن أسمح بوصدها إلا عندما أنتهي منها كما يروق لي، فليس هناك أفضل مني حتى يتولى هذا الأمر.

فقال المُسيف بلغة هادئة محاولًا امتصاص ثورتها:

- الملف خرج من بين أيدينا فلا حول لنا ولا قوة به، على ما يبدو أنه تحول إلى قبة الصَقارين ليتخذ طريقه لعش الصقور.

فانزعجت وصاحت في غضب شديد:

- لماذا تثق الفخامة في القبة أكثر منا؟ لماذا تكسبهم هذه المواثقة العمياء؟ ونحن من نقوم بتأمين البلد بأسرها على أكمل وجه، أليس نحن الذين نواجه المعارضة بالطرق الشرعية منها وغير الشرعية؟ ألسنا من نراقب ونقمع الأحزاب والحركات بكل الوسائل المتاحة وغير المتاحة، فلماذا إذن يثقون بهم أكثر منا؟

- هذا لا يهمنا في شيء، نحن نتبع الأوامر فقط.

فجهرت جيلان بطريقتها العصبية:

- أطع أنت الأوامر وحدك، ولكننا نحن نسور الجهاز لن نقبل بهذه الإهانة البشعة، وسوف نثبت أننا أجدر من تلك الصقور المزيفة.
- أتعجب لأمركم، فلا أعلم لماذا أنتم تأخذون الأمر بحساسية شديدة، ويعتريكم دائمًا الشعور بالإهانة اتجاه صقور القبة، فعلينا جميعًا الالتزام بأوامر الفخامة العليا، أتفهمين مقصدي؟

لم يتلقَّ ما يبعث على الإجابة فواصل:

- سوف نلتقي في التاسعة لتناول العشاء.
- اتركني وشأني، إنني مرهقة اليوم سأخلد للنوم.

ثم أغلقت المكالمة، ولكن لم تمسك عقلها عن التفكير الذي أخذها بعيدًا وبعيدًا.

(٧)

حول المائدة المستديرة، والتي تعد أهم موائد الدولة، يجلس تسعة صقارين، كل منهم له باع طويل في مجال صيده، يترأسهم كبيرهم، شيخ الصقارين، وفي آخر المائدة تجلس الهيثم البكر، القائد العام، علا، وبجانبها قادة مجموعات (الفرديات الصحراوية والثنائيات الجبلية والثلاثيات العشبية والمطارح المنبثقة والمجامع المتحدة ومنفردة المصدر ومجمعة التزامن ومتواترة الأصل والمثلث العشري والدائرة الوسطية وجزئيات المكان وكليات الزمان)، بادر الشيخ مستفسرًا:

- أقرأتم جميعًا الملف؟

أجاب الجميع بما يفيد الإثبات، فأشار بيده إلى شخص واقف بجانب شاشة العرض القائمة أمامهم أمرًا:

- ابدأ.

فاستجاب المنادى به على الفور، وضغط الزر، فأخذت الصور تترامى من شاشة العرض على أبصارهم، والأصوات تُرسل إلى أذانهم، وما هي دقائق معدودات حتى فهمت الهياثم الكبرى لماذا طلب السيد منهم التكرير المبدئي لخلق من خلق، وفي لحظة واحدة نظر كل منهم للآخر، وقد رسمت على شفتيهم ابتسامة، عندما رآها شيخ الصقارين وهو يراقبهم من مقعده تنفس الصعداء، فهذه ابتسامة يعلمها

جيدًا، إنها ابتسامة التفاؤل بكشف مطرح الفريسة، وبمجرد انتهاء العرض نظر شيخ الصقارين إلى آخر المائدة حيث تجلس علا وفريقها وخاطبهم:

- أعتقد أنكم الآن تفهمتم الأمر؟

فأجابت علا على الفور:

- لم أتوقع أنه سيأتي اليوم الذي ستنزل فيه هذه الشباك لعمق البحار، بعد أن سُبق لها الرفض.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تواصل:

- إنه حقًا لقد تملكنا اليأس من إمكانية تنفيذ هذه المصيدة التي طالما شاركنا في نسج خيوطها وكتابة سطورها، وما دمنا نتمنى تفعيلها.

فقال الشيخ بثقة وهدوء كالمعتاد:

- لكل صلاة أذان، فمن المحال تنفيذ شيء سابق للأوان، والآن قد حان، فلنفعل ما نشاء.

ثم تابع:

- سوف نناقش كل شيء بالتفصيل حينما يعود صانع المصيدة ومبدعها.

فسألت علا:

- متي سيعود الصاقر؟

- لن ننتظر موعد قدومه، فمهماته في الخارج لن تنتهي قبل شهر، ولذلك عليكم بإرسال برقية لجميع مكاتبنا في الخارج تدعوه للحضور فوراً، أبلغوه بهذه الكلمات:

فأمسك جميع قادة المجموعات بأقلامهم ليسجلوا ما سيمليه شيخ الصقارين الذي بدوره قال:

(دعوة للرذيلة: بعد انقضاء السنوات العجاف، عثرت الأم على فتاة بكر، تحمل نفس الجينات التي تتوافق مع جينات ولدك، وما زالت الفتاة في سن المراهقة، حيث يبدو الأمر سهل يسير، فيجب عليك مضاجعتها في أقرب ليل، قبل أن تتفاقم شهوتها ويستغلها آخرون، فالفتاة جذابة والآخرون كُثر).

انتهي الاجتماع وانصرف الحاضرون، ولم تكمل الساعة دورتها حتى كانت تُستقبل البرقية في كل عواصم العالم من شرقه إلى غربه.

***

بينما تتواجد علا داخل مكتب مجموعة (الدائرة الوسطية) لمتابعة دقائق الأمور لرسم خطة التسهيل للاقتحام اليسير في غضون ١٠٠٤٥ ثانية، يدخل عليها قائد (منفردة المصدر) ليبلغها بوصول أربع برقيات تتعلق بالصاقر.

- وبأي شيء تبلغنا؟

- برقية نابولي تقول: نفرتيتي باتت في موكبها، ثم رحلت بجيشها قبل موعد استيقاظها المعتاد بساعات قليلة ولا نعلم العلة حتى الآن.

وبرقية من مالطا تقول: العصفور تأخر عن ميعاد الإياب من رحلته، ولقد حل الليل، نخشى أن يكون قد تاه في الظلام، ولكن لا داعي للقلق فنحن نطعم أطفاله حتى ظهوره مجددًا.

وبرقية مكة تقول: عباد الله تأخروا عن الطواف، ونخشى أن يضيع منهم الوقوف بعرفات.

فقالت علا في انزعاج وتشوش:

- يا الله! هذه البرقيات غير مطمئنة إطلاقًا ولا تبعث على الارتياح، فما الذي حدث يا ربي؟

- لا نعلم شيء، ولكن هكذا الصاقر دائمًا، فلا داع للقلق عليه، هنالك برقية رابعة تفك شفرتها في معمل المطارح المنبثقة الآن.

وما كاد أن يكمل عبارته حتى دخلت عليهم فتاة رشيقة من مجموعة المطارح المنبثقة وفي يدها مظروف وأعطته إياه، فلهمه منها بسرعة وقال:

- إنه من مكتبنا في إثيوبيا حيث يقول: مصب النيل يزور منبعه، فبعض الضروريات حتمت في المنبع، فكان المصب بعطائه الوافر هو صاحب الحل، ولقد أبدع، وتم إخباره بالجفاف المحيط بكم، وسيكون في موطنه اليوم عند بزوغ ثاني إشارات قمركم.

فتنفست علا بارتياح وسكون وهي تنظر في ساعة المكتب الخاصة:

- الحمد لله، فبعد ساعتين من الآن سيكون بيننا.

ثم وجهت كلامها لقائد منفردة المصدر:

- أبلغ الشيخ في الحال.

ثم أدارت عيناها للفتاة وأمرتها:

- أبلغي قائدي الفرديات والثنائيات بوجوب التحرك في الاتجاه المتباعد للمائة، وعلى العشبيات الاستعداد للبدء قبل ٩٧٨ ثانية.

ثم عادت لتخاطب قائد الدائرة الوسطية:

- نفذ ما تم الاتفاق عليه، وأدرج الجميع تحت قيادة الصاقر بمجرد وصوله، وعليكم التعامل بالعشر، أما كليات الزمان وجزئيات المكان فتغادر من الآن للتنفيذ.

فرفع المتواجدون أمامها التحية قائلين في لحظة واحدة:

- علم وينفذ سيادتك.

ثم انصرفوا، وانصرفت خلفهم.

(٨)

تفتح الأم الباب فيتبادر صوت فتاة جميلة ممشوقة طويلة متناسقة بيضاء ترتدي إسدال صلاة بيتي:

- السلام عليكم خالتي الحاجة.
- وعليكم السلام.
- أعتذر من هذا الإزعاج، أنا جارتكم الجديدة ولسوف أقيم في هذه الشقة المجاورة.
- أهلًا ومرحبًا بك يا بنيتي.
- أشكرك كثيرًا، عذرًا ولكن لا أعرف اتجاه القبلة، لأنني أريد أن أصلي ركعتين لله لمباركة هذا المسكن حتى يجعله الله مأوى الخير ومثوى العطاء والإحسان.
- ولكن يا بنيتي نحن ...

في هذا الوقت تتدخل رواية مقاطعة والداتها وتسير في اتجاه الجارة لتقول بتدفق في لهفة واندفاع حماسي:

- أنا أعرف اتجاه القبلة، أهلًا بك، أنا اسمي رواية.
- وأنا اسمي إيمان.

مع هذا القول تتطلع أم إسحاق بنظرة ريب وتعجب إلى ابنتها، فتدرك رواية خطأ ما وقعت فيه، فحاولت تصحيح الموقف وتعديله فقالت بصوت مذبذب وهي تحدق في عين والدتها:

- عرفت اتجاه القبلة لأنني عندما كنت أزور جارتنا كنت أراها تصلي.

شعرت إيمان بأن هناك شيئًا غريبًا أو التباسًا ما قد حدث، فنظرت لأم إسحاق، فتعلق ببصرها الصليب المُعلَق حول عنقها، فأحرجت كثيرًا وقالت خجلة آسفة:

- متأسفة، لم أكن أعلم.

فقاطعتها قائلة:

- لا عليك يا بنيتي فكلنا أخوة.

وأشارت لرواية:

- اذهبي معها مسكنها، وأعلميها باتجاه القبلة.

ذهبت رواية معها، وأغلقت الأم الباب خلفهما، ثم غمغمت محدثة نفسها في استنكار:

- كيف تعلمت من جارتنا، وأنا لم أراها تفترش سجادة من قبل، أو حتى تفقه شيئًا في دينها!

دخلت رواية مع إيمان الشقة، فتناولت الأولى السجادة ثم وجهتها ناحية القبلة، فشكرتها الأخيرة على لطفها ومساعدتها لها ثم سألتها:

- ما هي دراستك؟

- أدرس في كلية الألسن قسم لغات شرقية وإسلامية (تركي - فارسي)، وبجانبها لغة ثانية، اللغة السواحلية، وأنت ما هي دراستك؟

- أنا خريجة كلية سياحة وفنادق، وحاليًا أعمل كمديرة تنفيذية للمركز العالمي للغات.

- سبحان الله فمجالنا واحد، أتمنى أن نكون أصدقاء يا أستاذة إيمان.

- أكيد سوف نصير أصدقاء وأخوة أيضًا، ولكن لا عليك بأستاذة هذه، فادعيني بإيمي.

- إذن سوف أناديك بإيمان، لأن اسم إيمان مبهر وذو دلالة ومعنى جميل نقي مما يعجبني كثيرًا فله مذاق خاص.

- اتفقنا عزيزتي، وإن كان اسمك أجمل كما أنه مميز للغاية، انتظريني سوف أتركع سريعًا، ثم نجلس نتسامر معًا.

- سأنتظرك لكي نتحدث كثيرًا، وأساعدك أيضًا في تدبير وتنظيم الشقة.

شرعت إيمان في الصلاة، بينما ظلت رواية تراقبها عن كثب، وقلبها مليء بمشاعر روحانية صافية فياضة، كم تتمنى البوح عن كثير وكثير مما يكمن بداخلها، تأمل وتشتهي من أعماق قلبها أن تصطف بجانبها لتتلو معها بصوت جهور، ولكن للخوف نصيب الأسد، ولكن مع كل ذلك، تشعر بارتياح واستبشار بعدما كان يختلج قلبها ويرتعش رجفًا وفزعًا، وإن كانت لا تعلم مصدر هذه الطمأنينة والسكينة، في هذه الأثناء انتبهت فاطنة لصوت إيمان الجهور التي تتلو بصوت عذب متقن مأنوس رقيق رائق قوله تعالى من سورة يوسف: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[يوسف:٩٠]، فانتابتها قشعريرة انتفاضتها، فخضخضت ورجرجت معها روحها وقلبها، فأدركت وعقلت أنها رسالة ربانية، وما أن فرغت إيمان من صلاتها دق الباب، ففتحت رواية، فإذ بأم إسحاق حاملة بين ذراعيها صينية بها ما لذا وطاب مما يكفي لإشباع البطون، فدخلت وهي تقول:

- مما لا شك فيه أنك يا بنيتي جائعة، وأيضًا رواية بلا محالة، فهي دائمًا جائعة، فهيا بنا نأكل سوياً حتى يكون بيننا عيش وملح.

فشكرتها إيمان باحترام وخجل وأثنت على معاملتها العطوفة، وحسن ضيافتها، ودمث خلقها، وجلسن حول المائدة، وفي إبان الأكل بادرت أم إسحاق بسؤالها لإيمان:

- ستقمين بمفردك؟ أين زوجك وأولادك؟

- لم أرزق بأبناء، سوف أعيش بمفردي لحين عودة زوجي، فهو يعمل بالكويت وإجازته الأبدية قريبة إن شاء الله.

فشاركت رواية في الحوار قائلة:

- أسعدكما الله.
- اللهم استجب، أبهجك الله بزوجك المستقبلي وعجله إليك بخيره لا شره.
- يا رب، يا رب، يا رب، فليأتِ هذا اليوم سريعًا.

فقالت أم إسحاق بلغة بشوشة باسمة وهي تتطلع إليها:

- ولمَ هذه اللهفة؟ أهذا كله من أجل المهندس؟

رواية بلغة طفولية:

- نعم من أجل مهندسي العاشق.

فنحنحت إيمان وهي تغمز بطرف رمشها:

- احم، احم، لأعرفن من العاشق هذا، ولكن ليس الآن.

ثم تتابع مستفسرة:

- أتعيشان أنتما أيضًا بمفردكما؟

يقع السؤال كالصاعقة، فتنظر الأم لابنتها وتغرقان في صمت عميق، يتراسلان بلغة العيون التي لا يفهمها أحد سواهما، يتبادلان ما مضى وانقضى في إشارات وصور لا يفقهها بشر غيرهما، وبعد ثوانٍ معدودات مرت على إيمان كأنها الدهر، فهي على استحياء وخجل من جريمتها العفوية، آه لو في الإمكان جزر اللسان من الجذر، واتباع ما انبثق وانسل من الفم لابتلاعه حتى يعود أدراجه قبيل إتيان الأذن وإدراك العقل، لفعلت، ولكن أدركت الفأس الرأس فلا مفر، فهي لا تدري لماذا هذا الحزن والشجن المتراكم على وجهيهما، لا تعلم لماذا هذه التعاسة والغمة المنحوتة في ملامحهما، لماذا هذه الجنازة والمناحة التي تعشقتا فيها، وما زاد الأمر سوءاً أنها لا تعلم بماذا أو لمن أو عن أي شيء تعتذر، قامت الأم من مقعدها في استياء وابتئاس مدحرجة كلامها بنبرة متقطعة مذبذبة متحسرة:

- إني لمكدودة منهوكة اليوم من أعمال المنزل، لذلك سأنهض للفراش، لقد تشرفت كثيراً بمعرفتك يا بنيتي.

ثم أدارت كلماتها لرواية دون أن تدير لها وجهها، هاربة عن عمد مما قد تشتبك فيه العيون مستأنفة الغرق فيما أثقل القلوب:

- ابقي معها لتسعفيها في تنظيف مسكنها وتنظيم أغراضها.

انصرفت أم إسحاق، واصطحبت معها حزنها وشرودها، وتولت إيمان رفع الفائض بحاملته، وصنع الشاي، أما رواية فغلبها تفكيرها، وقد أفلح في استرجاع الأوقات العصيبة التي تحاول مرارًا وتكرارًا نسيانها وإهمالها حتى تتفاداها وتتلافها، ولكن ما زالت تواعها برمتها، تتذكر جميع كلمات الحب والرقة والحنان واللطف التي كانت تصل إلى مسامعها طوال الليل والنهار، تتذكر تلك الجمل المرهفة الليونة التي تتلهف لسماعها جميع بنات حواء، تتذكر جيدًا عبارات التعشق والهيام والولع والغرام التي كانت تُسعد بنات جنسها جميعًا حينما تترامى إلى أذنهن، وأسفاه، ما كانت هذه الأقوال تنبثق من أجلها ولا تلفظ لها، ولا كانت هذه المشاعر الودية الودودة الفياضة نحوها، فكان هذا الحشو بكلمات التتيم وحروف الهوى يقال وينطق من أجل جميع نساء الأرض ما عدا اثنتين! رحل الوالد عنهم وهي نطفة في الرحم، فعندما قرعت باب الدنيا لم تجد سوى الأخ والأم، فمنذ طفولتها المبكرة، تشعر بفقدانها لحب وحنان الأبوة، فقلب الأب لا يمكن إبداله أو إحلاله بآخر مهما كان من هو، وحبه وحنانه متفردان لا ينبثقان إلا من منبع واحد لينبتن في مصب واحد، وعندما أتمت الثالثة عشر، وقتئذ كان إسحاق يقضي أيامه من عامه التاسع عشر، وهو ذو قلبين ذو وجهين ذو لسانين، يمتلك قلب رحيم عطوف ووجه وسيم مشرق بلسان عذب مليح مع كل فتيات الكون، كما له أيضًا قلب آخر عنيف قاس ووجه عبوس مكفهر بلسان متسلط مع أمه وأخته، تصغي له وهو يهاتف بنات جنسها مخاطبهن بأحسن وأوسم العبارات العاطفية، وحينما يراها يتحول لثور وقح، سليط اليد سليط اللسان، ويتبدل لأفعوان يثعب سموم لا ترياق لها ولا

راق منها، وهذا ما جعلها تشعر بفقدانها الأبوة والأخوة معًا، آه وألف آه من اندثار الحب العائلي وضياع الحنان الأسري، فكم تمنت لو أب أو أخ يحاصرها بين ذراعيه، يحتضنها بقوة، يلثم خديها، يطبع قبلاته على جبينها، يلاعب شعرها، ولكن وحسرتاه، فالأب ميت الجسد والأخ ميت الروح! انصاعت رواية وأمها لقدرهما، ومع الأيام خنعوا، وبالليالي استكانوا، ومن ثم أخذوا يتعكزوا على بعضهم البعض، فلا منقذ لهما إلا ترابطهن معًا، ولا عزاء ولا سلون لهن سوى صداقتهن سوياً، صبروا على قدرهم وتعايشوا معه، حتى جاءت تلك الساعة بما تحمله من نبأ، ويا له من نبأ عظيم، وكأن القدر أبى باصطبارهن، لم ينتشلها من هذا الارتحال الشاجن في الماضي الأشجن إلا صوت إيمان وهي تخاطبها:

- فيما يسرح قمرنا بخياله مطلقًا أعنته؟

فانتبهت رواية واكتفت بابتسامة عابرة، ومن ثم أخذتا تحكيان في أمور الحياة.

(٩)

كعادة كل جمعة، يجتمع الثلاثة للغداء في أفخم وأعرق مطاعم القاهرة برفقة ذويهم، صلاح كان متيمًا بمرغوبته منذ أيام الجامعة فكللها بعد الدراسة مباشرة، والتي نتج عنها سماء صاحبة التسعة عشر عامًا، وعلاء أهل قرة عينه وأنجب ولدًا، أما جروان فتناكح وطلق مرتين، ومن ثَم قرر ألا يتزوج إلا عرفيًا، ولهذا فلا حصر لأزواجه العرفيات، بينما يتغذى كل بطعامه، تغير طبيعة علاء وشروده أدركته سماء، وما أدراك ما ومن سماء، فسألته:

- ماذا بك يا عم علاء؟ إني أراك شاحب الوجه؟ ولماذا العمة لم تأتِ معك اليوم؟

فاستفاق علاء من شروده وعاد من غياهب أحواله ليقول:

- لا عليك يا غادتي فأنا بخير كل الخير، أما العمة كالمعتاد لديها أشغال هامة اليوم.

ألقى صلاح ببصره على وجه صديقه لتصفحه في محاولة لقراءة ملامحه ومطالعة أحواله، أما جروان فحدق ورنا إلى كليهما متعجبًا:

- أهذا كله بسبب الملف الشؤم؟ لقد سحب منّا، فلما إذن هذا الغضب العارم؟

يرمقه علاء بنظرة عابرة، ثم يرمق جميع الحاضرين بأخرى سريعة، ويستأنف غداءه قائلًا:

- لقد نويت واعتزمت الاستقالة من هذا الجهاز.

ثم يعاود النظر في عيونهم مستكملًا:

- وهذا قرار نهائي لا رجعة فيه.

فيتطلع الجميع متعجبًا، أما جروان وصلاح فيصابان بدهشة وغرابة غير متوقعة، فيقطع عليهما حيرتهما مستأنفًا:

- لقد قررت السفر الأسبوع القادم لأداة عمرة، ثم الرحيل لدبي، فهناك شركة كانت تطلبني لإدارة الشئون القانونية بها، وأحجمت عن الرد آنذاك، ولكنهم مازالوا يرحبون بي كثيراً لهذا سأنضم إليهم.

فظهر الاستنكار والتعجب والاستياء على صلاح ولكنه بقي صامتًا ساكتًا من آثر المفاجأة، أما جروان فقد اجتاحه غضب شديد وداهمه حنق أشد وهو يصيح بصوت مرتفع قليلًا:

- ما هذا الذي تقوله؟! نحن أصدقاء في الدراسة وزملاء في العمل، وغير كل هذا إننا أخوة منذ أن التقينا، ولا يصدق أن نفترق بسبب عقبة في اختلاف الرأي أو عائق في وجهات النظر.

فيرد علاء وهو أكثر حلم ورزانة:

- قراري ليس بسبب هذه القضية فحسب، ولكن لا رغبة لي في العمل بعد اليوم في جهاز أو جهة أختلف معها كليًا في سياساتها الوقحة الفاجرة.

في إبان الحديث دق جرس هاتف جروان، فقام بدوره بالرد فلم يقل سوى:

- نعم، إني لمتذكر.

فعاين بعين مرتجفة صلاح وعلاء، ثم نهض بعيدًا ليستكمل مكالمته الهاتفية، ساد الوجوم وتزعم الاكتئاب وترأس الهم، حتى ثارت سماء بضحكتها المعهودة وصوتها المأنوس وخفة ظلها على الوضع الراهن بقولها:

- سهلت لك الأحوال وسيغت لك الشئون، ما خطتك يا عم؟
- أذهب أولًا للمملكة العربية السعودية بلد الحرمين الشريفين.
- إذن ستزور الكعبة الشريفة وقبر سيدنا محمد؟

- عليه صلوات ربي وسلاماته، بكل تأكيد فلا قدوم ولا وفود إلا لهما ولا أجر ولا ثواب إلا بهما.
- تأذن لي أن ألتمس منك شيئًا؟

فراحت الأبصار نحوها، ومالت الآذان صوبها، تتلهف لسماع ما سينفجر من بين شفتي هذه الفتاة، حسنة الفرة ذات الجسم القصير والحجم الضئيل والعقل الرصين، فصيحة اللسان بليغة التعبير، فتابعت بلغتها الأنثوية الرقيقة:

- عندما ترى قبر حبيبي المصطفى أرسل له سلاماتي، أبلغه تحياتي، أخبره بأنني أشتاق لرؤيته، أعلمه بأنني أتوق لشم عطره، أنبئه بأنني أحن لملامسة يده، لتقبيل رأسه، أطلعه بأنني أطمع في التطلع إلى عينيه، أرجو سماع تغريد أحرفه، فكم تمنيت أن أعيش في عصره، أو أن ألمحه في منامي، ولكني أحيا على أمل أن ألقاه في الجنة كما وعدنا مصطفين حوله على ضفتي الكوثر، أعلمه بأنني طامعة راغبة تائقة لشفاعته، فإني أسير على سنته وألتزم بأوامره، أروي له أنني في كل ليلة أسطر له في مفكرتي رسائلي بينما الدموع تنهمر من جفوني، فإني ورب الكعبة، ربي وربه، لقد اشتقت له حقًا، فهو قدوة نهاري وأسوة ليلي وحبيب قلبي ولن أرضى بغيره من البشر بديلًا.

فرقرقت أعينهم جميعًا لما سمعوا من تلك الصبية، بريئة القلب نقية اللسان طاهرة النية، وهم يرددون:

- أفضل الصلاة وأتم السلام عليك يا حبيبنا يا رسول الله.

كانت قابعة بجوار علاء فأخذها بين أحضانه، وهو يربت على كتفيها، فقالت:

- قدرك أفضل من قدري يا عماه؟

- لماذا يا بنتاه؟

- أنت ذاهب لأداء العمرة، أما أنا فمرتحلة لألمانيا، وصلني اليوم خطاب من معهد جوتة - المؤسسة الثقافية المسئولة عن المدارس والمعاهد الألمانية في مصر - يخبرني بفوزي بمنحة دراسية، ولذلك سوف أسافر الأسبوع المقبل لدراسة النصف الثاني من هذا العام في ألمانيا.

فقال علاء وهو يطبع قبلة على جبينها:

- نجاح مبارك عليك يا مدللة عمك.

ثم أردف:

- بالطبع يا غادتي بلاد الحرمين هي أشرف البقاع وأطهر الأصقاع، ولكن يتوجب علينا التجوال والتطواف والانتقال والارتحال في جميع الأرجاء لنتعلم منهم كما تعلموا منا في الأزمنة الماضية، يقتضي علينا الانفتاح على من حولنا حتى

ندرسهم ويدرسوننا، وننقل منهم وعنهم ما يفيد ديننا وينفع دنيانا ونتجنب ما يسيء إلينا ويفسد بلادنا.

يجب علينا التحاور معهم لنشرح لهم ديننا ونفسر نظرياتنا ونوضح أفكارنا لهذا فمحتم علينا تعلم لغات الآخرين من كل الأجناس والأعراق حتى نترجم لهم أدبنا وثقافتنا، فأقوى ما يتسلح به الإنسان هو العلم، وهذا ما ينقصنا الآن في بلادنا العربية والإسلامية، ومع العلم يلزمنا التحلي بحسن الخلق وشيم الكرام حتى نبرهن أن النبي الكريم لم يأتي بالسيف قط إنما جاء بالرحمة المهداة للعالمين، عليك أن تعلمي جيدًا أن الثقافة سلاح قوي يزيد الشعوب عراقة وأصالة، فبدون الثقافة العراقة والأصالة لا تبقى، ومع الثقافة العراقة والأصالة تنقلب لتمدن وازدهار وتبقى وتظل إلى أن تثبت وتستقر، فاذهبي يا بنيتي حيث شئت، وسبحانه وتعالى سيوفقك طالما قصدتِ طريق العلم، ونهجتِ درب السلام ليسود العالم بأسره، وتذكري دائمًا أن الإسلام ورسوله أتيا بالسلام للعالم أجمع لا بالقتل ولا بالذبح ولا حتى بالعدوان أو بالظلم على أي إنسان مهما كانت جنسيته أو ديانته، وأخيرًا يجب عليك ألا تنسي مصريتك وعروبتك مهما طال بك الزمن خارج الوطن، فحينما وحيثما ينادي بك الوطن تواجدي في الحال.

فانتفضت سماء من بين ذراعيه وهي تجهر باستنكار واستياء وقد جحظت عيناها:

- ماذا تقول يا عماه؟ آتي حقًا للوطن عندما يستغيث بي! آتي حتى يكون مصيري مصير ابنك! آتي للوطن حتى يكون مصيري كمصير وائل! آتي لوطني حتى أقتل في ملاعب كرة القدم، كوائل الذي طلب إرجاء سفره لمدة يوم واحد حتى يشاهد مباراة الأهلي والمصري في الاستاد، فسافر لمدى الحياة، أم آتي لأقتل في أحد الميادين، وما أكثرها، أم آتي لأقتل في معتقلات الجهاز الذي تعملون به حتى تعطوه شرعية للعمل كما شاء، أم أتي لأقتل وفي يدي وردة كشيماء الصباغ، أم كيف وأين تريد أن أقتل يا عماه؟!

لقد نالت كلماتها منه، فذكرته بالابن الطفل المعاند، آه ثم آه ويا ألف آه، فلماذا لم يطع والده ويرحل معه لخارج البلاد في ذاك اليوم العاثر؟ لماذا أصر وألح ليسافر بورسعيد ليشاهد هذه المباراة؟ ولمَ يحب الكرة؟ ولمَ يتابعها؟ ولمَ ولمَ؟ يسأل نفسه كثيراً ولكن ما من مجيب، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم بسط يده وقبض على يديها، فوجدها مرتعشة خرعة باردة فسارعت بقولها وهي ترتجف وعيناها تدمع:

- سامحني يا عماه لم أتعمد أن أذكرك بـ ...

فقطاعها ببسمة حزينة خلطت بين حبه لها واشتياقه لولده، فارتمت بين أحضانه، فدنها من صدره ثم أمسك برأسها وأطال النظر في عينيها قائلًا:

- المجتمع العربي يا بنيتي فيه من الظلم والطغيان والاستبداد والاضطهاد والإجحاف لو وزع وقسم على الكون بأسره لشبعت الأرض واكتفت البحار وقنعت المحيطات وامتلأ الفضاء.

- ومتى سيأتي حاكم عادل؟ فمتى يأتي من هو مثل عمر بن الخطاب؟ أليس هناك فاروق آخر؟

- لن يأتي من هو مثل عمر إلا إذا كنا نحن مثل رعية عمر، فلا يأتي حاكم ظالم قط إلا وكانت رعيته سابقة الظلم، هناك بعض الشعوب غير الموحدة أقام شعبها العدل بينهم واستقاموا ووحدوا صفهم، فجئ لهم حكام عادلين وقادة مقسطين وقضاة منصفين، وهناك بلدان غير مسلمة حرص شعبها على العمل والتعاون والعلم والبحث والاكتشاف، فأصبحت أقوى دول العالم وأعظمها، فالله لا يضيع أجر من أتقن وأحسن عملا مسلما كان أو لا، ونحن لا نحسن العمل ولا نعمل في الأساس، لا تجعلي اليأس يتملكك ولا القنوط يستحوذ عليك، قتل وائل ظلمًا ومن قبله سحق وهلك المئات ومن بعده سيباد وسيزهق الآلاف، ولكنهم ماتوا مرفوعي الرأس أبطالًا شهداء، أما اليأس فسيقتل أيضًا الملايين ولكنهم منكسرون خاضعون أذلاء، الله لن يسأل المئات والآلاف الصادقين الذين ماتوا من أجل الحرية والإنسانية بل سيعدهم شهداء مكرمين معظمين، ولكنه سيسأل الملايين الصامتين عن سكوتهم وسكونهم وإطراقهم عن الظلامة والتعسف والحيف والقهر والتسلط والتفرد، وإن حتى لم يطبلوا لهم.

في تلك اللحظة قدم جروان بعدما أنهى مكالمته، فسكن الجميع، فمن استأنف الأكل، ومن أطلق العنان لخياله، ومن أبحر في ذكرياته، ومن غاص في ماضيه، فكل في واديه.

(١٠)

تتربع رواية على سلالم الكلية مع أنيسة عمرها، عشيرة حياتها، رفيقة دربها قصة، المعيدة بقسم اللغات الشرقية، والتي دائمًا تساعدها في الدراسة هي وزملاؤها جميعًا، فقصة وإن كانت معيدة بالجامعة إلا أنها هي وأنس لم يتأثرا بعدوى وباء الأساتذة التي تصيب الجامعات المصرية، على الدوام تعامل كالأخت الكبرى من قبل جميع طلبة الألسن باختلاف أقسامهم ولغاتهم، ففي صالون رفاعة الثقافي حاضرة، وفي معارض الفن والرسم متواجدة، وفي أي نشاط طلابي دومًا في المقدمة، وفي هذا الصباح يعدون ترجمة قانونية وأخرى اقتصادية، فاليوم هو الثلاثاء الكئيب بترجماته التي ما أنزل الله بها من سلطان، فمصطلحات وكلمات لا تُفهم، ولا تُنطق، ولا حتى تُكتب، ومن حين لحين تأتي ماريا فتسأل عن معنى كلمة، أو سياق جملة، وترمي رواية بسهم من عيونها الثاقبة، فتشعر الأخيرة بالخوف والاضطراب، ولكن ما يقلقها حقيقة أن ماريا لم تتحدث معها في أمرها حتى الآن منذ الأسبوعين الماضيين، منذ أن كشفت حقيقتها، فماذا يخبئ القدر لها ويخمر؟ وأي شيء يحجب الزمن عنها ويستر؟ فمن المعلوم للجميع أن ماريا من ينطبق عليها المثل المصري (ما يتبلش في بقها فولة)، وفي حين غرة ينتشلها من هواجسها جرس هاتفها، فتجيب على المتصل فيبادر بسؤالها:

- آنسة رواية؟
- نعم. من أنت؟

- مع حضرتك جندي مقاتل يونان من مكتب متابعة العميد أركان حرب قائد وحدة الباشمهندس أنسيموس.

- أهلًا بك، أهناك شيء خاص بأنسيموس؟

- لقد وجدنا رقم هاتفك كأقرب الأقربين في وثيقة تعارف الأمن الحربي الخاصة بأنسيموس، ولهذا يؤسفني أن أبلغك بخبر محزن، محزن للغاية.

أحجم لسانه ثواني قليلة تجمدت رواية خلالها ثم تابع بصوت آسٍ ساهم:

- فجر اليوم هجم على السرية جماعة إرهابية مسلحة.

معك الرب يا رواية، أنسيموس مات.

قالها جملة واحدة، دفعة واحدة، في نفس واحد، يا له من لسان جريء وقلب قوي، ولكن قلبها ليس كذلك إنه هلع هياب واهن ليس شجاع مثله ليتحمل مثل هذه الفاجعة، ويا لها من فجيعة رزيئة، فمع هذه الكلمات الداهية شعرت رواية بأن قلبها يتمزق إربًا وينتزع من جسدها، أحست بأن النيران قد التهمت شعر رأسها، وأصبحت ترى كل ما أمامها أسود، ولم تدرك شيئًا إلا وهي في غرفة مليئة بالأجهزة، ويتصل بجسمها عشرات الأسلاك والأنابيب الطبية، وعلى يمينها قصة تغفو على كرسي خشبي، فحاولت تذكر ما حدث وأدى بها إلى هنا، فيا لها من كارثة حقيقية وبلوى كبرى، أنيسها وحبيبها ورفيقها وعشيرها وخليلها قد تركها وحيدة، فمن علمها الحياة ومن أحن عليها ومن أشبعها حبًا وأغمرها صدقًا ومن

عوضها عن الأب وأحل محل الأخ، رحل، كيف له أن يرحل؟! فلا طامة ولا مصيبة أكبر من هذه، ففي الطفولة افتقدت الأب والأبوة، وفي المراهقة خسرت الأخ والأخوة، واليوم في مجد شبابها وسناء فتائها حيث نوت أن تعمر ما بقى من مهجتها في عالم جديد اختارت معامله واصطفت جوانبه وانتخبت شخوصه، وبدين جديد قرأته، ودراسته، وحللته، وتعلمته، فتفقهت وتثقفت وتأدبت، فاقتنعت به وأحبته، ورضيت به كافيًا عن الكافة، ومع إنسي جديد، تصادفا وتعارفا، فتقابلا وتصادقا، فأحبها وأحبته، ولكن الآن ضاع هذا الحبيب وما صاحبه من حب، فياله من انهزام وانكسار لفتاة ما زالت لم تبلغ عامها الثالث والعشرين بعد، عاونها في البحث عن مرادها والتنقيب عن مقصدها صبوراً متحملًا، وبعد إصرار وإلحاح في مناقشات ومحاجات ومطارحات طالت، أوهامها الاقتناع بآرائها إرضاء لها لشدة حبه وتعلقه بها، ويوم بعد يوم أخذ يطلع على أبحاثها ويقلب في أوراقها ويفتش في كتبها ويستمع لمجادلاتها وبدأ بالتدرج في مناظرتها ونقاشها وسجالها، ومع مرور الأيام انجذب نحو فكرها، فسارا معًا نحو التقصي والمقارنة والموازنة وطرح الأسئلة هنا وهناك، وبعد عام ونصف العام من البحث الدؤوب والقراءة المستمرة، ذات ليلة قال لها:

- أريد أن أفضي لك بسر.

فتوقعت كالعادة هذا السر إما كلمة بحبك، أو سيضيف عليها كمرات عديدة جملة اشتقت إليك يا حبيبتاه، فقالت ضاحكة:

- قل يا مستودع الأسرار، أليس في مستودعك هذا سوى كلمة أو كلمتين؟

فأجاب متبسمًا:

- بلى اليوم لديّ الكثير والكثير.

فقالت بابتهاج ساخرة:

- قل يا فتى فإني في حاجة للتجديد.

فقال بصوت وقور رصين:

- لقد اقتنعت بأن الإسلام هو دين الحق.

فنالت كلماته منها، فلقد أباح بما تكنه في باطنها، وما تدعو به في جوف الليالي، أفاقت من الغوص في أعماق الذكريات حينما سمعت قصة تجهر بالبكاء، وشعرت بيدها تمسح على رأسها، وتختم قبلة على جبهتها، فنشفت قصة دموعها وقالت:

- عافية معافاة بإذن الإله.

رواية بلهجة متكسرة مهتزة والدمع ينهل من جفنها مُتهتهة:

- أرأيت ما الذي حدث لي يا قصتي؟

ثم نظرت برأسها لأعلى وأطالت معاتبة شاردة ساهية:

- لماذا يا ربي تفعل معي كل هذا؟ لا أعرف أي رب أنادي، لا أعلم أي رب أدعو، هل المسيح حقًا هو ابن الرب والرب معًا فغضب عليّ حينما تركت المسيحية وأحل لعناته وأورد هلاكه؟ أم الله الواحد الأحد هو الرب الحقيقي؟ فهل يختبرني ويمتحن صبري كما فعل بالصحابة وبالمؤمنين الأوائل؟

ثم رفعت يديها مناجية، وهي راقدة في فراشها، وجهرت قائلة:

- يا إله الأكوان، رب العباد، ربي قلبًا وعقلًا، إن كنت تبتلى إيماني وتتقصى عن صبري، فأنا لست بخديجة ولا بعائشة ولا بأسماء، ولا حتى بالخنساء، أنا مجرد إحدى فتيات العصر الملعون، حيث ننام على سرير مفروش قطن وحرير، نشرب المياه المعدنية ونتجرع المرطبات ما لذا منها وطاب، نأكل الشوكولاتات بأشكالها وسيمائها الناعمة، نقضي نصف وقتنا لهوًا على الشبكة العنكبوتية، والنصف الآخر ننعم بالاسترخاء ونستلذ بالاستلقاء في حضرة أجهزة التكييف البارد منها والساخن، إنني أعرف وأعلم علم اليقين أنك الحق، وأن نبيك الحق، وما بعث به هو الدين الحق، فاللهم أرزقني الصبر في حاقتي وألهمني السلوان في ورطتي، أعذرني ربي قلبًا وعقلًا، لا أستوعب أنه فارقني، هجرني، تركني، اعتزلني! فإنها بلوى وما أعظمها من بلوى، إنني أشكوه لك ربي الحبيب، فأنت العالم بالغيوب وتعلم كل ما يدور، ألا تذكر يا ربي حينما وعدني عندما نطقنا بالشهادة معًا بأنه لن يتركني في طريق

ولن نفترق في سبيل مهما كانت الصروف والخطوب، ألم يعاهدني بالزواج، ألم يقسم بالموت الواحد والمصير المشترك.

قاطعها صوت حزين ناء يقول:

- وحينها قلت له قل إن شاء الله، فقال لك إن شاء الله، ولكن لم يشأ الله يا رواية.

فنظرت قصة ورواية لمصدر الصوت فوجدتا أنس واقفًا بباب الغرفة، ويتجلى على ملامحه الأسى والحسرة والجزع، فنادت به رواية عاجلة:

- الحمد لله الذي بعثك لي، أقبل عليّ وجاورني يا رفيقي ورفيقه، فلا نعلم من المرتحل بعده.

- إنه القدر، القدر يا رواية، فلا تخافي ولا تجزعي، فلكل أجل كتاب، ولكلِ نهاية وحتف واحتضار، فالموت علينا حق وكلنا له أهل.

ثم تابع محاولًا ربط جأشه:

- هيا بنا لتذهبي لمسكنك، فالوالدة أقلق من يكون الآن.

عندما وصل لمسمعها كلمة الوالدة وأدركت أمها، تخيلت كيف ستكون حالتها عندما تعرف النبأ، فمنذ وفاة زوجها والحزن يتراكم عليها تباعًا، فبعد مصرع الزوج

أكمدها حال ابنها بأفعاله الخليعة وسلوكياته غير المستقيمة وتصرفاته الفاسقة، وعندما رحل الابن عن الدنيا ازدادت حزنًا وغمًا لفراقه، ولكن ما أن علمت كيفية الوفاة حتى أصبح الحزن توأم قلبها والدموع رفيقة عينها، رحل ضناها بأفعاله الوقتية ولكن ترك ما يخلد للأبد، ترك العار ويا له من عار! عثر عليه مقتولًا بداخل سيارة في إحدى الأزقة المهمشة، لم يكن بمفرده، وجدت معه جثمان فتاة عارية مجردة الملبس مجردة الخلق، وكانا في وضع مخل مذل مخزٍ، لا أحد يعلم من القاتل ولم يهتم أحد بهويته، وإنما ما شغل الناس جميعًا هو وضع القتل، فيا له من موقف عصيب، ويا لها من أيام لا تنسى، ظلتا في هذا الظلام الحالك حتى بعث الله لهم أنسيموس، ذاك الشاب الغني بكلية الهندسة الإلكترونية، والتي تخرج منها منذ شهور معدودة، فكان نعم الرسول، ثار على الظلمة الدامسة والشجن المتوارث ودعا لعالم النور واحتضان الحياة وتعمير الروح، فأصبح للأم الابن البار التقي، وللبنت الأب العطوف والأخ الرؤوف والصديق اللطيف والحبيب المثالي، أحسن معاملتها وأكرمها، أشعرها بأنوثتها وأبهجها، فارتاحت وانشرحت ومن ثم تدللت عليه، فرزقها الابتسامة والبشاشة في أشد النوائب والصروف، وأكسبها الضحكة في كل الأوقات والأحوال، تنفرج أساريرها كلما تذكرت مواقفهما معًا، حيث تحاول أن تقرأ اسمه، فنطقته بكل اللكنات، ولكن ليس من بينهم لكنة صحيحة لأنه اسم أجنبي غير متداول، فكان يأبى نطقه أمامها كثيرًا حتى يستمتع بلهجتها ولكنتها، فيضحك كثيرًا لبراءتها ولغمزاتها المتناغمة، وذات يوم سمعته يكرر اسمه على مستمع له، فوجدت حروفه جميلة متألقة ينبعث من بينها موسيقى

عذبة شيقة، عاشت رواية ووالداتها أم إسحاق زمن مديد عصيب من وهل المفاجأة والمصيبة، سيطر فيها الاشتياق والحنين للراحلين، كانت إيمان في تلك الفترة ملازمة لرواية، حتى تُنسيها ألمها وجروحها، ولكن لم تتجرأ الأخيرة على البوح لها بأي من بنات أفكارها أو ما تكتمه في باطنها، وذات ليلة عادت إيمان من عملها مرحة، يظهر على وجهها آثار الفرح والسرور، الذي عادهم وخاصمهم طويلًا، دخلت على رواية غرفتها، فوجدتها كعادتها تتربع وحيدة ويخيم الحزن عليها، فدنت منها وبعد الأحضان والسلامات قالت:

- اليوم طلبت إحدى الكنائس من مركزنا مترجمين، أحدهما للإنجليزية والآخر للتركية، لمرافقة وفد من الكنيسة لزيارة ماردين، ويا حبذا لو أن أحدهما، أو كلاهما من الديانة المسيحية.

فردت رواية بغير اكتراث:

- وما شأني بهذا؟!

- أنت تدرسين اللغة التركية وتتقنينها كتابة وتجدينها نطقًا، وهذه فرصة يجب اغتنامها للاستمتاع بهواء ماردين النقي، ولتغير نمط حياتك، لعلك تنسين الماضي بما مضى، كما أن العائد المادي لها جيد جدًا، وأنت في حاجة ماسة له.

- ولكن أنا لم أسافر خارج مصر من قبل و ...

- لا تقلقي، سأنظم أنا كل هذه الأمور، زوجي يتقن الإنجليزية، ويعمل كمترجم فوري تابع لأحد أهم منظمات الترجمة في العالم العربي بالكويت، ولديه مهمة عمل في دبي سينهيها غدًا، ثم ينتظركم في ماردين، فأنا شاركته معك هذه المهمة.

- لا أعلم كيف أشكرك يا صديقتي.

- نحن أخوة وأصدقاء ويجب علينا مساعدة بعضنا البعض، والتعاون في مصائبنا وفي أفراحنا، بالإضافة إلى أن العائد المادي للمهمات التابعة للكنيسة غالبًا كبير ومغرٍ، وأنت في عوز لهذا المال، وفي احتياج للسفر لتجديد أفكارك، وتغير نمط حياتك الرتيب والكئيب.

- ولكن أمي؟

- لا تقلقي بشأنها فسوف نعيش سويًا، فهي أيضًا والدتي كما هي والدتك.

- ومتى الرحيل؟

- بعد ثلاثة أيام.

***

ليلة الرحيل، ذهبت رواية مع قصة للصومعة المتوارية كما كان يطلق عليها أنسيموس، حيث لا تصلها أقدام سوى من يقصدها، ولأول مرة تنطلق إليها بدون أنسيموسها، فكم راحوا وجاءوا معًا، فكان المثوى الذي يبحون فيه بأسرارهم

ويفشون عن سراياتهم، يتعبدون فيه بكل جوارحهم، بعيدًا عن أعين الناس المترقبة، عندما وصلت، وجدت جميع الرفاق حاضرين متأهبين، أوسطهم أنس، فهو الذي أسلم الجميع بفضله، وهو صاحب الدعوة إلى الله، فما ترك مسيحيًا إلا وأهداه كتاب عن الإسلام، وناقشه بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان يعي جيدًا كيف يقنع كل إنسان طبقًا لنمط تفكيره، وكيف يقرأ لغة الأجساد وسر الأبدان، عندما خطت قدمها المكان، شعرت بالمأساة والحزن الذي خيم على الوجوه، فاستأذنتها قصة أن تظل بالخارج كعادتها فهي ما زالت على المسيحية، ولكنها لا تجد معضلة في صداقتها لرواية التي اختارت الإسلام واصطفته بكامل حريتها، انضمت لهم رواية وجلست بجانبهم، فتقدموا بالتعازي وعبارات المواساة، وظلوا يتحاكون في أمورهم، حتى تعالت الأصوات مطالبة بضرورة وحتمية إشهار إسلامهم حتى يتمكنوا من ممارسة الشعائر بكل حرية، ولكن خرج من بينهم صوت معبر عن قلقه من رد فعل أهاليهم والكنيسة التي ستحارب ضدهم بكل غالٍ ونفيس، فشعر أنس بهم وبالنار التي تشتعل بين ضلوعهم، فطمأنهم بأنه اتخذ أولى الخطوات ليتكمنوا من إعلان إسلامهم، وحينما تعود رواية من رحلتها، سوف يكون كل شيء مكتمل بمشيئة الله، وفي ختام جلستهم، قامت رواية من مجلسها، وقالت فيهم بلهجة تميل للخطابية:

- تالله، ربي وربكم، رب العباد الواحد الأحد، ما أحد أجبرني على هذا الدين، ولا أحد أرغمكم، إنما اتبعناه لأنه دين الحق، فوجدنا فيه نفوسنا الضائعة، وأجوبة لأسئلة حائرة، وما نعمنا بلذة الحياة ولا رغدنا براحة القلب ولا هنئنا بسكون

النفس ولا وعينا سكينة العقل إلا بنطق الشهادة التوحيدية، وما شعرت بالطمأنينة والارتياح إلا وأنا ساجدة بين يداه، فقولتها من قبل وسأقولها دائمًا، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فو الله الذي لا إله إلا هو، لن نرتد عن هذا الدين ولن ننثني عليه ولو قطعوا أجسادنا إربًا إربًا، ولن نعيش إلا كيوسف ومريم في طهارتهما، باتباع سيرة المصطفى حبيبنا.

بمجرد انتهائها ردد الجميع في صوت جهور:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رسول الله.

رحلت رواية عنهم، بعد أن أودعتهم جميعًا، لتعد العدة لسفرها، ومعها أنس وقصة، سار ثلاثتهم في صمت تام، شاردين الذهن، فكل منهم غارق في عالمه الخاص، رواية قلبها مرتاع مرتعب، لا تعلم ماذا يخبئ القدر لها، ولذا كانت قلقة متوترة، ولكن تطمئن نفسها لابتعادها لأول مرة عن والداتها ووطنها، قطع صمتهم وشرودهم الوصول للموطن حيث تسكن رواية، فبكت بغزارة وهي تحتضن قصة التي ذرفت دموعها هي الأخرى، وتعانقتا طويلا، أم العيون فكانت أكثر تعبيرًا عما في داخل أنس، فاكتفيا بالنظرات، وودعها قائلًا:

- لا إله إلا الله.

- سيدنا محمد رسول الله.

وأدارت ظهرها متجهة نحو مسكنها.

أما قصة وأنس فاستأنفوا مسيرتهم، يسير أنس وعلى يمينه قصة التي تجفف عيونها من قطرات الوداع، وفي باطن كل منهما شيء، فكلاهما يرى أنه حان وقت التحاور، ففي أعماقهم تختزن العديد من الأسئلة والاستفسارات، فكل منهم يرغب في معرفة الجوانب الخفية عند الآخر، فبالرغم من صداقتهم القديمة إلا أن كليهما قد طرأ عليه التغيير بعد دخول رواية بينهما، فهذا استطاع أن يقنع الكثير بمبادئه وأفكاره، أما هذه فسمعت الكثير عن الإسلام، ولكن ليست كغيرها، فلم تسلم بعد، وفي ذات الوقت لم تعادِ صديقتها، وفي لحظة بعينها قررت قصة أن تبارد بسؤالها المكتوم، ولكن كانت هناك مبادرة أسرع منها، حيث ضُربت الإنذارات، وتلونت الإشارات، واقتربت السيارات، وأحاط بهم الرجالات.

(١١)

يوم السفر الموعود وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا هبطت طائرة مصر للطيران مطار إسطنبول الدولي، استقبل زوج إيمان الوفد الكنائسي، وبعد السلامات والتحيات، عرفت رواية أنهم سيمكثون اليوم في إسطنبول، وصباح الغد سيتوجهون لماردين، استقبلها مؤمن بحفاوة وترحيب وكأنها رئيسة الوفد لا مجرد مترجمة مثله، وهذا الاحتفاء والتكريم بالطبع نتيجة لتوصية إيمان لزوجها بالاهتمام بصديقتها وجارتها العزيزة، سألته عن هذه المدينة ماردين التي لا تعرف عنها الكثير لعلها تشبع فضولها النهم، فأخبرها أنه من الأفضل الصبر للغد حتى تكتشفها وتستنبط بواطنها بنفسها، أما اليوم فعليها الاستمتاع بالتجول والطواف في إسطنبول حيث ملتقى الشرق والغرب، بأكبر قدر لعلها فرصة لن تتاح لها ثانية، فأمنت على كلامه، أعلمها بأنه سيرافق الوفد في جولة قصيرة لبعض المعالم السياحية المسيحية، بينما هي تقوم بتجربة ذاتية لاكتشاف المدينة، لتستمع للغة الحية وتمارسها مع ذويها، ولعلها رحلة تثقل بحث تخرجها عن كيف أوجد نحاة اللغة التركية الحروف اللاتينية المناسبة للأصوات العربية في لغتهم عندما تحولت كتابة اللغة التركية (العثمانية) من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية للأسباب السياسية والثقافية المعروفة، فرحلت عنهم تتماشي في شوارع إسطنبول العريقة، ففي الأعوام الثلاث الماضية كانت تدرس وتقرأ عن حضاراتها وثقافتها وآدابها، أما اليوم فهي ترى بعينها أثر تلك الحضارات والثقافات، أخذت تجول ببصرها بين هذا المبني وذاك، وبين هذا التمثال والآخر، وأثناء سيرها طرأ على ذاكرتها شخصيتين

أساسيتين في تاريخ تركيا هما القائد محمد الفاتح الذي فتح القسنطينة (إسطنبول الآن) عام ١٤٥٣م، والذي كان بشر به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومصطفى كمال أتاتورك مؤسس دولة تركيا العلمانية، ولكنها في هذه الحالة وفي هذا الوقت لا تريد أن تتذكر التاريخ بندمه وحسراته وكآبته، فهي تتطلع فقط للاستمتاع بالمدينة الأصيلة وبهوائها الرطب النقي، أكملت السير بخطوات متمهلة متأنية، فكل ما تراه في جانبي الطرقات يعلق ببصرها وذهنها، وبعد ساعات من التمشي والتمخط، وجدت نفسها بداخل حديقة السلطان أحمد، أشهر حدائق تركيا، فجلست على إحدى المقاعد حيث يكون متحف آيا صوفيا على يمينها والجامع الأزرق على شمالها، أما أمامها فكانت المسلة المصرية، فعجيبة إسطنبول هذه، فمن النادر والمستحيل السير فيها بدون أن تطرأ على الذاكرة أفراح وأتراح متناقضة كل التناقض، وبينما تلقي ببصرها على يمينها تارة حيث آيا صوفيا الذي يعد الثامن في قاموس عجائب العالم، وتارة على شمالها حيث أعجب مساجد التاريخ مسجد السلطان أحمد أو الجامع الأزرق، وإذ تطرق لمسمعها أم ثلاثينية جميلة الملامح طويلة القوام تجعل من شعرها الذهبي ذيل حصان، تلاعب ابنها وبنتها بجوار السياج الموضوع حول المسلة، وتحدثهم قائلة هيا يا مصطفى هيا يا كريمان، فتتذكر سريعًا كريمان خالص، نعم كريمان خالص هذا هو الاسم، أم الشكل والهيئة فهي ممثلة تركيا في مسابقة ملكة جمال العالم، ففي عام ١٩٢٣م، عام سقوط الإمبراطورية العثمانية، عُقدت مسابقة اختيار ملكة جمال العالم، وكان من الفتيات المتسابقات فتاة تركية وهذه أول مرة في تاريخ المسلمين، وهذه الصبية الملكة هي

كريمان خالص، بعد أن عرضت مفاتنها بلباسها الكاشف على المسرح في بلجيكا، قام رئيس لجنة التحكيم وقال ما نصه:

(أيها السادة، أعزائي أعضاء اللجنة، إن أوربا بأسرها تحتفل اليوم بانتصار المسيحية، لقد انتهى الإسلام الذي كان يسيطر منذ عام ١٤٠٠م، فإن كريمان خالص ملكة جمال تركية تمثل أمامنا المرأة المسلمة، ها هي كريمان خالص حفيدة المرأة المسلمة المحافظة المتزمتة تخرج علينا اليوم بلباسنا وعادتنا، ولا بد لنا من الاعتراف أن هذه الفتاة هي تاج انتصارنا، ولهذا فعلينا تخليد اسم كريمان في بلادنا).

أفاقت من شرودها الحزين، وقد شعرت بضيق صدرها لتذكرها هذه الذكرى المؤلمة في تاريخ الأمة المسلمة، فأخرجت من حقيبتها قطعتي من الشوكلت التي تحتفظ دومًا بها، وإذ تقترب بها للأطفال تلاعبهم، فتستلطف الأم رواية ويتحاكيان، وبعد التعارف الودود:

- هل تعلمين أن اسم ابنتك جميل جدًا.
- شكرا لذوقك.
- إنه نادر في بلادنا العربية وحتى في تركيا.
- صحيح فهو في الأصل فارسي، ولكني سميتها تبركًا لكي تكون ملكة جمال العالم مثل كريمان خالص أول ملكة جمال تركية.

- حقًا! أتمنى أن تكون أجمل بكثير، ولكنك بكل تأكيد تعلمين أن قصتها حزينة وموجعة لجميع مسلمي العالم.

- حزينة للمسلمين؟! يا إلهي؟! وموجعة أيضًا؟!

ثم أردفت جادة بعد أن رسمت على وجهها علامات السخرية والتعجب:

- أنا مسلمة ولست حزينة على ما حدث، فلماذا يبكي المسلمون دائمًا بعد وقوع الكارثة؟! إن كانوا حقًا ملتزمين ومحبين لإسلامهم فلماذا ضاعت منهم الخلافة إذن؟ انظري عزيزتي لهذا المبنى، هل تعلمين ما هو وما قصته؟

- نعم، إنه من أعجب أماكن العالم، آيا صوفيا، الحكمة المقدسة، حيث كان أول بناء له عام ٣٦٠م في عهد قسطنطين العظيم.

- هذا المكان يبكي ويتحسر عليه الجميع، من عام ٣٦٠ م لعام ١٢٠٤م كان كاتدرائية أرثوذكسية شرقية، وبين عامي ١٢٠٤ م و١٤٥٣م أصبح كنيسة كاثوليكية على يد الخائن داندولو، ومن عام ١٤٥٣ لـ ١٩٥٣ م أصبح مسجدًا إسلاميًا، ومنذ عام ١٩٥٣ م ليومنا هذا أصبح متحفًا على يد أتاتورك، الجميع يطالب باستعادته فلمن يذهب إذن؟! أيذهب لمن بناه، الأرثوذكس؟ أم لمن سرقه أثناء الحملة الصليبية الرابعة، الكاثوليك؟ أم للغالبية العظمى اليوم في تركيا، المسلمون؟ فخير ما فعله أتاتورك عندما جعله متحفًا، فمن لم يستطع أن يحافظ على ممتلكاته ويدافع عنها فلا يبكي على الأطلال، وكذلك عندما لم يستطع رجال المسلمين أن

يحافظوا على دينهم وثقافتهم وستر عورتهم، لماذا يبكون ويتشنجون ويسترجلون عندما نكشف أجسادنا؟

بدأ مصطفى وكريمان يتململان ويبكيان، فقامت أمهما باصطحابهم والذهاب بعيدًا، تاركة خلفها رواية غارقة في عالم فلسفي لم تدرك معالمه بعد، فقررت الابتعاد قليلًا عن إسطنبول وصخبها، فخرجت من الحديقة وأشارت لتاكسي، ركبت، وأخبرت السائق بأن يذهب بها لمقهى الخيال، فكم قرأت وسمعت عنه وعن جماله الساحر لموقعه الفريد بالقرب من البحر الأسود ومضيق بسفور، ففي النهار هو مقهى راقٍ يقدم القهوة التركية المتميزة، أما في الليل فهو نادٍ ليلي، أقرب إلى كباريهات وملاهي شارع الهرم المصري، بل أضل سبيلًا، ما لفت انتباهها كثيرًا أن سواق التاكسي فضولي، يتحدث في أي شيء، بدون أي سبب أو داع، كزميله السائق المصري، وأيضًا تلتصق بلسانه كلمة حمار لكل من سار بجانبه، فكل السائقين على خطأ وهو الوحيد على ثواب كما يظن مثيله المصري أيضًا، فسألته:

- هل أنت مصري؟

فأجاب بالنفي.

فسألت مرة أخرى:

هل لديك أي أقارب مصريين؟

فأجاب أيضًا بالنفي.

- عجبًا أنت تشبه سائقي التاكسي المصريين.

فقال متسائلًا:

- في الثرثرة والفضولية؟
- الحمد لله أنك تعلم صفاتك جيدًا.

فقال وهو يضحك ملء شدقيه:

- يا سيدتي هذه صفات سائقي التاكسي في كل أنحاء العالم، فإن لم نتحدث مع الركاب فسوف نصاب بالجنون.

فابتسمت، فقال لها مداعبًا:

- عندما يصاب تاكسي الخاص بعطل ما، فلا أستقل أي تاكسي آخر خوفًا وتجنبًا لثرثرة السائقين.

فضحكت وضحك هو.

وبعد برهة قليلة من السكون أدار السائق الراديو فبدأ صوت موسيقى خافض ينبعث منه، مرت دقيقتين أو أكثر وبدأ يترامى لأذنها صوت عذب يغرد من حنجرة

كلاسيكية، فهتفت في السائق سريعًا بأن يرفع مستوى الصوت، بعد أن نفذ ما أمر به قال هذه هي، فقاطعته قائلة:

- إنها أوموت أكيورك.

فتبسم وقال:

- من يعرف اللغة التركية ومن لا يعرفها حينما يسمعها لا بد أن يفتن بها.

فقالت بلهجة رقيقة حنونة:

- دعني أسمعها في هوادة وسكون، فكم أحببت صوتها وكلاسيكيتها.

تستمع رواية لأوموت أكيورك، والسيارة تسير بها بجانب البحر، حيث ترى مليون وجه ووجه من البشر، وكأن جميع الأعراق والأجناس ذابت واختلطت في هذه المدينة وتجسدت في الجميع، تطلق العنان لخيالها الجامح فتسبح في فيضان الأحلام، بينما تستمع قصة في مصر لأصوات متعددة متناثرة صارخة مستنجدة، أصوات اعتادت سماعها من قبل، ولكنها الآن لا تقوى على تميزها، فالعصامة تلتف على عينها أكثر من خمسة عشر ساعة، فمنذ أن فاقت من غيبوبتها لا ترى شيء سوى السواد الحالك، لا تسمع شيء سوى صراخات مبعثرة مستغيثة، لا تشم شيء إلا رائحة كريهة ونتانة مقيتة وصنان شنيع ينتشر حولها بكثافة، ومرت ساعة أخرى

حتى سمعت صوت باب حديد يفتح، وأصوات أقدام تقبل، فأحست بأحد يتقدم منها، ففك لها قيدها وحرر معصمها، ونزع عنها العصامة، ثم رأته يتقدم من شخص في الزاوية البعيدة من الغرفة ولكنها لا تستطيع تميزه، فأثر العصامة ما زال يجتاح عينها، فدنا منه وفعل به ما فعله سابقًا معها، ثم رمى بصينية أمامها على الأرض بها رغيفين من الخبز المتعفن، وغرفتين مياه فول مدمس، وكوب صفيح قذر به ماء أقذر تبدو أقرب للون الأصفر، ثم قال بصوت غليظ حاد وقد نظر إلى من تكور في الركن البعيد الهادئ:

- هيا انهض لكي تتسمم معها.

ثم أغلق الباب وانصرف، نظرت حيثما نظر المُنصرف، فتذكرت على الفور آخر لحظاتها قبل أن تغيب عن الوعي، عندما كانت تسير هي وأنس وأحاطت بهم المركبات الشرطية، فقامت على الفور اتجاه الركن المقابل، وجدت من توقعته، دنت منه، أمسكت برأسه، نظرت في وجهه وعينه، فوجدت وجه شاحب ذابل، عينين محمرتين، يدين مرتعشتين، أما جسده فيشع حرارة من أثر السخونة، فأدركت أن حمى ما قد أصابته، فقامت مهرولة إلى الباب تدقه دقا بيديها الصغيرتين، وتصرخ طالبة الاستغاثة والنجدة ولكن ما من مجيب، فأيقنت أنه لا جدوى منهم، فهرولت إلى الدلو، وبحركة سريعة انتشلت كم قميصها الأيمن من موضعه، أغرقته بالماء، ووضعته على جبينه، واستمرت هكذا ساعات طوال حتى بدأت الشمس تنسحب من النافذة الحديدية المشرعة، ولكن الغروب في مقهى

الخيال له وجه آخر، تحتسي رواية قهوتها، بينما تصوب بصيصها للشمس التي تجر أشعتها وتشد بريقها في غفلة، لتعلن للناس انتهاء سطوع نورها وزوال لمعان ضيائها، وإحلال الظلام الطامس، ونزول الاسوداد القاتم، على خلاف الصباح حيث تبث أشعتها بتلكؤ وسكون، وترسم ابتسامتها، وتطلق ضحكاتها في وجوه الناس العابسة، فتبعث فيهم الأمل وتغمرهم بالتيمن وتكسبهم بشر يعيشون على أمله، وهكذا فعل حبيبها حينما أتى لعالمها بهدوء، ورسم ابتسامته، فبعث فيها الحياة والبهجة، ثم تسلل لقلبها ببطء حتى استقر فيه وعاشت على خطى نوره، ثم في غفلة جفن رحل، ورحل معه الأمل والنور والحياة، ألقت نظرة على الجرائد الموضوعة أمامها على المنضدة، شد انتباهها صورة غلاف إحدى المجلات، فهذه صورة مألوفة لها، ابتسمت وتذكرت ذاك اليوم، عندما خرجت من المحاضرة، فوجدته ينتظر جالس على السلالم ويحاول أن يوشم وجهه بعلامات الغضب والحنق، ولكنه يفشل كعادته بمجرد رؤيتها، فاقتربت منه وبين ذراعيها كتبها وأوراقها الدراسية، فأشار لما بين ذارعيها وقال بسخرية متهكمًا:

- هل تفهمين شيئًا في هذه الخزعبلات؟
- هذه الخزعبلات هي حضارات وثقافات وآداب أمم.
- تمام جدًا، ولماذا تأخرت اليوم يا أبلة؟

- أولًا كلمة أبلة هذه كلمة تركية تعني الأخت الكبرى، وأيضًا كلمة تمام تركية الاستخدام، ولكن لن أناقشك لجهلك، ثانيًا هذه كانت محاضرة مطالعات ومقال، وكان موضوع اليوم شيق للغاية فهو عن سوق إسطنبول المسقوف.

- هههههههه وهل مسقوف بخيام أم بأخشاب؟

- لا هذا ولا ذاك يا متفلسف عصرك، هذا السوق يعد أهم وأقدم بورصة ذهبية في العالم، يرجع تاريخه لأكثر من ٥٨٠ سنة منذ أن فتح السلطان محمد الفاتح قسطنطينية، به أكثر من ٢٥٠ محلًا لصياغة الذهب فقط، ومئات المحلات من أجل بيع المجوهرات والحلي، والعشرات لبيع التحف والسجاد، إنه سوق عالمي متكامل.

- جيد جدًا، هيا بنا نسرقه؟

فرجته بضربة طفيفة أعلى كتفه بيدها النحيلة ثم قالت:

- يا لك من خفيف الظل، هل تعلم أن مياه الصرف الصحي الخاصة به يحرسها أكثر من ٢٠ فرد أمن لأنها تباع في مزاد علني، ليست به قمامة، فكل محل يجمع قمامته ويحللها فيحصل على بقايا الذهب التي تعرف بغبار الذهب، ثم يعاد تصنيعها أو بيعها للمصانع، حيث تدخل في بعض أنواع كريمات البشرة وطلاء الأظافر، حيث العبوة الواحدة من هذه الكريمات والتي تزن ٢٥ جرامًا تقارب من ثلاثة آلاف يورو.

- يا أماه. ثلاثة آلاف يورو!

- انظر لهذه الصور، يا لها من مجوهرات رائعة، لم ولن أرى في حياتي مثلها، لقد كلفنا اليوم بكتابة مقال أدبي عن هذا السوق العريق.

- استقلي ورقة، سوف أتولى أنا الخيال الجامح بالعربية وعليك بالترجمة للتركية.

- اتفقنا، ابدأ حتى أرى مواهبك أيها الأديب العظيم.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

فقاطعته مستنكرة:

- بسم الله؟! من الواضح أنك ترغب في فضحنا على الملأ.

- نسيت، بسم الثالوث الأقدس.

- إنه مقال وليس خطبة أو عظة، أكمل.

- كان يا مكان، في يوم من الأزمان، سوف أذهب أنا وحبيبي لهذا السوق.

- يا ربي صبرني على هذا الجهول، يا حبيبي، جملة كان يا مكان تحكي قصة في الماضي وليس في المستقبل، حتى العربية لا تفقه فيها شيء، لعنة الله على التعليم المجاني.

فضرب رأسها من الخلف بكف يده قائلًا:

- لقد أخذ الله من قامتك وأكمل بها لسانك أيتها القزعة.

فتأخذه بالقلم في صدره فيضحك مستهزئًا ويكمل:

- هيا ترجمي، سوف أذهب أنا وزوجي المستقبلي لهذا السوق المسقوف لاختيار جميع المجوهرات التي تعجبني، فيالها من فرحة ولحظة جميلة عندما أتخيل هذه المجوهرات ملكي وفي حوزتي، ثم يدنو بقربي زوجي الحبيب، وتعلو شفتيه ابتسامته الصفراء ليهمس في أذني بكل ود وحب (زوجتي العزيزة نحن هنا للمشاهدة والتفرَج لا أكثر)

فتكشر عن أنيابها وتقذف القلم في وجهه، فيضحك ويقول ساخرًا:

- لو معي ثمن هذه المجوهرات لتخليت عنك منذ زمن.

ثم يتابع بطريقته الاستفزازية ولكنها محببة لنفسها:

- هل أجد معك خمسة جنيهات لشراء سندويتش من الشبرواي؟

يخرجها من غفوتها ويطلعها من ذكرياتها المؤلمة المضحكة صوت النادلة وهي تبلغها بأن حان الآن موعد غلق المقهى لتنظيم النادي الليلي، فتعتذر وتحاسب، ثم تنطلق هائمة على وجهها، تتعجب تارة وتستنكر تارة، أهذه هي تركيا؟! أخذتها قدميها إلى شارع صغير متطرف، عدد المارين به ضئيل، ولكنه نظيف وجميل مثل

شوارع إسطنبول الرئيسية، وفي آخره تسرب إلى أذنيها صوت منخفض ليست على يقين بمن هو صاحب الصوت، ولكن على الأرجح، متيقنة أن القارئ عربي اللسان، فاقتربت من مصدر الصوت، منزلًا قديمًا عتيقًا، تحيط به أشجار طويلة أنيقة، وزهور قصيرة بهيجة بديعة، ووضع أعلى الباب لافتة مكتوبة بالعربية والتركية (حضرة زيدان الصوفي)، أما الصوت فهو حقًا الشيخ ياسين التهامي كما خمنت، فهو يغني بصوته الودود الرائق المفضل لها:

(الحب داء. آه. نعم الحب داء والوصال دواء. آه. والقرب من بعد البَعاد شفاء. آه. والأنس بالأحباب أكبر لذة فيها لروح العاشقين غذاء).

انجذبت مع هذا الموال كثيرًا وانشدت أوصالها، لا تعلم العلة في ذلك، هل لصوت الشيخ الجميل، أم للكلمات الرقيقة، أم لأنه مس في قلبها جرح ما زال ينزف؟ فغاصت معه في الذكريات بأشجانها وآلامها، ولا شعوريًا وجدت نفسها جاثمة رابضة على صدرها، ترج رأسها إلى الأمام وتعود بها للخلف فتهز الباب هزًا، فأحست بحركة وراءه، فهمت بالوقوف سريعًا، ينفتح الباب ويظهر رجل متوسط القامة ممتلئ قليلًا وقد نصب عمامة خضراء على رأسه، فيبادر بسؤالها بالتركية:

- أراقت لك هذه الأغنية العربية؟

فتجيب بالعربية:

- أنا مصرية.

فيبتسم ويقول:

- أهلًا بمصر وأهلها تفضلي يا بنيتي.

تتكَنس البيت، فتجد أناس تراصوا في حلقة دائرية شاسعة متباعدة ويطوحون برأسهم يمينًا وشمالًا، يهللون ويكبرون تارة بصوت رقيق وتارة أخرى بصوت أعلى، فأجلسها الرجل على مقعد من داخل الباب، وتربع أمامها على الأرض فسألها عن اسمها وتعرف بها، ثم قال:

- أنا زيدان الصوفي، إمام الطريقة القادرية في تركيا، فلدينا في الإسلام ...

فقاطعته بأدب:

- أنا أعرف الإسلام جيدًا، وعلى علم بالصوفية، وأحترمها كثيراً، ولكن لا أومن بكل هذه الطرق، وما تفعلونه من محافل ذكرية.

- من أنت لتؤمني أو لا تؤمني، فإني أجد الصليب قد زين يدك.

- لا تنشغل بمن أنا ولا بالصليب، أنا عابرة سبيل تسعى لمعرفة ربها، وتطوف في أرضه الرحبة لترى نوره ومحبته.

فتبسم وقال:

- صدقتِ القول يا فتاة، سأهديك نصيحة ضعيها دائمًا نصب عينيك.

فقالت متلهفة وقد هيأت كل جوارحها للاستماع:

- أرشدني يا إمام فإني في أمس الحاجة لعظة وموعظة لهدي طريقي.

فغرد بصوت وقور رصين:

- اسبحي كثيراً يا بنيتي، لا تكلي ولا تملي، ثم غوصي في الأعماق.

فأعادت مستفهمة:

- في أي شيء أسبح وأغوص يا إمام؟

فترنم:

- في بحر النور.

فقرأ على وجهها علامات الحيرة والالتباس فتابع:

- إن نور الله كالبحر، كلما تعمقنا فيه نقى ذهننا، وتقوى قلبنا وتطهرت أرواحنا، فهو بحر بلا شطآن، فلتسبحن حتى تصبحن.

خرجت من عند الإمام وهي لا تسمع ولا ترى ولا تدرك غير تلك الكلمات الرنانة، وكأنها رقشت أمامها كأنوار زاهية، وبعد برهة من الوقت لا تعرفها طالت أم قصرت وجدت نفسها في بهو الفندق، فصعدت حجرتها، وتوضأت ثم صلت المغرب والعشاء، أم الظهر والعصر فقد تركعتهما خفية في زاوية في شارع هامشي بجوار مقهى الخيال، حتى لا أحد يلاحظ الصليب المرسوم على ظهر معصمها، وبعد الصلاة راحت في سبات عميق، عميق جدًا.

(١٢)

بدأت حالة أنس الصحية تتحسن قليلًا، مر يوم والثاني ولا أحد يفهم علة محبسهم، فلا أحد يدخل عليهم سوى ذاك الرجل بذاك الماعون الملعون مرتين في اليوم، فتقوم قصة بإطعام أنس، وعمل الكمادات، وفي اليوم الثالث وأثناء قيامها بواجبها اتجاه رفيق محبسها، فتح ذاك الرجل الباب وأمرهم بلغته الفظة الجافة إتباعه، فأسندت قصة يد أنس على كتفها وصعدت به من الأرضية، ثم مشيا خلف ذاك الرجل، ففتح باب الزنزانة المجاورة فدخلا معًا وأوصد الباب، تطلعت فبصرت منهم النائم ومنهم المتكوم، وقد تكدسوا على بعضهم البعض، تظهر عليهم جميعا آثار جروح وحروق وكدمات ودماء تلطخ ثيابهم الممزقة وتدنس أجسادهم المخمشة، فعلمت قصة للتو أصحاب تلك الأصوات التي كانت تصرخ طوال الليل والنهار، إذن لقد اجتلبوا الجميع، نهض أحدهم وهو متخدش وسار في اتجاهها، فقال:

- ما الذي أتى بهذه الخنزيرة لهنا؟

فقام آخر صارخًا:

- أيتها الملعونة لسوف أرجمنك وأقطعك إربًا حينما ينفك أمري.

ودنا منها ثالث وصعد بيده لأعلى ليسقطها على خدها فأمسك أنس بمعصمه وصاح به:

- ما الذي حدث لكم؟ أجننتم؟

فصرخ أحدهم:

- كل هذا الذي حدث لنا بسببها.

وصخب الآخر:

- لقد كانت تنقل لهم جميع أخبارنا، كما أبلغتهم بمخبئنا.

فوقعت هذه الكلمات على أنس كالصاعقة، أما قصة فأصابتها حالة ذهول تام، فلم تنبث بنت شفة.

فقال أنس:

- من القائل بهذا؟

فقال أحدهم بلهجة منكسرة وقد ارتخت حنجرته:

- الذي قال لنا هو من مزق ثيابنا، وهتك عرضنا، ودنس شرفنا.

مع هذه الكلمات، انجلى نحيب ونجم عويل، فنظر أنس للجالسين الباكين، فوجد الورود الأربع كما كان يلقبهم، فكان يقول دائمًا عند رؤيتهن (أنتم أيتهن الفتيات

الرفيقات كأربعة ورود نمت في قلبي)، فتؤخذه رواية في كتفه بقوة وتقول: وأنا ماذا؟ فيقول:(أنت والدة الوردات جميعهن)، فتضحكن الفتيات ساخرات منها قائلين: (مقصده أنك كبرتي وذابلتي الآن)، ولكن في هذا اليوم، وفي تلك اللحظة ليسوا ورود كما اعتاد رؤيتهن، فالثياب مشروم والوجه مخدوش والشعر مبتور والجسد محروق واليد مسلوع والقدم مكلوم والأنف مخموش والفم مشجوج والعضو مكشوف، ففهم سريعًا ما انتابهن، وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى فتح حضرة الصول الباب، فسحب أنس من ذراعه ومعه قصة، وعاد بهم لزنزانتهم، وبهذا اتضح الهدف جليًا لكل من قصة وأنس من هذه الزيارة الخاطفة، فعلم الاثنين علم اليقين أن الفتنة قد توقدت واضرمت فيها الأعواد، والضلال الهالك قادم بلا محالة، وليس كقدوم الزمالك، فلقد حدث الهرج ووقعت الهوشة، عنصري أي عتْه مصري، وإن كان الجاني مجهول، ولكن عليهم التروي والتقصي والتفكير والتخطيط الجيد للقادم فهو أخطر وأسوأ وأهلك مما يظن الجميع.

(١٣)

أمام مقام الخضر عليه السلام، وفي إحدى بقاع جنوب شرق تركيا التي تعد جامعة الثقافات وحاوية الديانات وحاضنة الأعراق ففيها السرياني والأرمني والكردي والعربي والتركي والكلداني، وتحت هذه السماء الصافية العانقة للشمس المشرقة، يستعلم مؤمن من رواية عن رأيها وتقييمها لحال المدينة الصفراء، فتجيبه بلغة مفعمة بالدهشة والشموخ:

- يا الله، حقًا إنها مدينة عريقة شامخة، لقد أعجبني كثيراً معمارها الرائع الذي يدل مما لا شك فيه على قدمها وتأصلها عبر التاريخ، كدير الزعفران، والمدرسة القاسمية، ومدرسة السلطان عيسى، وجامع الشيخ جابوك، وكنيسة قرقلار، وأطلال دارا.

- هذا حقيقي فهي المدينة الثالثة بعد القدس الفلسطينية، وفينيسيا الإيطالية التي تعد آثارها محفوظة ومصونة بشكل جيد للغاية حتى الآن.

- هيا بنا الآن لمشاهدة شيء أجمل وأروع، أعتقد أنه سيبهرك أكثر.

- نحن هنا منذ يومين ولم أذهب مع الوفد إلى الكنيسة ولو لمرة واحدة.

فأجابها بلغة ودية مقنعة:

- كما ترين غالبية السكان هنا يتكلمون العربية جيدًا، ففي هذه المدينة تنصهر جميع الأجناس والطوائف الدينية، ورئيس الوفد عندما وجد غالبية قساوسة الكنيسة وممثليها يتحدثون العربية أعفانا من هذه المؤتمرات المملة، وعند الحاجة إلينا سيدعونا على الفور.

فقالت بلهجتها العفوية:

- الحمد لله فهذه المؤتمرات طويلة ولا طائل منها.
- إذن هيا بنا نذهب لمعلم ما، ثم نتناول الغداء.

فقالت وقد ظهر عليها بعض الارتياح:

- هيا بنا، ولكن أخبرني ونحن نسير في شوارع هذه المدينة العتيقة عن سبب تسميتها بماردين.
- ماردين مشتق من اسم مارية وكانت ابنة حاكم دارا التي رأيت أطلالها أمس، وكانت هذه الابنة مريضة جدًا، فنصح الحكماء بأن تذهب لأفضل مكان يتمتع بهواء نقي، فأرسلها أباها إلى هذا الجبل الذي تقام عليه المدينة الآن، فسميت المدينة من وقتها باسم ماردين.

أشار مؤمن بيده قائلًا:

- الآن انظري ما رأيك في هذا البيت؟

- يا الله ما هذا الرونق والبهاء.

- دعينا نقترب منه أكثر.

- أشعر هذا المنزل قد رأيته من قبل.

- تذكري جيدًا.

- نعم قد رأيته ولكن لا أتذكر كيف وأين؟

- هذا هو المنزل الذي صور فيه مسلسل سيلا.

- يا إلهي نعم تذكرت للتو، هذا المنزل نزلت فيه البطلة سيلا كعروس، إنه حقًا مدهش للغاية!

فتبسم مؤمن قليلًا ثم قال متهكمًا لحد ما:

- العربيات دائمًا يرون المسلسل التركي ممتع ومبهج وفائق للخيال، فما بالك حينما يرون أماكن التصوير في الطبيعة فمن المؤكد أنه سيكون مدهش خلاب.

فهزقت وقالت مؤمنة على قوله:

- حقًا إنه لشيء آسر أخاذ رؤية أماكن المسلسلات التركية على الطبيعة، ولكن الساحر الفاتن حقًا هو رؤية أبطاله وخاصة الرجال منهم.

فهأهأ مؤمن قائلًا:

- هيا بنا لنتناول الغداء، ثم نذهب للوفد في كنيسة الأربعين حتى نحلل النقود التي سنأخذها.

تماشوا معًا في أزقة وشوارع ماردين العتيقة، يشرح لها مؤمن العلامات الثقافية البارزة في المدينة والأصناف التي تتميز بها، وأهم ما لفت نظرها هو الصابون الطبيعي ومسبحة كهرمان، فهذا الصابون لم تصادفه من قبل، فهو مصنع من مواد خام مباشرة، أصنافه عديدة، أشكاله متباينة، أم مسبحة كهرمان فهي مميزة ومتناسقة لأنها مكونة من حبات كهرمان التي تزرع في هذه المدينة، فانتقت تسع مسبحات، وقبضت عليهم كفها الأيسر، وأمسكت بيدها الأخرى عاشرة تضعها مع المقبوض عليهم تارة وتعيدها لموضعها تارة أخرى، فهي في حيرة من أمرها، أتبتاع من أجله واحدة لأنه ما زال حي في قلبها، أم لا تتوهم خلوده حتى تنساه، ولكن كيف لها أن تنساه؟! فقررت أن تشتري العشر، وأثناء كل هذا هي لا تدرك بأن مؤمن يقف لها بالمرصاد.

(١٤)

حل الليل، فذهب مؤمن ورواية في جولة ترفيهية مع وفد الكنيسة إلى Beyaz su وتعني بالعربية الماء الأبيض، وهذه المنطقة مجاورة للحدود السورية، حيث تبعد أقل من أربعين دقيقة بالسيارة، وتشتهر بهوائها اللطيف البارد مهما اشتدت حرارة الجو، أخذ الجميع يتبادل أطراف الحديث حول جمال المدينة وامتدادها عبر القرون المنصرمة، بينما كانت رواية تدندن بصوت مهموس كهدير الحمام على أنغام خرير المياه وحفيف الأشجار المتكاثفة حولها، تتماشى وفي يدها كوب معدني مليء بالشاي المغلي، ترتشف منه قطرات خاطفة من حين لآخر، تتسلل المرتفعات متأملة قمم الجبال وسفوح التلال، تستنشق منتثر الأزهار مستمتعة بشواطئ الأنهار وأمواج البحار، تمر والناس في هجعاتهم سكارى متطلعة للكهوف المتشابكة العجيبة المنتشرة بغرابة، لاحظت أثناء تجوالها صبية نشطة يبدو أنها لم تتجاوز العشرين بعد، شعثاء، مهللة الملبس، يتضح من هيئتها فقرها وعوزها الشديد، ولكن أهم ما لفت نظرها هو أن الفتاة أثناء حراكها بين العوام تنشد قصيدة أحن لخبز أمي للشاعر الفلسطيني، حبيب القلوب وملهم العموم، محمود درويش، فلا إراديًا جذبت القصيدة كامل وعيها واحتلت أعماق قلبها، فرنت منها، فلجمت الفتاة لسانها وانفرجت أساريها صانعة بسمة طفولية عذبة، والتقطت قطعة صابون طبيعي مما تحمله في حقيبتها للبيع، فتلقتها رواية من يدها ثم أنشدت في صوت حنون:

أحن إلى خبز أمي.

فاتسعت ابتسامة الفتاة، ثم غنتا معًا بصوت مشترك رقيق يخالطه الحنين:

أحنّ إلى خبز أمي
و قهوة أمي
و لمسة أمي
وتكبر في الطفولة
يومًا على صدر يوم
وأعشق عمري لأني
إذا متّ،
أخجل من دمع أمي

بادرت عين رواية بالدمع، فسارعت يد الفتاة لمسحها، فلثمت رواية كفها التي لامس خدها بلطف وحنان ثم قالت بصوت متذبذب رقيق:

- ما اسمك؟

فأجابت الفتاة:

- ألماسة.

- ماذا تفعلين هنا؟

- أسعى بحثًا عن رزقي.

- وأين عائلتك، لهجتك عربية قريبة من المغرب العربي؟

- أنا من أب أمازيغي عربي قتل، وأم أفريقية قتلت هي أيضًا، نحرت عائلتي بأسرها، ما عداي، في مذبحة طائفية.

- كيف ولماذا قتلت عائلتك؟

- أبي مسلم إباضي منذ القدم، بالتوارث، زحف الجد الأكبر منذ مئات السنين من ميزاب، عاصمة الإباضية في الجزائر، إلى أن استقر به الأمر فعقل ناقته في موطننا الحالي، عاش وامتد نسله، وأنا آخره.

دائمًا ما يؤم أبي الصلاة حال غياب إمام المسجد السني، وفي أحد الأيام تغيب السني عن صلاة العشاء، فتقدم أبي للإمامة كالعادة، دخل في الصلاة، وفي منتصفها قطع عليه اثنان من الفتية، فأنحياه، وجراه، وسرحاه للخارج في وسط ذهول الناس من هذا الفعل الشنيع والذريع، برر الشبان فعلتهم مما صدر مؤخراَ عن بعض مشايخ الوهابية السعودية والسلفية المصرية بتحريم الصلاة خلف الإباضيين باعتبارهم كفار شرك لا كفار نعمة فقط، أخذ أبي يشرح لهم تحول مسار الإباضية من الخوارج لمسار مستقل معتدل، إلا أنهم أبوا الاقتناع إلا بما سمعوه من السلفية وتعلموه عن الوهابية التي تكفر الإباضية كفراَ واضحًا وصريحًا دون أن يفقهوا أو يفهموا حقيقة الأمر، بعد أن سحل أبي في الشوارع وجزر في الأزقة، إذ بهم يجمعون عصبة

من الشباب المغيب أمثالهم ويعتدون على عائلتي، مفتين بوجوب قتلنا ومحقنا من الجزيرة، لأننا الأسرة الوحيدة الإباضية، معللين خوفهم وتوجسهم من أن نكون سبب فتنة، ولكني استطعت الهرب منهم.

- في أي جزيرة كنتِ تقيمين؟
- لامو.
- لامو!
- نعم لامو، ولكن كيف لك أن تعرفي لامو التي نسيها المسلمون وحتى العرب، إنها إحدى مدن كينيا.
- كينيا! أعرفها لحد ما، فلغتها الرسمية اللغة السواحلية، ولقد درستها في كليتي كلغة ثانية ثانوية.
- حقًا؟! إنه لرائع أنك تعرفين اللغة السواحلية، فنادراً من يهتم بها في هذه الأزمنة.
- ولكن ماذا يعني مسلم إباضي، وما الفرق بينها وبين السلفية؟
- الإباضية فرقة ومذهب كجميع الفرق الإسلامية التي انشغل جميع المسلمين بالتناحر حولها والتحارب من أجلها ونسوا الدين الحقيقي والرسالة السامية.
- هذا حقيقي، ولكن ليس هذا موضوعنا الآن، أنت تبيعين الصابون؟
- نعم أبيع الصابون الطبيعي، إنه مفيد وصحي.

- هل لي بواحدة من دهن الفستق؟

- نعم، تفضلي، سيدتي.

سددت رواية ثمن الصابونة ومعه بقشيش كبير، فقيمة البقشيش تتطابق دائمًا مع حجم راحة المشتري للبائع، ثم انصرفت في طريقها لمجلس الوفد، وفي مسار العودة وبينما هي بجانب مؤمن في الأتوبيس السياحي سألته بفضول:

- قد علمت من إيمان أنك أزهري، فهل لي أن أعرف ما هي الفرقة والمذهب الإباضي؟

- عليك أولًا التفريق بين الفرقة والمذهب، فالفرقة هي جماعة تربطهم معتقدات ما، في الغالب، تعزلهم عن غيرهم، فينشئون مجتمعًا خاصًا قد يكون منغلقًا عليهم، وقد يسع غيرهم، أما المذهب فهو مجموعة من الآراء والروابط الفكرية والمبادئ المتصلة والمنسقة لمفكر أو لمدرسة فكرية ما، مثل المذاهب الفلسفية والأدبية والفقهية وغيرها، الفرقة تدل على الاختلاف في الأصول، أما المذهب فيدل على الحيوية والتجديد والنشاط الفكري داخل الفرقة الواحدة، كما أن الفرقة خلاف الجمع، أم المذهب فهو الاجتهاد فيما لا نص فيه، فالأول مذموم والثاني محمود.

- لأي باعث أو دافع نشأت المذاهب والفرق الإسلامية؟

- تبددت الأمة الإسلامية في البدء لثلاث فرق سياسية هم؛ الخوارج والشيعة والمرجئة، أما فكرياً فالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، هل تعرفين التنكس الإسلامي الأبدي؟

وجد آثار البلادة على وجهها فأردف:

- سأسرد عليك الأمر بالمختصر المفيد والتبسيط المريح، أولًا، وقبل كل شيء، القاعدة العامة الشيعة هم نقيض الخوارج، وما بينهما المرجئة. غلاة الشيعة تمسكوا بالباطن فانحرفوا، وغلاة الخوارج تمسكوا بالظاهر فاعوجوا، وغالبية المرجئة اتبعت طغاة بني أمية وملوك بني العباس، فعلى هوى الخليفة فتوا، وعلى رغبته قضوا.

نظر إليها فرأى ما زالت آثار البلادة على وجهها فتابع:

- القصة باختصار دون إفراط أو تفريط، بعد وفاة سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم تولى الخلافة سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه واجتمعت عليه الأمة، ومن بعده تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه واجتمعت عليه الأمة، ومن بعده تولى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه واجتمعت عليه الأمة، وكل ما حدث في توليتهم ومبايعتهم معلوم، وإن شائبها شيء يسير من الخلاف، وكل الأسانيد التي أرخت لغير ذلك، بعلم التجريح والتعديل، ثبت ضعفها ووضعها.

بداية النكسة الإسلامية كانت بالانقلاب الدموي الأول الذي وقع في أواخر عهد سيدنا عثمان بن عفان، حيث رأى البعض من المسلمين، وخاصة من أهل الكوفة والبصرة ومصر، أن عثمان يتهاون مع بعض الولاة من قومه، وحسب زعمهم، أنه تركهم يظلمون الناس ويسعون في الأرض فسادًا، فخرجوا عن مبايعته، وعقدوا أمرهم على أن يقتلوه، ليس كرهًا في عثمان وهو من صحابة رسول الله، وإنما لمنع هؤلاء الولاة أقرابه من الظلم، وهكذا أقنعوا أنفسهم بقتله.

قاطعته رواية بحماس:

- عذرًا للمقاطعة، فكل ما قلته يعرفه العامة ولكن لا أحد يفهم كيف قتل خليفتكم عثمان؟ كيف استطاعوا أن يحشدوا الناس ضده وهو خليفة الله وصاحب رسوله؟ أين كان الصحابة؟ وما موقفهم من هذا الأمر؟ كيف المنافقون القلة استطاعوا أن يهزموا المسلمين الأغلبية؟ كيف لابن سبأ، رأس المنافقين كما تزعمون، أن يدبر كل هذه الأمور التي أدت لمقتل الخليفة؟

التفت إليها مؤمن وكانوا على مقربة من الفندق حيث يقيمون:

- الحديث ذو شجون وستطول تفاصيله، ولقد وصلنا النزل، فليصعد الوفد، ثم نذهب معًا في جولة ليلية متميزة لهذا التراث العريق، وسأسرد عليك ما أعلمه من الأمر.

بعد أن اطمئنوا على تسكين الوفد في مبيته وراحته، أخذ مؤمن رواية ليتجولوا في المدينة القديمة، فسحر أنوارها لقبها بعقد الألماس، وفي اتجاههم للمدينة تابع حديثه المتوقف:

- في حقيقة الأمر يا رواية أن الصحابة لم ينصروا سيدنا عثمان حق نصرته، وإنما الغالبية خذلته، والأرجح أن معظمهم ألب عليه، ولكن لم يكن في تخيلهم أن الأمر سيصل لسفك الدماء، فلم يكن الانقلاب والهيجان بين عيشة وضحاها، وليس لابن سبأ ولا لألف مثله القدرة على اللعب بعقول صحابة رسول الله، كبار الأمة وعلمائها وفقهها، ابن سبأ هذا أخذ في كتب التاريخ والروايات أكثر بكثير من حقه، وإن كان لعب دوراً لا يتعدى دور الحقد والخسة والدناءة، فهو ممن يقال فيهم "بيزيط في الزيطة"، لكي تفهمين طبيعة الأمور، علينا بقراءة فاحصة للبيئة الإسلامية الموحدة في تلك الفترة، والتي لم توحد ثانيةً بعد النكسة الكبرى، مات عمر وهو من هو، بسياساته وأحكامه وآراءه، وأتى عثمان وهو من هو، بسياساته وأحكامه وآرائه، كلاهما خليفة، كلاهما صنع شعبه وزمانه وقوانينه، عمر أمسك على الرعية بأسرها، طبق العدل برمته، فأخفى العصبية وأراح الجميع، عثمان أنفق على الرعية بأسرها، وأحب قربته ووصل رحمه فيما لا يوصل، فولاهم الأمصار وأغدق الأموال عليهم وعلى غيرهم، فتغيرت النفوس، نفوس الشعب، صحابة وأتباع، فأحبوا الترف واعتادوا عليه، وتمادوا معه ومع مجريات المال، بعد أن حرمهم ابن الخطاب.

اقتربوا في تلك الأثناء من واجهتهم الأولى حيث مطرح صياغة الذهب اليدوية وترصيعها وأثناء صعودهم في اتجاه المكان الكائن أعلى الجبل قالت رواية بأسف:

- حقيقي، فأصحاب النفوس الضعيفة الشبع بعد الجوع يتلف نفوسهم ويغير فكرهم ويخرب عقلهم ويمرض قلبهم، بالأمس القريب، كانوا يسكنون البادية ويرتحلون بخيامهم، اليوم، ما بعد النفط، منهم من يتقلبون علينا نحن المصريون وغيرنا من أصحاب الحضارات، محاولين جهدنا وقتلنا وسحقنا وابتياع معالمنا الحضارية والمدنية، بمالهم يدسون لنا السموم الفكرية والتاريخية، بنقودهم يتحكمون حكامنا، بدنانيرهم يشترون علماءنا، بدراهمهم يرشون إعلامنا، بعملاتهم يغرون شعوبنا، فلا روائي يستطيع مهاجمتهم، فكيف سيحصل على الجائزة الأدبية؟! لا صحفي يكتب حقيقة أخبارهم، ماذا يفعل لو تملكوا جريدته بأكملها؟! لا إعلامي قادر على كشف ألاعيبهم، أليسوا بمالهم قادرين على شراء منبره وصاحبه؟!

استمع مؤمن لها بأسف لحقيقة وصدقية قولها، ثم قال وقد وصلوا مقصدهم:

- جئنا لكي أبتاع لجارتك هدية لعلها تنقذني من غضبة بعادي عنها

من بين القطع المتميزة والمصوغة باحترافية ومهنية اصطفى قرط مميز للغاية منحوت على هيئة صقر صغير، استغرقوا ما يقرب من عشرين دقيقة يشاهدون بعناية كيف يشكل الصياغ سبائك الذهب الخام بطريقته الاحترافية والبديعة دون

أن تخطئ أنامله، بشعور رواية الملل قادها لمقهى ومطعم عتيق وسط المدينة من جهة الشرق، وفي طريقهم استأنف مؤمن:

- أين وصلنا في حديثنا؟
- رعية عمر غير رعية عثمان.

فأتبع سرده:

- لقد أخذ على سيدنا عثمان العديد من المآخذ، بعضها سياسي، ومنها ما هو اقتصادي، وكلاهما أثر بشكل غير مباشر على الوضع الاجتماعي، فالطبيعة الاجتماعية لعصر عثمان كانت مشجعة لما حدث، حرر عثمان أبناء قريش الذين أمسك عمر عليهم فألزمهم المدينة، داراً ووطناً وحياةً، فلا يبرحها أحد إلا بإذنه شخصيًا، خوفًا منهم وعليهم الفتنة والإغراء، فهو يعرف القرشيين حق المعرفة ما أن يطرقوا طريقًا إلا أتوا بأخره، لما كانوا يعتقدونه من تفضيلهم على غيرهم في الجاهلية وفي الإسلام، ومن الأدلة المشهورة عزل عمر لخالد بن الوليد، حتى لا يقال إن النصر بيد خالد لا بيد الله، ومما ساعد أبناء قريش على الاتساع في البسيطة أيام عثمان ما وهبهم من المال الوفير والأعطيات المدرارة، فأصبحت لهم الدور والجنان والخيل والفرسان والأتباع، ففتن بهم الناس وفتنوهم، ومع مرور الأعوام القليلة، تجلت رؤية وحكمة الفاروق، فأصبح ما كان يخشاه حقيقة بينة للعوام.
- وما هي الأسباب السياسية والاقتصادية؟

- فيما يتعلق بالشأن السياسي الديني، عدم القصاص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل بنت أبي لؤلوة، وهرمزان المسلم، وجفينة المسيحي، وهم شركاء أبي لؤلوة بالتآمر والتحريض في طعن عمر بن الخطاب، فلما تولى عثمان الخلافة كان لكبار الصحابة رأيان، أحدهما يستنكر، أيقتل الأمير بالأمس ويعدم ابنه اليوم؟! أما الآخر، قتل فيَقتل، لقد أزهق ذميين ومسلمًا بدون وجه حق، فلا صلاحية ولا تخويل له، أما عثمان فأمسك بأمر وسطي، وهو بصفته كخليفة المسلمين يعد ولي القاتل والمقتول، فليعفي بصفة ولي المقتول، ويدفع الدية بصفة ولي القاتل، والدية من ماله الشخصي لبيت مال المسلمين، وانتهى الأمر وفي كل نفس ما لها، ومن السياسي أيضًا، أبقى عثمان عامه الأول من الخلافة على أولياء عمر المعينين من قبله، ثم بعد ذلك غير في منظومة عمر التكنوقراطية الحكيمة، فأبدل الأكفاء بالأقرباء، فتمكنوا من مفاصل الدولة وولايات الخلافة، مثل تولية عبد الله بن أبي السرح لمصر، وهو أخوه من الرضاعة، وقد كان كذابا يكذب بلسان الرسول، فأمر الرسول بقتله، لولا أن عثمان تشفع فيه فلبى له الرسول مطلبه، وتنصيب الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخيه لأمه، على الكوفة، وهو من نزل فيه قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إن جَاءَكُمْ فَاسقٌ بنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصيبُوا قَوْمًا بجَهَالَةٍ فَتُصْبحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادمينَ.**

ومن المآخذ أيضًا، استقدام الحكم بن أمية، عم عثمان، للمدينة، بعد أن طرده الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة، ورفض أبو بكر وعمر عودته في خلافتهم، لأنه كان يسخر ويتهكم من النبي، حيث كان يختلج مقلدًا النبي في مشيته، كما

كان يتجسس عليه في بيته وهو مع زوجاته، فلعنه النبي ونفاه، أما نفي سيدنا أبي ذر الغفاري، صاحب رسول الله، من المدينة، كان له الأثر الأقوى في نفوس المسلمين، حيث كان ينادي بإلزام الخليفة بجمع كل ما هو فائض عن حاجة الناس، ثم يقسمه على فقراء المسلمين، لأن الغفاري كان مؤمنًا بمبدأ التكافل الاجتماعي، حتى لقب في العصور الحديثة بأنه أول اشتراكي في التاريخ، أو الصحابي الشيوعي، غير أن واقعة ضرب عمار بن ياسر في اليوم الشهير لم تقل أهمية وجدلًا في أوساط الصحابة والمسلمين عامة.

انتهى بهم المطاف داخل مقر المطعم التراثي حيث فرقة ماردييني الشعبية ما زالت تنوح بمواليها، فتوجه بها للجزء الأخير حيث الركن الصخري الذي يقبع عاليا، فجلسوا على مقاعد تراثية بدائية تفوح بروح الأصالة، فأخذ مؤمن ورواية يتطلعون لقائمة المأكولات المنحوتة على الحائط الحجري بجانبهم، وبعد برهة قليلة، حيث لم تفهم رواية أي من المأكولات غير الكباب خاطبت مؤمن:

- ماذا يأكل من هو مثلي الذي لا يعرف أي من هذه الأصناف غير الكباب؟
- أشهر الأطعمة هنا في ماردين هو الكباب، ولكن الأفضل منه على الإطلاق في هذا المطعم وفي ماردين بأسرها هو دولمة كابورجا والذي يعني محشي الأضلاع فليس له مثيل، فهو حشو لحم الخروف بأرز حيث يستغرق تسويته ثماني ساعات على البخار.

عقب تكليف النادل بقائمة احتياجاتهم من الطعام، سألت رواية على أنغام الناي التركي المنبعث حولهم:

- ما هي الأسباب المباشرة أو الحجج الواضحة التي أعلنها المتمردين على الخليفة بن عفان؟

- الأسباب المباشرة التي أدت لمحاصرة دار سيدنا عثمان للانقلاب على الخليفة؛ تسليم عثمان ختم الخلافة لمروان بن الحكم بن أمية، زوج ابنته، وما ترتب عليه أنه في أحد الأيام قدم وفد من مصر يشتكي لسيدنا عثمان ظلم واليهم، فكتب إليهم عثمان بعزله، وهم في طريقهم لمصر ومعهم خطاب العزل، لحقهم بريد الخلافة ومعه كتاب آخر عليه ختم الخلافة مكتوب فيه أمر للوالي بقتل الوفد الذي اشتكاه للخليفة، فعاد الوفد المصري لسيدنا عثمان ليناقشه في الأمر فقال رضي الله عنه، والله ما رأيت ولا علمت بهذا، وكان مروان بن الحكم هو الذي زوره ظلمًا وبهتانًا على الخليفة، ولكن تفاقمت الأمور فخطط المصريون مع البصريين والكوفيين، وأطرقوا أول معول في هدم الخلافة الراشدة، وأقاموا بأول انقلاب في الإسلام، ومن خلال كل المآخذ السابقة التي ذكرتها لك والتي أخذت على سيدنا عثمان انتشرت الدعوة ضده، ومع ذهاب معظم الصحابة وأهل المدينة للحج في عام ٣٥هـ، تجمهر هؤلاء الانقلابيون أمام بيت الخليفة فحصروه أشد الحصار، فمنعوا عنه الطعام والشراب، كما منعوه للخروج للصلاة، وخيروه بين أمرين لا ثالث لهما، إما أن يسلم مروان بن الحكم ليقتلوه، وإما أن يعزل نفسه،

فرفض كلاهما، فظل محاصرًا هكذا حتى يوم الجمعة الموافق ١٨من ذي الحجة لعام ٣٥هـ، إذ دخل عليه ثلاثة عشر رجل وكان صائمًا جالسًا وبين يديه المصحف الشريف، فكما يقول المؤرخون أنهم شقوا رأسه، وشدوا لحيته، وكسروا أضلاعه، وبقروا بطنه، وقطعوا حلقه، وقتلوه شر قتلة، وبعد كل هذا رفضوا أن يدفنوه في مقابر المسلمين، وكانت البقيع آنذاك، وهي مدفن المسلمين بالمدينة، محاطة بجدار، فبعد توسط الكثير من الصحابة فيما بعد تم دفنه خارج السور، كانوا يرونه كافرًا فلا يسمح بدفنه في مقابر المسلمين.

- وأين الصحابة من هذا؟

- غالبية الصحابة، وإن على اختلاف معه في سياسته، إلا أنهم كانوا بالحج أو في المدن المفتوحة حديثًا، حيث يرشدون ويعلمون المسلمون الجدد، من ثبت وجودهم في المدينة آنذاك علي بن أبي طالب وابناه الحسن والحسين، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، ودافعوا عنه أشد الدفاع ولكنهم لم يتمكنوا من صدهم، فالمنقلبين كثر، قدروا بالآلاف، استطاعوا أن يحشدوا الكثير من أهل الأمصار مما جعلهم يتفوقون عددًا على أهل المدينة، أما معاوية فلم يكن قد وصل بعد للمدينة.

- لا أستطيع استيعاب هذا، ولكن ماذا جرى بعد مقتل الخليفة؟

- عاشت المدينة حالة من الفوضى والهلع بعد الهرج والشغب الذي اجتاحها والذي أدخلنا في نفق مظلم أبدي، أراد المصريون مبايعة علي بن أبي طالب، وأراد الكوفيون مبايعة الزبير، وأراد البصريون مبايعة طلحة، وعرضت على

سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وكلهم رفضوا، رضي الله عنهم جميعًا، فالوضع السياسي والميداني كان مقلق للغاية، فالخوف من المجهول تملك العقول والقلوب، وفي نهاية الأمر اجتمعت الأغلبية على علي فأجبروه عليها، فتشجع سيدنا علي ووافق على مضض حتى ينقذ الأمة، فلا بد من قائد يقودها، فبويع في يوم ٢٤ من ذي الحجة.

- الآن الأمور جيدة، لقد أصبح للمسلمين قائد وبايعه الناس فمن أين جاءت الفتنة والحروب؟

- الذين بايعوا عليًا هم الانقلابيون فقط الذين حرضوا وقتلوا سيدنا عثمان، ولهذا عندما طالبه معاوية بن أبي سفيان بأن يسلمه قتلة عثمان لأنه ولي دمه، طالبه علي بأن يبايعه الأول على الخلافة، ومن ثم يسلمه القتلة، فرفض معاوية المبايعة وتاجر بدم عثمان في أهل الشام الذين يمتلك ولائهم التام، فأزاد الفتنة فتنًا، حيث صدرت الفوضى من المدينة لتعم بلاد المسلمين بأسرها.

تملك العجب رواية من الأحداث المرتبكة وقالت:

- ولماذا يرفض علي تسليم قتلة عثمان؟

- رفض سيدنا علي تسليمهم لأنهم في ذاك الوقت هم الحاشية والقوة النافذة والأغلبية المسلحة التي لن يقوى أهل المدينة على الوقوف أمامها، كما أنه لا يستطيع أن يحددهم بالضبط نفرًا نفرًا، فكان الإمام علي يرغب في محالفة

معاوية حتى يتكون لهم جيش ودولة تمكنهم من التصدي للمنقلبين ومحاسبتهم والعودة لمسك زمام الأمور.

- ومن ثم ماذا حدث نتيجة تمسك كل برأيه؟

- أدى هذا التناحر بين علي ومعاوية إلى معركتي الجمل وصفين، اللتين قتل فيهما الكثير من الصحابة والتابعين فحفرت لهم القبور الجماعية، أصحاب الأولى اقتنعوا بخطائهم في الخروج مما أدى لسفك الدماء، فعادوا لمواطنهم، أما أصحاب الثانية، صفين، قوات معاوية لما أدركوا الهزيمة المؤكدة رفعوا المصاحف للتحكيم فيما بينهما، وكان علي قد اقترحها مسبقًا ولكن معاوية وصحبته رفضوا. وافق بعض أنصار علي بالتحكيم لتفاقم الأزمة، أما علي فلم يرغب بها، وإنما خضع لقرار الأغلبية، فقرروا التحكيم لكتاب الله، اختارت جماعة معاوية عمرو بن العاص، واختارت جماعة علي، المؤيدين للتحكيم، أبو موسى الأشعري، فأبرم الأشعري وابن العاص أن كلاهما يخلع صاحبه، فقام أبو موسي الأشعري فخلع علي، وقام عمرو بن العاص فثبت صاحبه معاوية، غدرًا وخيانًة وخداعًا، فرفض فريق من جماعة علي الحكم لأن عمرو وفريقه نكثوا، فخرجوا على علي وجماعته القابلة للتحكيم، هذه الجماعة لقبوا أنفسهم الشراة، أي الذين باعوا أنفسهم لله، وسموا أيضًا المُحكمة لقولهم لا حكم إلا لله، لا لابن العاص ولا لابن الأشعري، ومن هنا ظهرت الشيعة والخوارج، ففي كلا الفريقين من تلوث بدم عثمان.

إذن انقسمت جماعة علي، ففريق ناصر سيدنا علي وأكملوا معه، وهم الشيعة، وفريق خرج على سيدنا علي وحاربوه، وهم الخوارج، فر الخوارج إلى قرية حروراء

وجعلوها مقرًا، وكفروا علي وعمرو ومعاوية، وأرادوا قتلهم، فترصد لهم ثلاثة منهم، لم يصب إلا عبدالرحمن بن الملجم سيدنا علي وهو في طريقه لصلاة الفجر، فقتله، ثم بيع بعده، الحسن بن علي، فوجد الأمور غير مستقرة، وكان شخصًا مسالمًا، فتنازل لمعاوية حقنًا للدماء، وكان هذا عام ٤٠ للهجرة، ولهذا سمي بعام الجماعة.

حضر طاجن محشي الأضلاع برائحته النفاذة للمائدة الصخرية وقد خطف عقل وقلب المعدة من منظره الشهي، ولكن هذا لم يحجم فضول رواية التي تابعت أسئلتها:

- هذا يعني أن المُنقلبين انقسموا لفئتين سياسيتين، فئة خرجت على علي وفئة ناصرته، غير الفئة الثالثة التي كانت تتبع معاوية؟

- هذا صحيح، كلا الفريقين الخارج والمشيع كانوا سياسيين، ولكن لأن السياسة مفلسة في المجتمعات المتدينة، فهي بلا أنصار، وهذا يجعلها بلا مذاق، فلابد إذا أرادت النصرة عليها بالتوابل الدينية، وأفضلها الأكثر غرابة التي تكسبها حلاوة ومظهرًا براقًا يجذب إليها متطرفي الفكر، والذي يمكنها من احتلال عقولهم التي هي الطريق الأقصر لتولي المناصب واحتلال الكراسي، فبعد مقتل الإمام علي استمرت فرقة الخوارج بمبادئها وآرائها وفرقها التي تفرعت عنها، وبدأت تتبلور الشيعة وفرقها كذلك.

- ومن هم المرجئة إذن؟

أمسك مؤمن بالضلع ليقطم بلذة وشهية قبل أن يجيبها واللحم يملأ فمه:

- المرجئة هم الذين أرجوا أمر هؤلاء وهؤلاء للآخرة، فلا يتحيزون لفئة دون فئة ولا يوقعون حكم على عثمان ولا علي ولا معاوية ولا الحسن ولا الحسين، وإنما أرجوا أمرهم جميعًا لله تعالى، ويترضون عنهم جميعًا، وقد أطلق عليهم الأمويون في عصرهم أهل السنة، وأطلق عليهم العباسيون في عصرهم أهل الجماعة، ومن ثم لقبوا بأهل السنة والجماعة إلى اليوم، ويقال بأنهم من قالوا بجبرية الإنسان ردًا على القدرية التي ظهرت وقتها، كما أنهم أرجوا أمر مرتكب الكبيرة إلى الله تعالى، وبهذا خالفوا الشيعة والخوارج، إلا أن جمهور أهل السنة والجماعة في العصور القريبة يتبرون من وصف الإرجاء حتى لا يخلط بينهم وبين الإباحيين.

- وما مصير الخوارج؟

- الحقيقية التي أثبتها التاريخ أن الخوارج انقسموا لفرق متعددة، ولكن صنفهم المؤرخون الجدد لفريقين أساسين، كل فريق له أراءه وأحكامه وأتباعه، فريق الغلاة ويضم كل من (الأزارقة والصفرية والنجدات والعجاردة)، وهؤلاء كفروا جميع الصحابة وهدموا قواعد الدين والإنسانية وقضوا على الفطرة الحسنة السوية، حتى وصل بهم الأمر إلى أنهم ينصبون الحواجز في الطريق فإذا مر يهودي أو نصراني يتركونه ويحموه لأنه من أهل الكتاب، وقد أوصى عليه النبي، أما إذا مر مسلم على غير ملتهم قتلوه شر قتلة مثل عبد الله بن خباب، حسب زعمهم كل

من ليس معهم فهو كافر وجب قتله، لأن معتقدهم بكل من أذنب ولو ذنبًا واحدًا فهو كافر ولا توبة له، كما ينصبون القدور ويملئونها بالزيت المغلي ويضعون فيها المسلمين من شيوخ وأطفال ونساء.

أما الفريق الآخر من الخوارج تمثله فرقة الإباضية، وهي أعدل الفرق وأقربها لمنهاج أهل السنة والجماعة، فهم لا يعدون مخالفيهم كفار عقيدة وإن عدوهم كفار نعمة، وتنسب لعبدالله ابن إباض التميمي وهو سياسي مشهور في عصره ولهذا سمي أتباعه وأصحابه باسمه، فكانت الإباضية تسمى، من قبله، أهل الاستقامة وأهل الدعوة إلى أن سميت بعد ذلك بالإباضية نسبة له، مؤسسها الحقيقي أبو الشعثاء، جابر بن زيد رضي الله عنه، تابعي تقي نقي وارع عالم زاهد متواضع عفيف طاهر، أثنى عليه ابن عباس وعبدالله بن عمر وعمر بن عبدالعزيز والسيوطي وابن حجر وابن تيمية وغيرهم من الأئمة، ولقد أدرك سبعين من أصحاب بدر أخذ عنهم، ثم ترحل في الأمصار بحثًا عن المعرفة ورواة الحديث، ولهذا يعد مذهب الإباضية أول المذاهب نشأة إلى أن صار فرقة مستقلة، وهو مذهب معترف به في مجمع البحوث الإسلامية كما في موسوعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ويدرس في الأزهر الشريف في مقارنة الأديان، وقد اقتبست القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم كما في الميراث بولاء العتاقة، وهو مذهب له أعلامه ورموزه وكتبه وفقهه ومسنده الرئيس مسند الإمام الربيع بن حبيب، حتى أن الأزهر في فتواه يرجع لهؤلاء العلماء وفتواهم عسى أن يجد عندهم ما نقص في المذاهب السنية الأربعة الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

- إذن فلماذا تعد الإباضية من الخوارج؟

- جميع المؤرخون والعلماء ذكروهم بأنهم من الخوارج، والمنصفون الإباضيون لا ينكرون ذلك، ولكنهم صححوا رؤيتهم، فلم يكفروا صحابيًا سواء عثمان أو علي، وإنما يعتبرونهم غير معصومين، فمذهبهم لا عصمة بعد النبي، وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، يرون كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله واتجه للقبلة فهو مسلم دمه حرام، ويتعاملون معه ويزوجونه ويتزوجون منه، بل المذهب الإباضي به ما لم يوجد في أي مذهب آخر، وهذا ما جعل العادلين من المستشرقين والباحثين الأوربيين يهتمون به لأنه لا يرضى بأي حاكم ظالم كائنًا من كان، بل لا يُسلم بقضية وجوب الإمامة في قريش كما تؤمن بها أهل السنة، ولا يؤمن بعصمة الإمام كما ترى الشيعة، وإنما لهم قاعدة أساسية أن أي إنسان صالح حر تقي يولى وإن خالف فليعصى ويعزل فلا عصمة لحاكم أو لإمام.

بمجرد القضاء على هذا المحشي وضلوعه الدسمة المليئة بالطاقات المتنوعة شعروا بالحاجة للنوم العميق والاسترخاء، فلم يستطع مؤمن أن يواصل حديثه ولا رواية أن تسأل، فعادوا أدراجهم للفندق، ومع وصولهم تناثر الجميع إلى مراقدهم، ومع كل هذا الزخم التاريخي الذي اطلعت عليه لم تغب كلمات القصيدة من ذاكرتها فعادت تجتاح قلبها، فما وطئت قدميها داخل الغرفة حتى هاتفت والدتها في عجلة:

- أمي، أشتاق لك كثيراً.
- لهفتي لك أكثر يا بنيتي، كيف حالك؟
- إنني بخير، طمئنيني عليك.
- بخير نحمد الرب.
- هل إيمان تهتم بك جيدًا؟
- بعد سفرك بسويعات قليلة غادرت إيمان لصعيدها حيث والدها مرض فجأة، ولكن لا تقلقي عليّ يا بنيتي فأنا على أكمل وجه.
- وأين قصة، بجوارك؟

ارتبكت الأم وتردد فكرها، واتضح من صوتها أن الأمور لا تسير في مجراها الطبيعي، فقالت بلسان متعثر وكلمات متقطعة:

- لا يا بنيتي.
- ماذا هناك يا أماه؟
- قصة سجنت في قضية شرف يا بنيتي، لقد قبض عليها في وضع مخجل مع زميلها المسلم.
- ماذا تقولي يا أماه؟! كيف هذا حدث؟! من المستحيلات قصة تفعل هذا!
- واأسفاه لقد تلبست بالجريمة.
- لا يا أماه وإنما ألبست إياها، ومن هذا الشاب المسلم؟

- لا أحد يعرف فلم يفصح عنه، والحمد لله يا بنيتي أنك بعيدة عن نطاق الأحداث، فسفرك هذا أفضل، فلا تتعجلي في الرجوع، فلعله الخير هناك لا هنا، أما قضية قصة فلا حيلة لي، فالأمر عسير، ولا أعلم أي باب أطرق.

أنهت المكالمة ويعتري صدرها بركان من الأسى والحزن والغضب العارم، فحاولت الاتصال بإيمان حتى تتطلع على كافة التفاصيل بشأن هذا الأمر، وجدت رقمها غير متاح، فقذفت بالهاتف بعيدًا عنها، وأمسكت رأسها بكلتا يديها عسى أن تحمل معها بعض همومها المفاجئة، وبينما هي على هذا الوضع، تتذكر تفصيلة صغيرة من أحد أحاديثها السابقة مع إيمان، فكيف ذهبت إيمان لوالدها المريض وقد أخبرتها سابقًا بأن والديها قضيا نحبهما منذ عدة سنوات؟!

في دقائق معدودات، أسرعت لتشغيل جهاز إلكتروني في غرفتها لتتصفح المواقع الإخبارية المصرية، فوجدت موضوعًا بعينه يتصدر جميع الصحف وإن تعددت عناوينه، فكان أبرز ما تصفحته:

"القبض على شبكة دعارة مسيحية يقودها مسلم".

نقرت رابط الخبر وشرعت في القراءة، ويا لها من كلمات فظة شرسة ثقيلة على النفس قاتلة للروح، وماذا ينتظر من أبواق السلطة غير هذا، فالصحفي وظيفة التابع نوعًا الجاحد قلبًا كما يُملى عليه يفضي، ولكن الفاجعة الكبرى عندما قرأت الأسماء، فهذه الأسماء تعرفها جيدًا وتحفظها عن ظهر القلب، فهي بعينها أسامي

الرفاق، فأصابها الذعر كل الذعر، فلملمت حاجاتها في عجالة وتسللت من غرفتها خفية، أدركت أن هناك أمرًا يدبر لها، وأنها هنا لأن جهة ما تخطط لأمر ما، ولكن ما يحزنها ويثقل نفسها ويزاحم فكرها، كيف أن إيمان تعاونت مع الكنيسة ضدها؟

"لقد خططتها ماريا بأسلوب أكثر حبكة"، أمسكتها في نفسها وهي تهرول مبتعدة ولا تعلم واجهتها، حتى استقرت بها قدميها عند المياه البيضاء، فوجدت ألماسة ما زالت هناك، ولكنها تنشد هذه المرة أبيات لأول مرة تصل أذانها، فاقتربت منها بترقب، وأخذت تستمتع لإنشادها الأجش:

ماذا أفادتْني هدايا

أهديَتْ بَعدَ الهلاكْ؟

كيف التَجَمّلُ في مَرايا

لا أرى فيها سواكْ؟

أخَلَقْتَها حتى ترى

مَن قد خلقتَ لكي تراكْ؟

فتشدّ من أحبال صوتي

كلّما صوتٌ دعاكْ؟

صدْني ومزّقْني

فإن النّاسَ ترميني

ببَحرٍ ليس يبغيني

فلا تُربٌ ولا ماءٌ بطيني

لا هَلاكْ

صدْني فإنّي لا أصيدُ ولا أُصادُ.

أنا الشّباكْ

راقت لها هذه الأبيات الرقيقة الصادقة الحنونة المعبرة بقوة عن حالتها، فدنت منها أكثر ولم تشعر ألماسة بها إلا وهي تحضنها من الخلف بينما دموعها تنهمر من عينيها فسألتها:

- لمن هذه الكلمات؟

فأجابت ألماسة بنبرة هادئة:

- إنها للشاعرة العربية ميسون السويدان.
- يا لها من شاعرة مرهفة الحس صادقة القول، زيديني من قولها.

أخذت ألماسة تطرب بصوتها العذب:

أنا ربّما

أبكي قليلًا في سريري دونما.

يدري بدمعي إخوتي

لكنّما.

تبقى أمامَ النّاس تكبر بَسمتي.

تزداد لمعتُها إذا ما خَضَّبَتْها دمعتي.

أنا عندما أطلقت ُآهاتي ولم

تسرحْ ملامحُ بسمتي شوقا إليكْ.

أصبحتُ أفهمُ ما لديّ وما لديكْ.

ها قد ملكتُ سعادتي

لكنَّ حزنيَ في يديكْ.

فَمتى سترجع أدمُعي؟

وإلى متى أبكي عليكْ؟

هذي شموعُكَ لم أزلْ

بالليل أرجوها فلمْ تَتَعَطَّف

ما بالُها لم تَنطَف؟؟!

مُتْ! أو لتَتركْني أمُتْ!

اخترْ مماتًا أو حياةً واختَف

لا تحيَ كالأشباح فيّ.

بكت رواية شوقًا واسترسلت في حزنها، فكأن الشاعرة عالمة بأمرها، تتحدث بلسانها، مترجمة لإحساسها، بعد أن هدأت نفسها وسكنت روحها وجففت دموعها، توجهت إلى ألماسة:

- هناك شيء سيسعدك، أنا مسلمة وأحتاج لمساعدتك بعض الشيء.

تصاب ألماسة بالذهول، كل الذهول، وتقول وهي تشير نحو معصمها:

- وهذا؟
- حب الله والإيمان به لا يعوقه رمز أو صليب.
- صدقتِ، ولكن ما أمرك؟

روت رواية على مسامع ألماسة مجمل حكايتها ومجموع حياتها، فاندهشت ألماسة بل أعجبت بها كثيراً، وفتنت بمغامراتها العجيبة، فكم هي فتاة خنذيذة لم تخيب، بل ظلت شوساء طوال مسيرتها النجيدة، حتى وصلتا إلى السؤال الإجباري، وما الحل الآن؟

بعد برهة قصيرة من التفكير الرصين صاحت ألماسة:

- زنجبار.
- زنجبار!
- نعم زنجبار، وهي تنزانيا اليوم!
- ولكن كيف سنذهب لتنزانيا وهي في شرق أفريقيا؟
- لا تقلقي أنا سوف أتولى هذا الأمر، لأنني قدمت من هناك، وأعرف الوسيلة التي ستمكننا من العودة إلى هناك مجدداً.
- ولكن أنا لا أعلم شيء عن زنجبار فكيف سأعيش هناك؟

- لا تقلقي سأحدثك بكل شيء في وقته، الآن هيا بنا نختبئ قبل أن يكشف أمرنا.

ذهبتا إلى كهف ناء عميق مظلم كسائر الكهوف في المياه البيضاء، كان يتخلله بعض أشعة فانوس جازي، تركت ألماسة رواية في الكهف وغادرت لبدء أولى خطوات خطتها لتتمكن من العودة بها لزنجبار، أما رواية فلاحظت وجود كتاب تركته ألماسة قبل مغادرتها، فاقتربت منه في خشوع وأمسكته بكلتا كفتيها في خضوع وإجلال، لا تستطيع أن ترى كتاب دون أن تلمسه وتتصفحه، لا تعرف كيف تقاوم عشق الكتب وهل لعشق الكتب مثيل حتى يقاوم؟ أول ما فعلته، وهي في حضرة الكتاب صاحب الهيبة ذو الوقار، احتضنته بين ذراعيها، ثم دنت أنفها من ورقاته، فكم تشتاق لتلك الرائحة المميزة والنكهة الخاصة التي تشعرها بالراحة النفسية وتبعث فيها الأمان والاطمئنان والتفاؤل، وهي لا توجد سوى في الكتب، في الكتب فقط، اقتربت والكتاب يزال في أحضناها من الفانوس الجازي، فجلست القرفصاء، وألقت ببصرها على الغلاف فوجدت باللغة السواحلية "Mbali Na Nyumbani لشافي آدم".

فترجمت بصوت مهموس:

- بعيدًا عن الديار! يا له من اسم جذاب!

استعاذت بالله وبسملت ثم أخذت تقرأ وتقرأ، وهي مستمتعة به لأنها لأول مرة تقرأ عمل تام في الأدب الأفريقي باللغة السواحلية، وإن كان الكثير من المصطلحات والمفاهيم تحجبها عن استدراك كل شيء، ولكنها تفهم الأفكار الرئيسية، ظلت هكذا مستأنسة بمسامرها حتى صارع النعاس جفونها وأثملت الظلمة عقلها، ولم تستيقظ إلا على صوت ألماسة وهي تصيح بها في هدوء وتهز جسدها المهفهف، أفاقت رواية من سباتها العميق، ولكنها لا تعرف كم من الوقت استغرقت في القراءة ولا كم نامت، أخبرتها ألماسة بأنها تجسست على المهربين وعلمت أن هناك سفينة عائدة ستبحر بعد ساعات قليلة لزنجبار، ويجب عليهم أن يكونوا مستعدين للرحيل في غضون ساعة، فقالت رواية:

- ولكن ليس لديّ مال كافي لنفقة هذه الرحلة؟
- ولا أنا أيضًا.
- فكيف سنبحر إذن؟
- هذه السفينة غير شرعية، وسوف نسافر عبرها بطريقة غير شرعية لشرعيتها.

لاحظت ألماسة على وجهها عدم الاستدراك فتابعت:

- هذه السفينة مهربة، تتنقل عبر البحار خفية، حيث تحمل في جوف إحدى السفن العملاقة إلى أن تعبر قناة السويس، ثم تنحدر من السفينة الكبرى

وتتبع مسارها، ونحن سوف نغفل قبطانها ونختبئ بإحدى حمولاتها، لا عليك بهذا الأمر ستفهمين فيما بعد.

(١٥)

تحت شمس أفريقيا الحارقة، وفي جوف ظلال أشجار القرنفل، تقف رواية مرتعشة قليلًا على شاطئ زنجبار وبجانبها ألماسة تطالع السواحل وتتأمل الجبال وتشاهد التلال، بعد برهة من التدبر والتبصر أول ما نطقت به رواية:

- أحس بشمس أفريقية تكاد أن تحرق جلدي، ولكن أشعر بهواء أليف يلاطفني ويداعب خصلاتي ويلامس خدي ويخترق صدري.

نظرت ألماسة بعين منكسرة على الأطلال مترامية الأطراف من قلاع وقصور ومنازل ودور، واستدارت بجسدها نحو الساحل الممتد أمامها، وأنشدت كلمات خميس السلطي بصوت حنون يملئه شجون:

فوح الحضارة مجد تجلى

ورقصة الموت للعشق تنسى

نور تلاء جيلًا فجيلًا تاريخ يهدى

زنجبار رحلة للناس تحكى

هذه السواحل تشهد أن

كانت وكنا قمرًا وفجرا

ثم تابعت وما زال بصرها عالق بالساحل:

- وهي بالفعل كذلك، فهي عربية أكثر منها أفريقية، زنجبار عاصمة الإمبراطورية العمانية، وأندلس آخر مفقود.

فاندهشت رواية وسألت:

- عاصمة عُمان؟!

- نعم كانت عاصمة الدولة العمانية، منذ أن انتقل إليها السلطان العماني سعيد البوسعيدي لأول مرة عام ١٨٢٨م فتن بها مما جعله يوافق على نقل العاصمة من مسقط لزنجبار، وفي عام ١٨٣٢م تُوجت زنجبار رسميًا كعاصمة لمملكة عمان العربية، فهي منذ القرن الأول الهجري أرضًا مسلمة، أول من سكنها ليس أفارقة، إنما هي قبائل شيراز الفارسية، ثم توافد عليها تجار العرب اليمنيون والعمانيون في عصر صدر الإسلام، ومن ثم حكمها العرب المسلمون قرابة ألف عام إلى أن ضمت ظلمًا وقسرًا على يد كرومي مع منطقة تنجانيقا بقيادة القسيس نيريري عام ١٩٦٤م بعد مذبحة راح ضحيتها ثلاثة وعشرين ألف أسير مسلم عربي، أشعل النار فيهم أحياء بين خنادق ما زالت قائمة لليوم، ليتم تكوين ما يعرف اليوم بدولة تنزانيا، وهذا الانقلاب المسمى بالثورة زورًا وبهتانًا كان من إحدى الفتن المفتعلة من جانب بريطانيا لخدمة سياستها الخاصة في الساحل الشرقي الأفريقي لإنزال كل أعلام

العرب المسلمين، ورفع العلم البريطاني على جميع البلدان والولايات، فبلاد الزنج هذه تتكون من أكثر من سبعين جزيرة منتشرة في المحيط الهندي، ولكن أهمها على الإطلاق جزيرتين فقط هما بيمبا وأنجويا، وغالبًا ما يطلق على أنجويا الجزيرة الأكبر زنجبار وهي التي نحن وقفات بها الآن، كما يطلق على جارتها بيمبا الجزيرة الخضراء.

- يا الله، لأول مرة أعرف هذا التاريخ الهام من أمتنا، فكم نحن جهلاء بقارتنا السمراء! لقد وجدت في الكهف قبل الرحيل رواية بعيدًا عن الديار بدأت في قرأتها، ولكن لم أفهم الكثير منها، ولكنني الآن تشجعت لقرأتها بعناية أكثر.

- دع هذا جانبًا الآن، وهيا بنا نتجول قليلًا في هذه الجزيرة، فكم اشتاق لها، كنت أتي مع صديقاتي من لامو لكي نتمتع بها، فلامو قريبة منها ولا نستطيع الذهاب إليها الحين للفتنة التي حدثت من قبل وراحت عائلتي ضحيتها، وإن لم يكن هواؤها وجوها أفضل من لامو، ولكن زنجبار تعد من أفضل عشرة مناطق سياحية في العالم، فكما ترين هي جنة أرضية.

أخذتها ألماسة في جولة سياحية ترفيهية لرؤية ستون تون (المدينة الصخرية)، وأعلمتها بمعالم الجزيرة، كمساجدها الخمسين ومعابدها الهندوسية الست، وكنيستها الإنجيلية والأخرى الكاثوليكية، وأثناء مرورهن بسوق المدينة العريق ابتاعت ألماسة ليسو، وشاح، لعقد كيتينجي على رأس رواية، وهي عمامة أفريقية شعبية، أظهرتها في حلية جديدة كزنجبارية الأصل، زارتا بيت العجائب الذي يعد

عجيبًا حقًا، والذي أنشئ عام ١٨٨٣م كقصر للاحتفالات في عهد السلطان العماني برجش الذي أمر إضاءته بالكهرباء، كما استخدم فيه المصعد الكهربائي لأول مرة في تاريخ أفريقيا، وكان قد أمر السلطان من ذي قبل بإنشاء أول مطبعة في شرق ووسط أفريقيا في عام١٨٨٠م بعد أن رأى المطبعة لأول مرة بمصر، أكثر ما لفت نظر رواية في هذه المدينة الفريدة الرائعة هي تلك التماثيل الحجرية المنحوتة بدقة لأناس نكثت رؤوسهم وطبقت السلاسل الحديدية حول رقابهم فلما سألت ألماسة عن هذا الشيء قالت:

- بهذه التماثيل الحجرية التي تقبع أمامك استطاعت بريطانيا العظمى أن تنهي الحكم والوجود العربي في الجزيرة، وإن لم تستطع تسكير الحضور الديني الإسلامي والثقافي العربي، فبريطانيا كعادتها احتلت الجزيرة بطريق غير مباشر معلل بحجج ومبررات مفتعلة، فمن خلال نحاتها العظام نحتت هذه التماثيل الحجرية وأهدتها لزنجبار، ليس حبًا في زنجبار وأهلها السود، ولكن لتلقي في أذهان الزنوج بأنهم ما هم إلا عبيد للعرب، ملقية بتهمة ابتداع تجارة الرقيق على العرب.

- ولماذا كان العرب يستعبدون الزنوج؟

- العرب لم تستعبد أحدًا، فتجارة العبيد في أفريقيا آنذاك كانت مشروعة وتعد من أهم التجارات الأفريقية، فهي أزلية ولا شك أنها أبدية، حيث كانت تقام الأسواق العلنية لبيع وشراء العبيد بين طرفي النهار، ولهذا فكيف اشترى العرب العمانيون العبيد، أليس من قادة وشيوخ القبائل الأفريقية؟!

- لماذا احتلت عمان زنجبار؟

- لم يدخلها العمانيون من أجل نشر الإسلام كما يزعم البعض، فالدين الإسلامي توغل بالفعل في أعماق زنجبار منذ القرن الأول الهجري عن طريق التجارة والقوافل العربية والهندية المسلمة، فلم يكن هناك داعٍ للوجود العسكري، ولكن زنجبار وقعت تحت الحكم البرتغالي المتعصب وقتًا طويلًا، عانت زنجبار منه كثيراً، فكتب حاكم زنجبار الأفريقي للسلطان العماني لنجاته ونصرته ضد وحشية البرتغاليين.

- ولماذا استنجد حاكم أفريقيا بعمان الآسيوية العربية ولم يستجر بالبلاد الأفريقية الزنجية المجاورة؟

- لأنه على الرغم من الاحتلال الغشيم كانت الجالية العمانية، وهي الجالية الأكبر، ذات نفوذ قوي وفعال في زنجبار.

وقبل أن تسترسل رواية في سؤالها القادم واصلت ألماسة:

- بالله عليك، دعينا من هذا التاريخ الحزين الكئيب.

فاستجابت رواية وقد ولت بصرها للسماء:

- نعم التاريخ دائمًا حزين كان عريقًا أو مهيناً، فلا فرق، فالبكاء لا يعيد الأطلال على كل حال.

ثم سرحت كل منهن بخيالها حتى قالت ألماسة:

- علينا الآن للذهاب لعمي مرجان، صديق والدي رحمه الله، وهو رجل عربي أصيل تجاوز عمره ما يربو المئة عام، وسوف نقيم معه ببيته ببامبي، فبعد مقتل أسرتي أتى لامو وأخذني لأعيش معه حتى تركت زنجبار وسفرت لماردين.

في طريقهم لبامبي سألت رواية في توجس:

- هل أنت أيضًا على مذهب الإباضية؟

- نعم، لست وحدي فغالبية زنجبار على مذهب الإباضية، فالمركز الرئيس في عالمنا الحالي للإباضية هو سلطنة عمان، كما أنا سلطان عمان قديمًا كان يسمى إمام مسقط وحاكم زنجبار، ولكن يوجد بعض الشافعية والشيعة والسلفية في زنجبار أيضًا.

أحست ألماسة بأن رواية قد تغير لونها وكأنها قلقت من شيء لاختلاف مذاهبهم فتابعت ضاحكة:

- لا تقلقي فنحن كلنا مسلمون، وكل له حريته الخاصة في الاعتقاد والممارسة، فلسنا كفاراً ولا نعتبر غيرنا كافراَ.

- ففي أي شيء تختلف مذاهب أهل السنة والجماعة عن المذهب الإباضي؟

- نختلف في أمور لا علم لنا بها، ولن نعلم حقيقتها سوى يوم القيامة، يوم الحقيقة المطلقة، أئمة الإباضية يزعمون بأننا لن نرى الله يوم الساعة، وأئمة السنة يزعمون أننا سوف نراه، وكل له دليله الصحيح من الكتاب والسنة، فلماذا لا ننتظر ليوم الحساب حيث كلنا سنعرف الصواب، بدلًا من جدلنا واختصامنا؟ أئمة السنة يقولون: أن القرآن كتاب الله، منزل على رسوله، فهو كلام الرب، أما أئمة الإباضية يقولون: أن القرآن كتاب الله، منزل على رسوله، فهو مخلوق الرب، فكل شيء في الدنيا مخلوق والقرآن مخلوق من مخلوقات الله، فلا يرون أن لله كلمات ولسان مثل كلمات ولسان البشر حتى يقولون إنه كلام الله، وكل له أدلته الصحيحة من الكتاب والسنة، فكلاهما يؤمن بأنه من عند الله، فلماذا لا يستنظرون ليوم الآخرة حتى يعلموا بأنفسهم، هل الله يتكلم مثل البشر أما لا؟ الإباضية تأخذ بالبخاري ومسلم وباقي المساند الستة، كما تأخذ بمسند سابع وهو رئيس يعرف بمسند الربيع ابن حبيب وأغلبية حديثه موجود في الستة السنية، هل هذا ما ذكرته من اختلافات ثانوية يجعلنا نتناحر ونتنازع وننشئ لكل مذهب فرقة؟ يختلف الإباضي عن السني بأنه لا يرفع يده في تكبيرة الإحرام، لا يحرك يده في التشهد، أهذه الأمور تجعل الأمر يصل بنا لقتل وحرق بعضنا البعض كما حدث في غرداية حديثًا؟!

الإباضية تقول بجواز بل بوجوب الخروج على الإمام إن كان ظالمًا جائرًا، وعصيانه والتمرد عليه، كما أن الحكم لا يورث، ولا عصمة لسلطان ولا إمام، ولا وجوب الحكم والإمامة والخلافة في قريش، بل كل مسلم صالح من حقه تولية أمر المسلمين، أما أهل السنة والجماعة يقولون بوجوب إطاعة ولي الأمر، ظالم أو

مظلوم، وعدم الحياد عنه أو الخروج عليه، أعذريني صديقتي في قول، بكل حزن وأسف، أن هذا ما أدى إلى تمادي الحكام العرب في ظلمهم طوال هذه العقود والقرون، وهذا ما نرى نتيجته اليوم من عدم تقبل واستجابة شباب العرب لهذا الأمر الجائر مما أدى لخروجهم عن طاعة حكامهم الطواغي ومشايخهم المنافقين، بل وصل الأمر إلى إلحاد الكثير من الشباب بسبب زعزعة ثقتهم في أئمتهم، كلاب السلطة، الذين ينافقون ويطبلون للحكام، بينما المذهب الإباضي هو المذهب الإسلامي الثائر بحق، فلم ينتشر كما يرجح معظم المؤرخين إلا لتمرده على الحكام وأخذه بالشورى ورفضه لتوريث الحكم، وإن تسيس هو الآخر في العقود الأخيرة. أجبيني يا رواية بالله عليك، أاختلاف الأمور هذه بيننا تجعل بعض أصحاب اللحى الوهابية والسلفية تكفرنا وتستحل دماءنا؟

- المشكلة الحقيقية تكمن في سياسة الضجيج والخلاف، منذ الأزل وحتى اليوم غالبية الدعاة، وهم من نصبوا أنفسهم حماة الدين، يزرعون بداخل النفوس مبدأ الأنا، أي أنا الوحيد المؤمن ساكن الجنة الخالد، أم الآخر فالنار مأواه، وهذا ما جعل جميع المسلمين في كل فريق يؤمن بأنه وحده من أهل الحق، فأبطل الجميع العقول وأجهضوا القلوب، فلا العقل يفكر في الكون ولا القلب يستشعر بالروح، وهذا ما يتوافق مع الطبيعة العربية التي تميل للكسل والخمول، ولكن هذا على عكس ما فعلته في رحلتي للإسلام، ألا تعلمين أول طريق أخذني للإسلام؟

- كثيراً ما خشيت طرح هذا عليك.

- بلى الله الدنيا في الآونة الأخيرة بخناسين ماردين أحدهما يدعى بالأخ رشيد المغربي، والثانية الأخت أماني مصطفى، يزعمان بأنهما تنصرا، يقدمان برنامجًا دينيًا كنيسيًا على قناة الحياة المسيحية، لهم مئات الحلقات كلها تدور حول قذف النبي وأصحابه وتكذيب القرآن، مثلي مثل معظم من أسلم معي من الرفاق كنا نتابعه بشدة بنية تعلم كيفية الرد على المسلمين إذا تحاورنا معهم، ولكن مع الوقت وعدم قناعتنا بأقوالهما لما فيها من اضطراب واختلاج واختلاط وتضاد، مع بعض الفضول في معرفة الحقيقة ذاتها، أخذنا نقرأ عن الإسلام من مصادره ومن أقلام شهد لها بالاعتدال، فعرفنا طريق الحق فسلكناه، واكتشفنا الكذب والتدليس والتلفيق.

(١٦)

أقامت رواية مع ألماسة في الدار الأفريقية المطرزة بالعمارة العمانية للرجل العربي الكبرة، وإن كان العم مرجان لا يتكلم من العربية الكثير، جسده مع طوال العمر نحل ووهن، وعظمه رق، وشعره شب، أما ذاكرته فهي فولاذية ما زالت تطوي بين ثناياها الكثير، كان حنونًا عليها للغاية، وشفق لحالها كثيراً وترفق بأمرها، وعطف عليها بكل مادي يمتلكه، وكل معنوي يكنه، أخذ على نفسه إتقانها اللغة السواحلية الصحيحة، كما فتح لها المجال لتعلم لغات أخرى عرفها وأتقنها سابقًا من الجاليات الماضية التي انتشرت في أفريقيا بكثافة غير معقولة.

وذات صباح حيث تفترش رواية أمام البيت، تقرأ في الرواية، وتعلو ملامحها من حين لحين الدهشة والعجب كل العجب من هذه الحقائق التي تعلمها لأول مرة عن بلد وثورة وأناس وتاريخ لا ذكرى له، بينما العم مرجان يُصلح الأخشاب، وألماسة تمشط شعرها، بادرت ألماسة مخاطبة إياها:

- دعك من هذه الرواية، أنت في حوزتك شاهد عيان حقيقي على كل أحداث الثورة، لقد سجن أكثر من ١٥ عاماً إثر الانقلاب.

فاندهشت رواية من أن العم مرجان يعلم حقيقة الأحداث فخاطبته مرتبكة:

- أحقًا هذا أيها العم؟! فيا لسذاجتي فكيف لم يخطر ببالي أن أتجرع من بحورك لإشباع فضولي المعرفي.

فتوقف العم مرجان عن تخشيب ما بين يديه، وأفلت الفأس من بين أنامله وقال:

- هل حقًا تريدين معرفة الحقيقة؟
- بكل تأكيد.
- إذا فانهضي معي يا بنيتي.

دس العم ذراعه النحيف في ذراعها الأنحف، وأخذ يتعكز متكئًا عليها، ويتسند معها حتى توغل في الغابة المجاورة لمنزله وأشار بإصبعه سائلًا:

- أترين هذه الخنادق؟
- إنها عميقة سوداء مفزعة.
- هاهنا يا بنيتي في يوم الأحد ١٢ يناير من عام ١٩٦٤م اشتعلت النيران بين أجساد ثلاثة عشر ألف مسلم، أغلبيتهم من أصل عربي، والبقية ممن ساند العرب من الشيرازيين والأفارقة والهنود، فليس هتلر وحده من أشعل محرقة، وإن شكك العالم أجمع في محرقة هتلر، فلن يستطيع نفر تكذيب أو نفي محرقتنا، من أجل هولوكوست اليهود أشعلوا الدنيا واحتلوا العالم وأقاموا الحروب واغتصبوا الأراضي والدور، أما هولوكوست العرب فزوبعة انقضت.

- ولكن كيف ولماذا حدث هذا يا عم؟

- سطر في التاريخ أنه ادعى كرومي ومن معه من حزب الأمة، وحزب الأفرو- شيراز المعادين بشراسة للعرب المسلمين بأن في نية العرب مهاجمة وقتل كل الأفارقة يوم الاثنين ١٣ يناير، فحشد الناس ظاهرياً على نية المظاهرات والاحتجاج أمام قصر السلطان في ذاك اليوم الشؤم، يوم الأحد ١٢ يناير، وفي الجانب الآخر فقد استأجر القس يوليوس نيريري رئيس منطقة تنجانيقا آنذاك مرتزقة من الكونغو لمساعدة أهل بامبي في قتل العرب وإنهاء وجودهم، فقُتل من قُتل، وسجن من سجن، أما السلطان فقد لجأ لسفينة بريطانية حملته إلى إنجلترا، وكان قد استلم سلطته في ١٠ ديسمبر عام ١٩٦٣م.

- هذا ما سطر في التاريخ، أما الحقيقة كما عشتها أنت؟

- الحقيقة التي يعتم عليها كما عتم من قبل على الفيلم الإيطالي (أفريقيا الدم والبأس) الذي صور الأحداث بكل دقة، أن هذه الثورة من أعجب ثورات التاريخ وأبشعها وأعنفها في أفريقيا فلأول مرة تقام ثورة بلا أبنائها، فلم يعلم كرومي ولا غيره من أعضاء حزب الأمة وحزب الأفرو- شيراز بحقيقة الانقلاب إلا في الصباح الباكر، عندما أيقظهم رجال كلب التاريخ جون أوكيليو اليوغندي السفاح الذي كان يرى في نفسه مسيحيَا مخلصًا للأفارقة والمسيحيين كما كان يزعم من خلال روايته لرسائل الرب له في المنام وهديه باستخدام آيات الإنجيل وتفسير الأحلام، والذي اشتهر بشخير التاريخ، حيث في أيام تشرده الأولى في كينيا أحسن إليه رجل عربي بمأكل وملبس ومبيت ولكنه كان شخيراً مزعجًا فنهره العربي عن

هذا وطلب منه عدم الشخير قائلًا له: أيها العبد، من ليلتها وهو يبيت النية للقضاء على العرب، فكيف لعربي أن يجرؤ على منعه من الشخير أليس من حق المشخراتي أن يشخر بأريحية؟! ومن هذه النفسية عدم السوية بدأت مسيرته الوحشية القذرة العنصرية، ويرجح أنه كان يعمل وقتئذ في شرطة زنجبار عندما دبر الانقلاب، ولم يكن معه سوى ٣١ جنديًا زنجباريًا فقط، فبأي حق تسمى هذه الثورة ثورة! كما أنه هذا المخلص صاحب الانقلاب يوغندي الأصل، أم السلطان المنقلب عليه هو زنجباري أكثر منه ولد وعاش في زنجبار كما ولد من قبله وترعرع أبوه وجده.

تعجبت رواية كثيراً من تغفيل التاريخ لهذه الجزئية الهامة لفهم طبيعة قيام الثورة المزعومة وقالت بلهفة:

- وبعد؟

- وقد حدث ما حدث، فاستغل كرومي الانقلاب، ووافق على قيادة مجلس الثورة الذي أعلنه جون أوكيلو والذي منح نفسه لقب الفيلد مارشال جون أوكيليو بالرغم من عدم تكوين جيش زنجباري حتى ذاك الحين! وبعد ستة أشهر من انقلابه نفاه مجلس الثورة خارج البلاد وأعتبر مهاجر غير شرعي، غير مرغوب فيه، واصطاد كبار المعارضين والسياسيين في المياه العكرة لانقلاب أوكيليو، بينما كان زعيم الانقلاب يموت جوعًا ومرضًا لا يجد من يداويه أو حتى يطعمه فصار متسولًا في شوارع وعواصم أفريقيا السوداء يبحث عن خبزة يسد بها رمقه بينما السلطات

تبحث له عن ورقة ثبوت، وأصبح المسيح المخلص المزعوم أكذوبة أخرى كغيرها من الأكذوبات المسيحية والمهدية والصهيونية التي دمرت العالم من أقصاه لأقصاه.

- وماذا عن كرومي؟

- بعد أن اقتطعت صورة أوكيلو من الصحف وامحى اسمه من التاريخ الزنجباري، تزعم كرومي الوطن واتحد مع منطقة تنجانيقا برئاسة نيريري لتكوين دولة واحدة، تنزانيا، دار السلام العاصمة، نيريري الرئيس، نائبه في زنجبار كرومي الذي شرع في الاستبداد كغيره من زعماء عصره فأصبح طاغية من أبشع الطواغي في التاريخ اتضح للعيان خاصة بعد صدور القانون التعسفي والذي يفيد بتزويج أي امرأة عربية أو هندية أو فارسية لأي رجل أفريقي يرغبها رغمًا عن أنفها، ومثل هذه السياسات المستبدة أدت لاغتياله في عام ١٩٧٢.

- ولكن ما الذي يدفع برائد تحرري كنيريري أو حتى كرومي لموافقة هذا الأمر الشنيع، والاعتراف بهذا الانقلاب الدموي؟

- لأن النتائج التي توصل إليها أوكيلو وإن كانت بطرق غير شرعية بالمرة إلا أنه نجح في النهاية في خلع السلطان العربي وحكومة الحزب الوطني الحاكم.

- ولكني ما علمته أن آدم شافي كاتب الرواية، وهو كان عضو مؤسس في حزب الأمة، كما أنه شارك في هذا الانقلاب، أنه قد تلقى هو وزملاؤه تدريباتهم العسكرية في مصر، ولكن لم أفهم ماذا يقصد؟

- إنها الحقيقة المريرة يا بنيتي التي يندى لها الجبين، ويا لها من واقع أليم، نحاول جاهدين نسيانه وطيه في ذاكرة التاريخ، ولكن تأبى القلوب والعقول، فهؤلاء

العرب أصلًا، الأفارقة وطنًا، المسلمون دينًا، ذبحوا بأسلحة عربية أمدتها الجزائر، وبفضل تدريبات وخبرات عسكرية متفوقة وفائقة في مصر وكوبا، وبتدريبات من الكونغو لبعض أهل بامبي من الأفارقة، وكل طبق خطة أوكيليو.

- ولكن لماذا فعل عبد الناصر هذا؟

- ما سمعناه ساعتئذ أنه كان يريد تحرير زنجبار من حكم العرب السلطاني كما كان يتطلع في اليمن، ولكن يا بنيتي أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فالطمع والجشع والرغبة قد سيطرت على الأفارقة فساقونا للمحرقة والسجون كالمواشي والأنعام، كما أن أوكيلو كانت له خطته الخاصة التي نفذها الجميع.

- وهل هذا يبرر له أو للجزائر فعلتهم المشينة؟

- لم ولن يبرر، فالتاريخ هو التاريخ، وإن سرق أو حرف بعض الوقت، دائمًا ستظل الحقيقة ثائرة، تأبى الانكماش والانطواء، قد تخمل حينا من الوقت، ولكن حينما تدق اللحظة الحاسمة، ستخرج للعامة رغم أنف الجميع، ولكن للحقيقة، صرح بعض الباحثين مؤخراَ بأن السفينة "ابن خلدون" التي كانت تنقل السلاح من الجزائر كانت في طريقها لموزمبيق دولة الجوار وتم الاستيلاء عليها من قبل أوكيليو وجماعته والله أعلم يا بنيتي.

(١٧)

أقامت رواية في صحبة ألماسة في بيت العم مرجان ما يقرب من عام كاملة، تعرفت عن قرب العادات والتقاليد الأفريقية، كما أنها تمكنت من اللغة السواحلية وآدابها، كما أتقنت أيضًا اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها معظم السكان وإن كانت الإنجليزية براء مما ينطقونه، وتعلمت بعض الشيء من اللغة الألمانية، والكثير من الإيطالية والإسبانية والفرنسية والبرتغالية، التي يتقنها العم مرجان باحترافية ومهارة شديدتين كمعظم أبناء جيله، وهذا بفضل البعثات الأوربية التبشيرية الكثيفة التي كانت تعمل على تنصير المسلمين بعد الانقلاب، والتي باءت جميع محولاتهم مع العم مرجان بالفشل، فلم ينتج عنها سوى تعلمه للكثير من اللغات الأجنبية، واندثار العربية عنده.

ذات ليلة مقمرة، بينما كان يجلس العم مرجان بين أكوام كتبه، هبت عليه رواية من الخلف، فقبلت رأسه ويديه، ثم أخذت بدورها المعتاد تعبث في كتبه فقرأت عنوانًا لمخطوط متهالك بالألمانية ترجمته بالعربية بصوت متوجس ولكنه مرتفع بعض الشيء:

- عربية يوميات أميرية.

تلعثمت قليلًا كأي مترجم يحاول ضبط ترجمته فتوصلت إلى:

- أميرة عربية، يوميات ورحلات.

فانتشله العم سريعًا من بين يديها بعنف صائحًا بها:

- لا، هذا الكتاب لا يليق لك قرأته.

فتعجبت كل العجب من رد الفعل المدهش، ولم تدرك لماذا العم قام بمثل هذه الفعلة الغريبة على سلوكياته، لم تنبس ببنت شفة، وقامت في سكون، وصعدت غرفتها في هدوء، فخلدت للنوم، ولم تنتظر ألماسة لحين عودتها من عملها، بالرغم من أن اليوم موعد السهرة الأسبوعية المعتادة.

حينما استيقظت في الصباح استصحبتها ألماسة طبقًا لخطتهم الأسبوعية، كانوا على اتفاق لزيارة قصر المونتي التاريخي الذي أنشه السلطان سعيد عندما وفد لزنجبار وأقام فيه، وبينما هن جالسات في بهو القصر يتطلعن بحسرة وانكسار على الأطلال، ركزت ألماسة بعينها على إحدى الزوايا وقالت:

- عجبت لك يا ربي، أمن بك قلبي كل الإيمان، ولكن عجز عقلي عن فهم قدرتك، وكيفية سير قدرك، وأين تكمن حكمة قضائك.

فقالت رواية مستفهمة:

- لمَ تقولين هكذا؟

- لا عليك، ولكني أرى أنك مهمومة محزونة بعض الشيء، فما بك يا رفيقة دربي؟

- لقد حدث بالأمس شيء عجيب يا أختاه، فلأول مرة العم مرجان يغضب هكذا لاطلاعي على كتبه، فدائمًا ما يدعونني ويحثني على قراءة الكتب، ولكن عندما أخذت ذاك الكتاب الألماني بالأمس تغيرت ملامحه وأبعده عني في نفور.

- وما هذا الكتاب؟

- أميرة عربية، رحلات وجولات.

- سبحانك يا الله! لقد بلغ العجب أقصاه.

- ماذا هناك؟ لا أفهم شيء!

- ذاك الكتاب هو مذكرات تلك الأميرة التي سكنت هذا القصر الذي نحن فيه الآن منذ قرن من الزمان، وقد كتبته تصف فيه للقارئ الأوربي كيف يكون المجتمع العربي والأفريقي والإسلامي، كما أنها تدافع بقوة من خلاله عن معاملة العرب والمسلمين للنساء محاولة لتغيير النمط التقليدي الذي يقبع في عقل الأوربيين نحو العرب والمسلمين.

- وهل هذا يدعو لغضب العم مرجان؟ ويتطلب تعجبك لهذه الدرجة؟

- الأميرة العمانية سالمة بنت سعيد أحبت فتًى ألمانيًا.

- نعم! وهل الحب معضلة أيتها المستفزة؟

- الحب ليس معضلة ولا مشكل على الإطلاق، أعتقد أن العم مرجان لم يقرأ هذا الكتاب لأنه مخطوط متشابك، وإنما علمه بأمر الأميرة جعل عقله يكون فكرة مسبقة عنها، ولهذا قد خشي عليك قراءته.

- ما أمر هذه الأميرة حتى يخشى عليّ، وأنت تتعجبين؟

فرفعت ألماسة نظرها للسماء مخاطبة بدهشة:

- سبحانك ربي! قديمًا خرجت من هنا، ومن هذا القصر، مسلمة تنصرت لتتحامي في أوساط المسيحيين، واليوم تأتي لهنا مسيحية أسلمت لتتحامى فينا نحن المسلمين.

فأصيبت رواية بالذهول والعجب بلغ أقصاه، بينما تطرقت ألماسة برأسها قليلًا ثم قالت:

- لا تنزعجي من العم مرجان فهو قد خشي عليك من صدمة تنصرها، قد تكون ندمت ندمًا شديدًا على فعلتها، أو فخرت بها، في الأمر شكوك كثيرة تحتاج لبحوث حقيقية.

- ولكن ما الذي أدى بها لهذا الأمر؟

- ما ترويه هي أنه نتيجة الصراعات السياسية داخل العائلة السلطانية، فكان للأب السيد سعيد من الجواري والإماء خمس وسبعون غير زوجته الشرعية

الوحيدة عزة بنت سيف، ولهذا خلف وراءه ستًا وثلاثين ابنًا، من الصعب اتفاق كل هؤلاء وتجمعهم حول سلطان واحد، ولهذا انقسموا للعديد من المجموعات كل لها مؤامرتها، تورطت هي في إحدى تلك المؤامرات والتي أدت بها في النهاية للهلاك، فأحبت فتى ألماني كان يتاجر في زنجبار وسبقته لميناء عدن لتنتظره هناك ليسافروا معًا لألمانيا، وأثناء إقامتها في عدن تنصرت على يد أسرة إسبانية كانت تقيم معها، ففي ذلك الوقت كان التبشير المسيحي في أفريقيا يعمل بكل جهد، حيث أنه يوفر المال والمسكن والأمان، فالتبشير المسيحي في أفريقيا له من الآثار التي ما زالت شاهدة عليه ليومنا هذا، ولكن أمر هروبها وسببه الحقيقي مجهول للآن لأنها لم تذكره أبدًا في أي من كتبها التي خلفتها والتي تعرف في المكتبات الأوربية بالإرث الأدبي السالمي.

بعد برهة قصيرة سادها الصمت الحزين والدهشة الكئيبة إثر المفاجأة ارتجلت ألماسة بحرص شديد في محاولة للقراءة من الذاكرة:

- أحفظ الكثير من أقوالها لأنها تهون عليّ في غربتي، أتذكر منها ما قالته في يومياتها المنشورة وهي في طريقها لزيارة زنجبار عندما نزلت بالإسكندرية: "وما أن نزلت الإسكندرية، وأصبحت بين مساجدها ونخيلها، حتى طغى عليّ إحساس عميق بالشوق والحنين للأهل والوطن العزيز، شعور لا يعرفه إلا كل من تغرب مثلي عن بلاده سنين عديدة، فهو شوق لا يشعر به إلا من عاش الظروف المنحوسة القاسية التي عانيتها".

صمتت ألماسة قليلًا حتى تستوعب رواية قولها ثم أردفت:

- أما حقيقة موقفها من نفسها يتضح فيما قالته في زيارتها السياحية لمسجد محمد علي بالقلعة.

غادرت الفتاتين القصر في طريقهم للعودة لمنزل العم، والمفاجأة ما زالت تسيطر على رواية، وآثارها تتملك جميع جوارحها، حتى وصلتا البيت، فوجدتا العم جالس في انتظارهن، فاقتربت رواية منه وقد دمعت عيناها قليلًا:

- يا عم والله إنني ما دخلت الإسلام إلا أنني اقتنعت بالواحد الأحد وأمنت به وبرسوله خاتم الأنبياء، كما أنني أمنت بأن عيسى نبي الله ابن مريم الصديقة خلقه الله من طين كما خلق آدم ونفخ فيه من روحه، فلا القلب حزن ولا العين دمعت خوفًا من أنني قد ضللت الطريق، ولكن ما حز في نفسي وأحرق صدري ومزق قلبي أنك قد ظننت بضعف إيماني، فخشيت عليّ الفتنة من الحكاية العجيبة لتلك الأميرة الأعجب، فجل جلاله أقرب لمن يبحث عنه بالعقل، أكثر ممن يؤمن به بالفطرة.

رق قلب العم وفاضت عيناه بالدمع، فأخذها بين ذراعيه وقبل رأسها، وأثر السكوت، فلا قول أفضل من قولها، ثم سار باتجاه المكتبة وأتى بالكتاب الذي سبق لرواية أن رأته ومعه ما يقرب من عشرين مخطوط غيره وقال:

- هذه لك، ابحثيها وحققيها وانشري ما فيها بصدق وأمانة وشرف، فلقد حرفت كثيراً، فحياتها درس سياسي وثقافي وديني واجتماعي العالم العربي والإسلامي في حاجة له.

أخذت مجمع الأميرة الصغير من العم وكان يضم بعض إرثها، وبعد أن أمنت مخبأه، ذهبت للاستحمام، فبعد هذا اليوم الشاق نفسيًا أكثر منه بدنيًا، لا أفضل من الماء البارد ينساب على الرأس فيمحي آثار الأفكار المتداخلة التي تتزاحم بين خلايا العقل وثناياه، فظلت تحت الماء نحو ساعة كاملة تُصبن جسدها بالصابونة الطبيعية عشوائية حتى كادت أن تُبرى، فالذكريات أخذتها بعيدًا وكأنها تعمدت جميعها أن تزاحمها آنذاك، فأخذها الحنين للأم تارة، وللحبيب تارة، وللرفقاء تارة، فكيف حال الأم وهي لا تعرف عن بنتها شيء؟ وكيف حال أنس وقصة وجميع الرفقاء بعد أن زج بهم ظلمًا وعدونًا؟ ومن خطط لها لكي يُنفرد بها في تركيا، ولماذا؟ وأسئلة كثيرة تزاحمت في عقلها، ولم تستيقظ من غفلتها إلا عندما أحست بشيء غريب يلامس جسدها، فانتبهت ونظرت للصابونة التي بيدها فوجدتها على وشك الانتهاء، ويبرز من طرفيها جسم غريب حاد كأنه دس بباطنها، فقامت بسحبه بشدة حتى خرج بين يديها فأخذت تعمل على تصفحه، فلاحظت بداخله شيء أبيض وكأنه ورقة، فمزقت هذا الغلاف البلاستيكي وأخرجتها، ففتحتها وهي في قمة القلق والاستغراب، فماذا سيكون هذا؟ وقرأت ما سطر بالعربية:

(إن كان من يقرأ هذه الورقة هي رواية، إذن فهذه الرسالة لك، إذا أردت معرفة الحقيقة فابحثي حيث تقيمين عن خمسة حكماء تجاوزت أعمارهم مئات الأعوام، وأخذيها من باطن أوسطهم عمرًا، فعامنا هذا هو عامه الواحد بعد الخمسمائة).

فانتابتها قشعريرة زلزلت جسدها، وجمدت دمائها، فما هذا الشيء الغريب، تشعر وكأنها تشاهد فيلم عربي، لبست لباسها، وخرجت مسرعة تحاول أن تسيطر على بعض أعصابها، فالخوف لمس أبعد نقطة بداخلها، فهرولت باتجاه ألماسة ومدت لها بتلك الورقة، فقالت الأخيرة بفزع شديد:

- هذه القصاصة تعني أننا في خطر شديد، لابد أن أعلم القادة بالأمر.

فأجابت رواية بثغر مفتوح كنتيجة طبيعية لرد فعل ألماسة:

- أي خطر تقصدين؟ ومن هم القادة هؤلاء؟
- رواية أنت تثقي بي كثيرًا، فلا تقلقي فأنا معك لحمايتك.
- يا إلهي، من أنت؟ ومن أي شيء تبتغين حمايتي؟
- لا وقت للحديث الآن، قليلًا من الوقت وسوف تفهمين.

(١٨)

في حينها أمسكت ألماسة بيد رواية وهرولت بها لخارج البيت إلى أن بلغت منزل متطرف يبعد على الأقل ٣٠٠ متر، فدفعت الباب بقدميها ودخلت منزعجة واندفعت قلقة نحو قائد المطارح المنبثقة، وهو المندوب الميداني المسئول عن جزئيات مكان رواية، وما أن رآها حتى اضطرب وصاح بها:

- أجننت، ما هذا الذي تفعلينه؟ كيف تحضرينها إلى هنا؟
- هناك شيء غريب يحدث سيادة الهيثم، أين الصاقر أو الهيثم البكر؟
- الصاقر ليس هنا، أما الهيثم البكر بالداخل.
- اهتم بها إذن لحين أعود.

تركتها بجانبه حائرة مرتبكة لا تعي شيء مما يدور حولها، وقدميها لا تقوى على حملها، فقلبها أهون من أنه يتحمل تلك المفاجآت المتعاقبة كالسهام، ومضت نصف ساعة لم يتعطل خيالها عن بناء الأنسجة الجامحة، فعقلها ما ترك شيء إلا وقد تنبأ به، فماذا يخبئ القدر، خرجت ألماسة وقد تجلى على معالمها السكينة والهدوء على عكس حالتها أثناء الدخول، ونادت في رواية بأنه في غضون دقائق قليلة سوف تحضر إليها سيادة الهيثم البكر، القائد العام، فتطلعت رواية عبر الممر الممتد أمامها لترى الشخص المنتظر خروجه، فوجدت آخر من تخيلت رؤيتهن، إنها

إيمان، نعم إيمان جارتها أو هكذا كانت تظنها، فدارت الدنيا من حولها وسقطت مغشية عليها.

فاقت رواية من غيبوبتها بعد ثلاث دقائق، فوجدت إيمان وقائد المطارح وألماسة يلتفون حولها، فجلست لتسند ظهرها بمشقة، وحاولت بكل طاقتها عصر مخيلتها لتذكر الرؤية التي اجتاحتها في الغيبوبة، فما تذكرته بصعوبة بالغة أنها رأت أنسيموس كان يرتدي زيًا أسود ويسير في طريق طويل، وبعد فترة قصيرة، أبدل زيه بأبيض وسار في اتجاه بستان جميل للغاية، ثم استدار لشماله وأبدله بآخر أحمر وسار في ممر آخر نهايته ثغرة كبيرة تتوهج نيران وهو يقترب منها، قاطعتها إيمان حينما وضعت كفيها على خديها وقالت:

- رواية لا تقلقيني عليك، فأنا لست عدوك.

رمقتها بنظرة ثم صرفت عينيها عنها فتابعت علا:

- بالفعل لقد كذبت عليك، ولكن أقسم بالله العلي العظيم أنني أعمل في خدمتك.

- لا تقسمي بالله كذبًا، كفى يا إيمان، أو يا حضرة الهيثم البكر، ألم يبعثوا بك لقتلي، فهيا اقتليني فأنا بين يديك.

ثم التفت ناحية ألماسة لائمة:

- آخر ما كنت أتوقعه أنك تشتركين مع هؤلاء في مؤامرتهم الدنيئة هذه، لقد اعتبرتك أختي الصغيرة التي حرمت منها، ولكن اعترف وأقر بأنكم خططتم جيدًا.

- رواية، افهمي نحن في خطر الآن، وعلينا الرحيل في أقرب وقت.

- لا أريد منكم شيئًا، فأنا فريستكم فافعلوا بي ما تشاؤون، كما فعلتم بأنس وقصة وبقية رفاقي من قبل.

- رواية استمعي لي جيدًا بالله عليك، أنا وألماسة لسنا ضدك ولسنا تبعًا لمن اعتقل رفاقك في مصر، وإنما نحن نعمل لحمايتك والمحافظة عليك.

- لماذا تريدون حمايتي إن كنتم صادقين؟

- في الحقيقة نريد حمايتك ليس من أجلك أنت.

- فمن أجل من إذن؟

- من أجل أنسيموس.

- أنسيموس! وهل لي أن أصدق هذا الهراء؟ فهل أنتم شرفاء حقًا حتى تحاولون بكل هذا الجهد والتخطيط الاستراتيجي المتكامل الحفاظ على حياة إنسانة من أجل شهيد مات أثناء خدمته؟

في هذه اللحظة ومع هذه الكلمات نظر الثلاثي لبعضهم البعض نظرات خاصة ثاقبة ليست مفهومة ولا واضحة، استغرقت دقيقة كاملة مرت على رواية وكأنها

الدهور بعينها تؤدبها على قولها، أمسكت علا لسانها، بينما لم تقوَ ألماسة على البوح بشيء، فلملم الهيثم قائد المطارح الذي لم تعرفه بعد شجاعته وقال دفعة واحدة:

- أنسيموس لم يمت!

لقد قالها أيضًا في نفس واحد، وفي دفعة واحدة، كما قالها يونان من قبل، وإن كانت كلماته نقيضًا لقول يونان، ففي كل الأحوال طاقتها أقل من تحمل هذه الأحداث، مبهجة كانت أم محزنة، استقبلت رواية هذه الكلمات بشعورين متغايرين، فإن كان الخبر صحيح فيا لها من غبطة لم تعش مثلها من قبل وهذا ما تتمناه، وإن كان هذيان هراء فإن هذا يعني أنه ينصب لها مصيدة جديدة، فحاولت أن تبدو أكثر ثقة وإن كانت ملامحها توحي بغير ذلك وقالت:

- وما الذي يجعلني أصدقك؟ وإن كان بالفعل أنسيموس.

لم تستطع إتمام الجملة، غلبتها الدموع، ولا تعلم أي دموع تكون، فتابعت بمشقة:

- إن كان أنسيموس هكذا حسب قولك، فأين يكون الآن؟

فقالت علا بأسف بالغ:

- اعذريني، فلا أستطيع أن أفضي لك بشيء مثل هذا، ولكن يجب عليك الثقة بنا.

- إن لم تكونوا أنتم من قبض على رفاقي في مصر، فمن المتسبب إذن في هذه المكيدة المخزية؟

- إنه جهاز النسور.

- ومن الذي أعلم الجهاز بأمرنا هذا، ألستم أنتم؟

- بكل تأكيد لا، فنحن كالقبة لم نعلم بأمركم هذا إلا من خلال الجهاز الذي علم عن طريق اللجان الإلكترونية لمراقبة مشايخ الأزهر والدعاة، من خلال الميل الذي أرسله أنس لأحد مشايخ الأزهر يحكي فيه عنكم وعن نيتكم في إشهار إسلامكم.

ثم تابعت بجدية:

- ليس لدي تعليمات بالشرح لك أكثر من هذا، لكن يجب عليك الخلود للنوم، فغدًا يوم هام لك للغاية.

وفي غضون ساعة واحدة كانت أوامر الطوارئ التي أصدرتها الهيثم البكر لمجموعات الهياثم الكبرى والصغرى والوسطى وعش الصقور وجزئيات المكان وكليات الزمان نفذت وطبقت برمتها لتأمين زنجبار برًا وبحرًا وجوًا بالتنسيق الحكومي والفردي مع مكاتب تنزانيا المستترة.

***

في السادسة صباحًا أطرقت الهيثم البكر باب الغرفة التي مكثت فيها رواية وألماسة ليلة أمس، فوجدت رواية تفترش سجادة الصلاة بينما تخفي وجهها بين كفيها متضرعة إلى الله بالدعاء بصوت جهور باكي، فدنت منها واحتضنتها من الخلف، ثم قالت بنبرة حنونة:

- يعلم الله كم أشتاق لك يا صغيرتي.

- وأنا أشتاق لك أكثر، فعلي الرغم من تحفظي عليك لأفعالك الغريبة والمريبة، لديّ بعض الاطمئنان أيضًا نحوك.

- عن قريب سوف تعلمين الحقيقة كاملة ليطمئن قلبك.

- كيف حال أمي، أهي بخير؟ على قيد الحياة؟

- لا تقلقي عليها فما زالت حية تُرزق، لقد استطعنا من خلال التكنولوجيا الحديثة أن نصطنع نبرة صوتك، فألفنا لها الحكايات، واختلقنا أموراً ما أنزل الله بها من سلطان حتى اقتنعت، ولكن كما تعلمي يا عزيزتي قلب الأم دليلها الصادق، فمن العسير الكذب عليها كلية.

- وأنسيموس، أهو حي حقًا؟

- المهندس ليس حيًا فقط، وإنما هو في أحسن حال، فلعلكما تلتقيان قريبًا، هيا بنا الآن، فلدينا لقاء هام.

أبحر الثلاثة في اتجاههم للموقع الآمن الذي أعدته مجموعة المثلث العشري، جزيرة السجناء (بريزون أيلاند)، إحدى جزر زنجبار الصغيرة وأعجبها وأجملها، كان في استقبالهم شخص ما، جسده قوي فارع بلا ترهل ولا استرخاء، ملامحه هادئة ساكنة، الضوء يخبو من عينيه، فبمجرد الاقتراب منه، تقدمت الهيثم البكر بالمصافحة:

- حمدًا لله على سلامتك.
- الله يسلمك يا علا.

ثم تقدمت ألماسة وقد تبسمت قليلًا:

- اشتقنا لك أيها الصاقر، ألا أراك إلا في المصائب فقط.
- وأنا أظن أنك تفتعلين المصائب حتى تقابليني.

وضحكوا جميعًا ما عدا رواية التي لم يعد لديها ما يضحكها، فلما رآها الصاقر هكذا ألقى لكل منهما نظرة حملت مبتغاه، فاستدركوا مقصده، فانسحب الجميع من موضعهم سوى رواية التي أخذها في جولة قصيرة حول الشاطئ إلى أن استقر بها بعيدًا عن السياح الإيطاليين المكتظين حولهم يصيحون ويتضاحكون، توقف فجأة فرمها بسهم ثاقب سقط مباشرة في قرتها، فارتبكت، فأخذ يتجول بين أعضائها في محاولة منه لقراءة لغة جسدها، ثم وجه رأسه بعيدًا في اتجاه البحر، وقال:

- أعلم أن لديك الكثير من الأسئلة الحائرة، تبحثين لها عن أجوبة، وأنا هنا مجيبك، فلك ما تشائين.

- من أنتم وماذا تريدون؟

- نحن نعمل لخدمتك، ولخدمة أنسيموس.

- أين هو؟

- هو حي يتجول في بلاد الله الفسيحة، اصبري فلكل وقت أذانه.

- هل كل من يسلم أو يتنصر في بلدنا تبذلوا قصارى جهدكم لحمياته؟

- بالطبع لا.

- فلمَ أنا وأنسيموس؟

- لأن لدينا مصلحة قوية، أقوى من أي شيء، منفعة من أجل مصرنا، وللعرب جميعًا.

- من أجل مصر والعرب أم من أجل حكامهم وقيادتهم؟

- القيادات والحكام ترحل عاجلًا أم آجلًا، أما الدول والبلدان فباقية خالدة، وما نفعله هذا من أجل كل الأديان، ومن أجل الإنسانية بأسرها.

- وما الذي يدفعني لتصديقك؟

- لا شيء.

- أين أنس وقصة وبقية الرفاق؟

- لا تقلقي عليهم، فنحن نتابع أمرهم بكل جدية.

- ما الذي دفعكم لإخباري بالحقيقة في هذا التوقيت؟

- هذه الورقة التي عثرتِ عليها، ليست من جانبنا، وهذا يعني أن هناك طرفًا آخر يشاركنا الأمر، وهذه كارثة كانت غير واردة ولا محتملة، ولم نستطع أن نستنتج الرسالة التي يبتغي إيصالها، فمن أين حصلتِ على هذه الصابونة؟

- جلبت العديد من هذا الصابون حينما كنت بماردين.

- ألا تتذكرين كيف حصلتِ على هذه الصابونة بعينها؟

- اعذرني، فلا أتذكر أي شيء على الإطلاق بخصوص هذه الصابونة.

- إذ تذكرتِ أي تفصيلة كبيرة كانت أو صغيرة، فأرجو أنك تخبريني على الفور.

- لماذا ألماسة بالتحديد التي بعثتها إليّ في ماردين بالرغم من صغر سنها، ولماذا العم مرجان هنا في زنجبار بالرغم من كبر سنه، ولماذا إيمان من قبل ذلك؟

- أنت إنسانة مثقفة للغاية، تحولك من دين لآخر في حد ذاته لا بد أن ينبع عن قراءة كثيفة وفكر عميق، هذا بالإضافة لكل الدلالات، أنك فضولية ودائمًا تسألين في كل شيء، فلم نجد أفضل من ألماسة والعم مرجان للتعامل معك لثقافتهما وثقتنا بهما.

- وكيف عرفتم بهذه التفاصيل الشخصية للغاية؟

- لأنك تكتفين بالدبلة فقط التي أهداها لك أنسيموس، ولا تلبسي خواتم أخرى.

- نعم! وما دخل الخواتم في هذا الأمر؟

- الأنثى التي ترفض لبس الخواتم وتكتفي بالدبلة فقط هي في الغالب شخصية نشطة غير نمطية، تبغض المظاهر والنفاق، تحب التجديد، تميل للانعزال قليلًا وإن كانت اجتماعية، تُتهم في أحيان كثيرة بأنها مغرورة، ولكنها متواضعة جدًا، تميل لقراءة الكتب أو المجلات أو سماع فيلم وثائقي على حفلة زفاف أو خطوبة أو أي حفلة صاخبة تتطلب المظاهر.

- لا إله إلا الله، حتى الخواتم وحياتنا الشخصية تدخلتم فيها، والتي تلبس الخواتم، ما صفاتها بما أنكم خبراء لهذا الحد؟

- تختلف التي تلبس الخواتم الفضة عن تلك التي تلبس الذهب عن تلك التي تحب الماس والأحجار الكريمة.

- القبة، بصقاريها وصقورها وهياثمها، تركت تأمين البلد وأضحت جواهري؟

- بعيدًا عن السخرية، هذا علم قائم بذاته لمعرفة الناس وتحديد شخصياتهم، فالتي تحب الذهب هي شخصية حادة، مشاعرها عفوية، حريصة على إبهار العيون، غيورة من بنات جنسها، والتي تحب الفضة هي تتمتع بهدوء وصفاء النفس وتهتم صاحبتها بالنواحي الفكرية وتنتابها مشاعر عدم الثقة أحيانا ولكن لا تتطول معها وتعود لحالتها الطبيعة في وقت قصير.

- والتي تحب الألماس والأحجار الكريمة؟

- إذا كان الخاتم رفيع أو متوسط الحجم متناسق مع حجم الأصبع وفي مكانه المناسب فهي شخصية خجولة متحفظة ذكية كتومة الأسرار، وإذا كان الخاتم كبير الحجم أم غريب الشكل فهي سيدة متناقضة متقلبة غير سوية قلقة تميل للمعاناة العاطفية.

- ولكنني كنت في الثانوية العامة ألبس خاتمًا ذهبيًا، وفي الجامعة على ما أتذكر في السنة الأولى كنت ألبس آخر فضيًا؟

- هذا صحيح، في حوزتنا صور لك وأنت تتزيني بهم، ولكن عندما كنت في الثانوية كنت تلبسينه في الخنصر، وهذا دليل على أنك كنتي تتحملين متاعبك ومتاعب غيرك باستسلام، وخصوصًا فيما يتعلق بالأسرة، برغم اعتقادك بأنك شخصية متميزة عن غيرك وتتمتعين بقدرات خاصة وهائلة لا أحد يملكها ولا يتفهمها.

- هذا صحيح بالفعل، ولكن ما تفسيرك لوضعي في أولى جامعة لخاتم فضي في السبابة؟

- يدل على سماحتك وتواضعك وسعة صدرك لدرجة تفريطك في حقوقك حتى لا تغضب الآخرين مهما كان من الأمر.

- هذا صحيح، لقد كنت هكذا بالفعل.

- لأنك كنت في حاجة للشعور بالأمان والثقة بالنفس، ولهذا عندما دخل أنسيموس حياتك واستقرت شخصيتك نزعتيه وفضلتِ عليه الدبلة فقط، وهذا ما

يفسر ظاهرة عرض الزوجة المصرية على زوجها بيع مصوغاتها وشبكتها عند تعثره في أي أزمة مالية، فالكثير من العلماء الاجتماعين والباحثين يتوقفون في فهم هذا اللغز "الجدعنة"، فالزوجة لا تفعل هذا إلا أنها أحبت زوجها وشعرت معه بالراحة والأمان والاستقرار فلا حاجة لدفعات نفسية خارجية، مثل الذهب أو غيره.

- وماذا عن باقي الأصابع؟

- لبس الإبهام واكتسائه بالخواتم هو دليل على الثقة الزائدة والغرور، والخنصر عن الرقة والشفافية ولكن يعيبها أنها عنيدة لا تقبل نقض رأيها، وكلامها في الغالب يحمل صيغة الأمر دون أن تشعر، غير أنها فظة أحيانًا في التعامل مع الآخرين بالرغم أن قلبها ومشاعرها رقيقة للغاية، ولكنها لا تجيد التعامل.

أما الوسطى فيدل على العقلية الناضجة، تعشق المثالية في التصرف ولهذا تأنب ضميرها على أقل الأشياء، ولا تحب الشخص السطحي، وتأميل لجوهر الإنسان لا مظهره ولكنها تفرض آراءها على الآخرين دون شعور منها، كما يصعب توضيح الأمر لها في حينه.

- ولكن إذا كانت تلبس المرأة في معظم أصابعها؟

- هي للأسف لا تشعر بالأمان، وتحتاج لحماية خارجية ودفاعية نفسية ولهذا تتخذ من الخواتم تستراً، وكأنها تكسبها دفاعات نفسية ضد الخارج، بالرغم في نفس الوقت تريد جذب الآخرين إليها لتشعر بالثقة، فهي شخصية غير سوية.

في تلك الأثناء كانوا على مقربة من علا، فصاح بها، فلما دنت منهم، سألها الصاقر مازحًا:

- أرى أنك يا رفيقة قد اتخذت الحجاب فريضة لا عملًا؟

فنظرت لرواية وقالت:

- الحمد لله، فهذا بفضل الله ثم بفضلها.

فصاحت رواية بدهشة:

- أنا؟! مالي أنا ومال هذا؟

- حينما كنت طفلة في السنوات الأولى من دراستي الابتدائية، كانت تحكي لي صديقاتي كم هن يسعدن حينما يعبثن بطرحات أمهاتهن ليقلدهن في صلاتهن، كنت أحن إلى هذه المشاغبات الطفولية كثيراً، ولكن لا في بيتي طرح أو طراح، ولا هناك صلاة تقام، حتى أتى أحد أعياد ميلادي فتفاجأت بإحدى صديقاتي تهديني طرحة زعفرانية جميلة للغاية، فسعدت بها وكأنها أعظم هدية أهديت إياي، فلفلتها على رأسي كما أرى السيدات في الخارج وقد تزين بها، ثم توجهت لأمي - سمحاها الله ورحمها- فوبختني أشد التوبيخ وعنفتني بأقسى عنف، وعلمتني وقتئذ أن هذا الحجاب وتلك الملابس الفضفاضة هي معتقدات معقدة من إرث العبودية أجبرت على المرأة، فهي السبب الحقيقي وراء التخلف والركود في العالم

العربي، كما أنها تعيق المرأة من التدرج في المناصب العليا في مصر وفي دخولها مجال الثقافة والفن، كما يُحرم على الإعلاميات وأمثالهن من ممارسة مهنتهن بالحجاب، ظلت هذه الفكرة الخاطئة عن الحجاب محفورة في عقلي إلى أن أجبرت على لباسه لتقمص شخصية إيمان الجارة، ولما عايشتك وجدت في قلبك إيمان حقيقي نقي، كنت أرى نظرات عينيك وهي تطفح بالتمني الخفي لارتداء هذا الحجاب، من كل هذا رق قلبي إلى معرفة الحقيقة، فأخذت أطلع على ديني الصحيح، وأتعلم منهاجه لأفصل بين الحلال وبين ما حرمه الله.

ثم انتزعت علا من على كتفيها وشاحها الزعفراني الملازم لها، واقتربت من رواية ووضعته حول رقبتها قائلة إياها:

- من الآن هو لك.

ثم تعانقتا طويلًا، وبعد أن انفك تشابكهما قالت رواية بتهكم لا يخفي انفعالها الجلي:

- أهل الثقافة والفن والسياسة والأمن وكل ممتهني هذه المسميات البراقة ينادون ليل نهار بضرورة التزام الحياد عند التعامل والنظر للمتبرجات، كما يجب تغير نظرة المجتمع الظالمة لغير المحجبات، فهن نسوة عادية شريفات لهن حقوق وواجبات، ومع أنه إذا أرادات فتاة محجبة الالتحاق بأحد المناصب أو الركوب في موجة الثقافة وصناعة الفن نظروا إليها بنظرة ريبة ونبذوها، فهي كما يستقر في

معتقدهم جاهلة معقدة إن لم يحسبوها في غالبية الوقت إرهابية متخلفة، فمن جانبهم، الفن والعلم والجمال والحضارة والحب لهؤلاء الغير متحجبات، بينما المحجبات ما لهن إلا الزواج وتربية الأطفال وبعض الوظائف البيروقراطية العادية، وهذا هو حال مجتمعنا العربي، مغصوب الثقافة والعلم، وهو ما أنتج لنا نخبة أمنية وفنية وثقافية متعفنة تدعو للحرية التعبيرية وهي أول من يمارس الديكتاتورية الفكرية.

كانوا في تلك اللحظة على مقربة من محمية السلاحف المعمرة، فقال الصاقر محاولًا الخروج من تلك الحالة التي انتابتهما:

- ما رأيكن في إلقاء نظرة على تلك السلاحف؟

أجابت رواية على مضض:

- لا بأس، ولكن هناك شيء يرورداني، كيف هذه الجزيرة بمبانيها الجميلة، وبموقعها المتميز، والأشجار المحيطة الخلابة والماء الجذابة كانت سجن! فلو كان هذا المعتقل في مصر، لكان السجن أحب للمصريين من منازلهم وزوجاتهم وأبنائهم.

ضحك الصاقر ملء شدقيه من هذه الدعابة الساخرة وقال:

- هذه الجزيرة أعدت بالفعل كسجن شامل لجميع سجناء زنجبار، ولكن أراد القدر بشيء آخر، فإذ تجتاح البلاد نوبة ملاريا شديدة، فتحول السجن إلى معزل للمرضى، ولم يستخدم إلا في أحداث ١٩٦٤م.

- أهي ثورة أم انقلاب سيدي الصاقر؟!

- هاتان الكلمتان في غاية الخطورة والحساسية للمصريين في هذه الأيام، من الأفضل ألا نتلفظ بأي منهما، فكلاهما أحداث عزيزتي.

نظر كل منهما للآخر في محاولة استنتاج ما يدور بالداخل إلى أن هرب الصاقر من عينيها الجريئة، الجريئة في الحق، إلى أن سألته مباشرة:

- هل لعبد الناصر يد حقيقية في مذبحة زنجبار؟

- لست سياسيًا ولم أكن من حاشية الناصر حتى أستطيع أن أجاوبك على هذا السؤال.

سكت قليلًا معتقدًا أنه نجى برده المتلون، ولكن عندما نظر إليها فإذ بها تحدق في عينيه غير معتبرة لما قاله، فأردف بعصبية:

- مجزرة زنجبار كانت اختبارًا عصيبًا وعسيرًا لعبد الناصر؛ لأنه في ذلك الوقت كان يعد أبا الأفارقة إن لم يكن ربهم، وقتئذ كانت أفريقيا من أقصاها لأقصاها، باختلاف قبائلها وشعوبها ودولها، تقدس عبد الناصر، ولهذا عندما وقعت

المحرقة باسم ثورة، كان عليه أن يختار بين أمرين، إما أن يتدخل عسكريًا لينهي هذه الكارثة التي قضت على أكثر من ٢٠ ألف عربي مسلم، وكان يستطيع، وإما الاعتراف بما وقع كثورة شعبية أو كتلك التي قام بها هو.

سكت ولم يعد يستطيع الشرح أكثر من ذلك، فلما رأت علا علامات عدم الرضا تكسو وجه رواية وهي تعلم جيدًا صفاتها الفضولية أخذت تكمل ما بدأه الصاقر:

- الاختيار الأول كان سيؤول كانحياز الزعيم الأول للعرب ضد الأفارقة، فتسقط صورته وقداسته، غير أنه من الممكن اتحاد الأفارقة فيما بينهم لإنهاء كل الوجود العربي داخل البلدان الأفريقية، ولهذا رأى أن الاعتراف بالثورة سيحجم هذه العنصرية، وهذا ما قد حدث بالفعل، فبعد أن بارك الثورة واطمأن الأفارقة بكسب ثقة الناصر ضغط الأخير بدوره على كرومي ونيريري لطرد أوكيليو بعد أن خاب ظنه فيه، والعمل على إنهاء هذه المجازر باستخدام الخطاب الديني وتذكيرهم بالإسلام كوحدة تجمعهم، وهو ما فعله كرومي بجدارة التلميذ النجيب، ثم بعد ذلك وجه نيريري وكرومي بتوحيد جبهتهما (تنجايقا وزنجبار) كدولة واحدة، برئاسة القسيس نيريري.

- يا الله! خوفًا على صورته، ينصر الظالم على المظلوم؟ من أجل الزعامة والقداسة يقف مع القوي ضد الضعيف؟

فأجابها هذه المرة الصاقر بعقلانية سياسية بحتة:

- هذه هي الدول والجيوش، تعقليها سياسيًا، كم عدد العرب الذين قتلوا في زنجبار، عشرون ألف؟ ثلاثون؟ خمسون ألف؟! ولكن كم من الأفارقة كان سيفقد حبهم وولاءهم؟ ملايين.

- لعنة الله على السياسة والسياسيين، عجبًا لنا نحن الشعوب المسكينة، ليل نهار، شطرنا أصحاب حزب الكنبة يدعو للحكام بالتوفيق والسداد، والشطر الثاني المعارض الغاضب يسأل متى ستحرر بلادنا وعقولنا؟ متى سيعم العدل بيننا؟ فلا الأول مستجاب له، ولا للثاني رد عليه في الأساس، فلنؤذن في مالطة جميعًا.

اقترحت علا بالتعجل لضيق الوقت، دخلوا حاجز المحمية الطبيعية، عشرات السلاحف الضخمة الهائلة السائرة السائحة في الطرقات بين السياح وتحت الأشجار، سجل على ظهر كل واحدة منهن عمرها باللون الأزرق، فاقترب المرشد منهم يشرح لهم أعمار هذه الزواحف، ثم سار بهم إلى زاوية في آخر المحمية مازحًا:

- هذا الجانب للسلاحف الخمس المعمرة، أعتقد أنه لديهم من الحكمة الكثير.

تبسم الصاقر وعلا قليلًا لهذه الكلمات، بينما أخذتها رواية في منحنى آخر فصاحت في علا:

- أتتذكرين ما كتب في الورقة؟

لم تتمهل لتستمع لإجابتها، فتابعت بصوت متقطع تحاول عصر ذهنها: فإذا أردت معرفة الحقيقة فابحثي حيث تقيمي عن خمس حكماء تجاوزت أعمارهم مئات الأعوام، وخذيها من جوف أوسطهم عمرًا، فعامنا هذا هو عامه الواحد بعد الخمسمائة.

فنظر كل من الصاقر وعلا ناحية السلاحف الخمس حتى وقعت عيناهم على السلحفاة التي سجل عليها باللون الأزرق ٥٠١ فهرولت رواية في اتجاهها سريعًا وتبعتها علا ثم الصاقر، بينما المرشد في حالة ذهول من هذا التصرف المفاجئ، ولكن ليس بغريب، فما من سائح إلا ويحاول عبثًا لمس السلحفاة والتقليب في باطنها وصفع ظهرها، وإن كانت السلاحف تقابل أمثال هذه الأفعال الطفولية ببرود منقطع النظير، فإن كان لها التعبير عن هذا، لبثقت في وجوههم جميعًا، ولحمدت الله أنها لم تخلق بهذه التفاهة.

حاولت رواية من ناحية، والصاقر من ناحية أخرى، وعلا من جانب ثالث البحث في باطنية السلحفاة للعثور على أي شيء، حتى وقعت في يد رواية مادة بلاستيكية معلقة بشيء ما في الظهرية الباطنية، فانتشلتها بقوة، ثم أخذتها فمزقت الغلاف، وفضضت الورقة بسرعة فقرأت بتوجس رهيب:

"ألم تسألي نفسك يومًا لماذا أنسيموس ظهر كصديق لأخيك بعد وفاته فقط؟! ألا تعرفين ما هي علاقة أنسيموس بالفتاة التي وجدت مقتولة مع أخيك في وضع مخزٍ؟!"

انتزع الصاقر الورقة من بين يديها، وقرائها في عجالة، ولم ينبث ببنت شفة، في هذا الموقف العجيب والغريب، لا تتجرأ علا أو الصاقر على التفوه بشيء أو شرح مضمون الرسالة وما تشير إليه من بعيد أو قريب، فكل ما سيطر على العقول هو الرحيل، الرحيل فقط، فهناك أمر مريب وشيء خطير قريب منهم، بل يحاصرهم في عقل دارهم وحيثما ذهبوا، تفهمت رواية الموقف ولزمت الصمت لحين الاستقرار وعندها ستضح الأمور كما أوهمها الصاقر، يقومون في لحظة وضحاها بتأمينها لمقرهم الآمن بزنجبار، وبعد ثلاث ساعات متواصلة من النقاش والاتصالات السرية مع القبة، يأتي أمر شيخ الصقارين بالانتقال المؤقت لجزيرة توتي على وجه السرعة، ووضعت خطة محكمة من قبل الفريق بالاشتراك مع القبة، وإذ تتفعل في عشية وضحاها الخلايا النائمة التابعة للهياثم الصغرى طبقًا لأوامر الهياثم الكبرى في شرق أفريقيا وسواحلها، تسهيلًا للتنقل من زنجبار إلى جيبوتي عن طريق البحر الأحمر، ثم الزحف البري لجزيرة توتي الواقعة بنهر النيل وسط العاصمة خرطوم، مروراً بإريتريا وجنوب السودان، حيث إنه لا توجد أجهزة أمنية أو عسكرية قوية كانت أو ضعيفة إلا ولها أوكارها وعيونها في هذه المنطقة بالغة الحساسية والأهمية من القرن الأفريقي، فهي ملعب الغد.

وهذه الجمهورية العربية المسلمة المسماة جيبوتي هي أصغر دولة في القارة السمراء، ولكن ينطبق عليها المثل الروسي القائل: صغير ولكن فعله كبير، فموقعها الجغرافي في القرن الأفريقي على الشاطئ الغربي لمضيق باب المندب جعلها كميناء كبير وهام للغاية، ولذا باتت جيبوتي العاصمة والدولة بجميع موانيها محط أنظار

جميع الأقطاب العسكرية العالمية ليس لأهمية جيبوتي في ذاتها، وإنما لوقوعها على بعد ٢٠ كليومترًا فقط من السواحل اليمنية، والتي تصنف من أهم معاقل الإرهاب في الشرق الأوسط، بل تعد المدخل الرئيس لشبه الجزيرة العربية، هذه الجمهورية الصغيرة المغمورة اسمًا وفعلًا في العالم العربي لها نظرية خاصة في أوضاعها الداخلية تختلف عن باقي البلدان، فترى الحياة الجيدة في الاستقرار التام، بدون نزاعات، أو انقلابات، أو فتن طائفية، وإن شابها حرب أهلية استمرت ما بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٤، كما أنه لا مانع لها في وجود حاميات عسكرية آسيوية أو أوربية أو أمريكية لتأمين تجارتهم وسفنهم في البحر الأحمر أو لأسباب سياسية ولوجستية أخرى غير معلنة ما داموا يدفعون، وتعلن بكل فخر وبكل صراحة أن اقتصادها قائم على أموال هذه الحاميات، فبها أكبر قاعدة فرنسية في العالم بأسره، وعلى أرضها تتربع القاعدة الأمريكية الوحيدة في أفريقيا (أفريكوم) والتي تدفع حاليًا إيجار ٦٠ مليون دولار سنويًا، كما أنه تنشئ حاليًا القاعدة الصينية، بخلاف القاعدة اليابانية التي أنشئت في عام ٢٠٠٩، وكأن العالم النووي القوي المتصارع في الغرب والشرق اتخذ من هذه البلدة الصغيرة الضعيفة مسرحًا لعرض مظاهر قوته، وما تخبئه الأيام القادمة من دول عربية تنوي اجتياح القرن الأفريقي بالكامل سيتضح قريبًا.

(١٩)

على أخفض بقعة في القارة السوداء بأسرها بانخفاض ١٥٥م تحت مستوى سطح البحر، وعلى الحدود الجنوبية لمحافظة تاجرا، وقف الصاقر ورواية بصحبة فارح عين الفرديات الصحراوية في هذه البقعة، بعد أن رحل عنهم علا وألماسة، متطلعين الكتل البيضاء المترامية حولهما، والتي تخالطها الحمم السوداء الواضحة للعيان، فهم ببحيرة العسل التي تبعد ١٢٠ كم عن العاصمة جيبوتي، وهي أملح بحيرة في العالم على نقيض اسمها، والتي تبلغ مساحتها ٥٤ كم مربعًا، بعد التجول السريع في المنظر البديع من حولهم، فلم تطالع أعينهم شمسًا أصفى من هذه، ولا سماء أزرق من تلك الملبدة بالغيوم في جمال عجيب وتعشيق فريد، بالإضافة لطبيعتها الجيولوجية الفريدة والساحرة لكونها فوهة البركان المركزي في جيبوتي، شرعا في السير برفقة مرشدهم الأعلم بهذه المدينة وأناسها، وخلال مسيرتهم قالت رواية بصوت جهور بعض الشيء:

- سبحان الله، ما هذا الجمال الآخاذ لهذه الدولة الصغيرة المدهشة المتناقضة جوًا وموقعًا، الكثير في بلادنا العربية لا يعرف عن جيبوتي سوى اسمها، فكل معاملاتنا معها ما هي سوى رقم نكمل به القائمة الـ ٢٢ للبلاد العربية، فما أصلها وما تاريخها؟

فقال فارح مجيبًا:

- تاريخ جيبوتي والقرن الأفريقي عموما الذي يضم الرباعي (الصومال وإثيوبيا وجيبوتي وإريتريا) هو تاريخ طويل ومعقد للغاية ولكنه ما زال مرتبط بالجذور والأصل لحد كبير، فالمكون الرئيس لجيبوتي هما قوميتان كبريان ومهمتان للغاية، الأولى قومية العفر والثانية العيسى، وكلاهما يحوي العديد من القبائل.

ثم تابع في محاولة منه للمجاملة:

- وما يذكره التاريخ أنكم أيها المصريين كان لكم تواصل قديم بهذا القرن، فأقدم رحلة بحرية مصرية لهذا البقعة من القارة كان في الألفية الثالثة قبل الميلاد في عهد موني الأول.

تدخل الصاقر معقبًا:

- هذا صحيح، ولكن العلاقات مع شبه الجزيرة العربية كانت أكثر تأثيرًا من العلاقات المصرية، فمنطقة القرن الأفريقي أو الحبشة في العموم هي عربية الأصل، فهؤلاء الناس هم عرب من قبلنا.

- ماذا تعني أنهم عرب؟

- العربية كلغة وأناس متوغلة في هذه المنطقة من قبل الإسلام بل من قبل الميلاد، حيث هاجرت إليها قبليتان عربيتان قحطانيتان من جنوب الجزيرة العربية هما حبشت وكونت دولة كاملة والتي تسمى بها المنطقة وهي بعينها الحبشة التي

هاجر إليها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأما القبيلة الثانية وهي قبيلة أجعز العربية الأصيلة، وإليها تنسب اللغة الأجزعية، وهي لغة التعبد في الكنيسة الحبشية مثل القبطية في الكنيسة المصرية، ولكن النطق الصحيح لها هي الأجزئية فبعض القبائل العربية مثل المهرة لا ينطقون العين كما ينطقها السعوديون.

فقالت رواية باستعجاب:

- هذا يعني ما كنا نسمعه في الأفلام المصرية قديمًا من التهكم على نطق أهل السودان حيث بدلًا من عبدو يقولون أبدو، صحيح؟

- بالفعل صحيح فهذه لغة أصيلة، لأن أهلنا في الشرق السوادني يتكلمون إحدى اللغات الأجزئية والتي انشق عنها الثلاث اللغات الحبشية؛ الأمهرية، اللغة الرسمية لإثيوبيا، واللغة التنجرية، واللغة التجرايتية والتي تتحدث بها قبائل البجا في شرق السودان وإريتريا.

- لقد شهدت ذات مرة في أحد البرامج أحد المستشرقين يدعي بأن القرآن يتضمن مفردات حبشية وليس عربيًا كما قال سبحانه تعالى في كتابه العزيز، ولكن العجيب أن محاوره الداعية الإسلامي العربي نفى بأنه يتضمن مفردات حبشية.

- هذا إن دل فيدل على جهلنا، لأن قليلًا من العرب غير الباحثين من يعرف أصل هذا التاريخ، فالقرآن يتضمن ألفاظًا حبشية، فالحبشية الأصل ما هي إلا إحدى

اللغات العربية الأصيلة لأهل الجنوب والتي يتحدث بها الكثير من أهلنا في الجنوب اليمني والتي لا يعرف عنها الكثير من أهل الشمال.

فقالت رواية في محاولة للاستعارة من أرشيفها الثقافي:

- أتذكر أن قرأت ذات مرة في إحدى المجلات الثقافية أن القومية العفرية مسلمة بالكامل وعددها أربعة مليون شخص يسكنون إريتريا وجيبوتي وإثيوبيا والذي يسمى بالمثلث العفري، كما أن لغتهم الشفوية مليئة بالعربية وما زالت مستخدمة، حتى أنه في الآونة الأخيرة جالياتهم في أوربا يعملون على تسجيلها كتابياَ باستخدام الحروف اللاتينية.

تابعها فارح مؤكدًا بلغته العربية الركيكة:

- هذا صحيح سيدتي، ونحن الآن نسير في الأراضي التابعة للعفرية، فالعيسوية هم الصوماليون، أما العفر فهم العرب الذين نزحوا من آلاف السنين لهذه البقعة، كما يطلق عليهم الدناكل نسبة للملك دنكلي بن ملكان الذي حكم هذا المثلث العفري، إثيوبيا والصومال وجيبوتي، والتي سميت فيما بعد ببلاد الصومال الفرنسي.

فتعجبت رواية مستنكرة:

- وما دخل فرنسا في جيبوتي؟!

فتولى الصاقر مجرى الحديث شارحًا:

- هذا الجزء الأفريقي بعينه كان منسي عبر القرون، إلا عند الشروع والموافقة على حفر قناة السويس المصرية، والتي افتتحت عام ١٨٨٦م، فبدأت فرنسا في التفكير والاهتمام به لحماية القناة المملوكة لها من أي قرصنة، ولتمارس دور المراقب عن بعد، وما شجعها على ذلك هو نجاح الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م، وبالفعل بعد اتفاقية سايكس بيكو استطاعت احتلال هذا الجزء الذي اعتبرته مستعمرتها في القرن الأفريقي تحت مسمي بلاد الصومال الفرنسي، وفي عام ١٩٦٧م غيرت اسمه رسميًا للإقليم الفرنسي للعفر والعيسى، ليس حبًا في العفر ولا تحيزاً للعيسى، ولكن أحست بوهن موقفها وضعفها أمام الحركات التحررية الأفريقية فخططت لزرع فتنة عرقية في صفوفهم، بالتذكير أنهم قوميتان مختلفتان وقبيلتان منفصلتان، وليسوا أمة واحدة كما يتوهمون، وإن كان الجميع مسلمين، يربطهم رب واحد ونبي واحد، وللأسف تحقق المراد، إلا أن الاحتلال انتهى فيما بعد.

في هذا الأثناء كانوا على مقربة من واجهتهم، أرض صحراء، صخرية، قاحلة، جدباء، جرداء لا زرع فيها ولا ماء، تشع الأرض حممًا من باطنها، تهطل السماء كتل من نيرانها تطلقها الشمس بأشعتها المتوهجة، لا ترى رواية أمامها سوى صخور متبعثرة

ورمال حارقة، وأحجار تراصت فوق بعضها البعض صانعة هياكل حجارية لا يزيد ارتفاعها عن مترين، وتتباعد تلك الهياكل على مسافات شاسعة، فبادر فارح مرشدًا إياهم:

- لقد وصلنا قرية مؤمنة، سنمكث هنا لمنتصف الليل حتى يحين موعد مغادرتنا، اليوم تزور هذه القرية الهالكة جمعية الرحمة العالمية الكويتية لتقديم الإغاثة والمعونة لهؤلاء المساكين، سوف نرتدي هذا الوشاح الخاص بهم، كما أننا اتفقنا مع رئيس المنظمة لاعتباركما ضمن الفريق التطوعي.

اقتربت رواية بخطوات مثقلة من البيوت التي ليست ببيوت، وشرعت تتطلع الأفق لترى حياة هؤلاء الناس التي ليست بحياة، فما وجدت سوى عشش ضيقة خانقة ملتهبة حجرية تتخللها الفتحات الواسعة، فلا شمس تمنع، ولا هواء تصد، وسقفها ليس مكتمل سوى النصف أو الربع، وهو عبارة عن مخالفات، كراكيب نجارة، حدادة، أو خشاش الأرض والبوص، تشبه العشش البيتية في الأرياف المصرية التي تستخدم في تربية الدواجن، بل، والله، عشش دواجنا لأفضل، ولأفضل ألف مرة من تلك.

تعثرت خطواتهما كثيراً في هذه الأرض المتوقدة البركانية الجافة الحارقة الصخرية، فأصغر صخرة أثقل من أكبر طفل، والأطفال من حولهما يركضون ذهاباً وإياباً حفاة عراة وقد اكتسوا جلدًا على عظم! توقفت رواية فجأة أمام أحد الكهوف واستدارت

للداخل بينما مضى الصاقر، تسللت رواية للداخل لما لمحته عندما أبصرت هذا الطفل عاري الصدر، الذي لم يتعدى العاشرة بعد، حيث يتربع مسندا ظهره على الجدار الداخلي المُسعّر نارًا، وبين يديه الدقيقتين رضيعة ما زالت في حولها الأول أو الثاني، وفي كل هذا الوضع البائس يبتسم، يبتسم ابتسامة عذبة جميلة نقية، وترد عليه الرضيعة ببسمة رائقة أجمل وأصفى، وكلاهما يستقبلانها ببشاشة سلسة مأنوسة هي الأحلى في كهفهم المتواضع بل المتهالك، فدنت منهما، وقد ضحكت لهما وأضحكتهم متناسية المكان والظروف والزمن وكل ما يحيل ويعكر هذا الود الحقيقي وقالت بعربية:

- ابتسامتك جميلة، أختك هذه؟

فأجابها الولد بعد برهة قليلة، حاول فيها فهم قولها، بفرنسية جيدة:

- اعذريني سيدتي، أفهم العربية إلى حد ما، ولكن لا أستطيع التحدث بها، على كل حال إنها أختي، لقد ذهبت أمي وأخي الأصغر لجلب وإحضار المواد الغذائية التي أتت اليوم، وبقيت أنا أرعى الصغيرة.

فتعجبت لهذا الترابط الأسري القوي والتنسيق الجماعي المتين بينهم في بيئة لا تمت للتنسيق الأدمي في شيء، وقالت وقد تحسرت في نفسها على ضياع العربية:

- لماذا لا تتكلم العربية وأنت مسلم وعربي؟

- سيدتي الشابة، نحن قوم احتلت أرضنا وديننا ولغتنا وثقافاتنا ولم ننل حريتنا إلا في عام ١٩٧٧م، فما بقي وخلد في موروثنا الشعبي هو اللغة الفرنسية، فمن تعلم العربية بعد ذلك ممن درس بالمدارس العربية وجامعاتها، ولا أنا ولا والدي ولا جدي ذهبنا للمدارس، وإنما ولدنا تحت هذا اللهيب وعشنا في جوف هذه النيران، ولكن أمي تقول إن الله سيجزينا في الآخرة الجنة ثمنًا للصبر والتحمل والعبادة الصالحة.

تلفظت رواية والدموع تنهمر من بين جفونها:

- إن لم تذهبوا أنتم للجنة، فمن الذاهب إذن، إن لم تستحقوها أنتم فمن المستحق؟!

تقهقرت للخلف مبتعدة عن الطفل وأخته، تنظر إليهما في شفقة وحب وحنان خالطتهم الدهشة والمواساة، فاصطدمت بالصاقر عند خروجها، وقد لاحظت عليه التأثر الشديد والاستياء العام فبادرها قائلًا:

- ما هذه الحياة، سفرت وتجولت كثيراً، رحلت بين المدن وقراها أكثر مما عشت أنت من أيام، أم هذا الشيء لم أره من قبل!

ظل ساكنًا قليلًا، قبل أن يستطرد وهو يشير بأصبعه في اتجاه ما:

- صعب للغاية هذا، لم أتوقعه أبدًا، أترين هذا الكهف الممتد؟ هو دار أيتام هذه القرية، به ما يربو على ثلاثمائة طفل يعمل في خدمتهم رجل عجوز ضرير! التقيت هناك أطفالًا مبيعة، لا أصدق هذا، كيف لأم أن تبيع أبنائها، كيف تجرأت على فعل هذا؟ أين كان العقل والقلب آنذاك؟ فهل باعتهم لتعيش هي أم ليعشوا هم؟! أخرجت مائة دولار وأعطيتها لأحدهم، فقلبها بين يديه ثم اعتصرها، وأثناء طريقها للفم نظر حوله للطفلين المراقبين له، فجزئها بالثلث ولقمها الثلاثة بفرح وسرور! تفاجأت في البدء من أكلها ظنًا منهم أنها حلوى لا يعرفونها أو ورقة أشجار، فكيف لهم أن يدركوا حقيقة الدولار وهم لا يرون الأكل حتى يرون المال، ولكن عندما تأملت تقسميه لأصدقائه لم أجد ما أقوله، أو حتى أدركه، فهم أعظم شأنًا من أن يفهمهم أمثالنا.

صمت لحظات يحاول ربط جأشه ثم قال باستياء وتبرم:

- على بعد أميال ضئيلة من هنا، تجلب القاعدة الأمريكية، التي يبلغ عدد جنودها ألفين ونصفًا، الطعام طازجًا من واشنطن يوميًا على متن طائرات خاصة، تكلفة الفطار والغداء والعشاء والمشروبات ليوم واحد فقط تكفي لإطعام جيبوتي شهرًا كاملًا التي لم يتجاوز عدد سكانها ٩٠٠ ألف مواطن.

استمعت رواية لكلام الصاقر باهتمام وتحسر شديد ولكن في جوفها تحلق كلمات لا تستطيع كتمانها فطفحت بها:

- ما تقوله حقيقة يا سيادة الصاقر المعظم، ولكن أعذرني فلا أمريكا ولا أي دولة أوربية يستوجب عليها أن تساعد هؤلاء، فإن ساعدت فخيرًا، وإن لم تفعل فلا حرج عليها، ولكن نحن العرب يلزمنا هذا، شئنا أم أبينا، فهذا واجب بل فرض علينا، فأين أنتم من هذا؟

شعر ببعض الضيق والغضب من نظرة الاتهام الموجهة إليه:

- لماذا تحدثيني وكأني حاكم أو قائد أو رجل أعمال، فأنا أمني ولست سياسيًا!

فقالت رواية بلا مبالاة:

- أمني أو سياسي أو مواطن عادي أو غير عادي هذا كله لا يهم، تالله لا أخاف على هؤلاء المستضعفين، الموتى الأحياء، الأحياء الموتى، فلهم رب كريم، أما هلعي وارتعابي وجزعي علينا نحن، فماذا سنقول يوم القيامة ونحن بين يدي الجبار القدير حيث يسألنا عنهم؟ عن أحوالهم؟ أ كانت ترضينا؟ أ نحتملها؟ ماذا فعلنا من أجلهم؟

(٢٠)

مع غروب الشمس الأفريقية عن قرية مؤمنة تجلس رواية على إحدى الصخور العملاقة تتصفح أحد المخطوطات الذي أهداه لها العم مرجان في مقابلة الوداع، وبينما هي كذلك أقبلت عليها ألماسة وعلا بمجرد وصولهم، ومعهم الصاقر والتف الجميع حولها، فبادر الصاقر ليبلغها:

- بعد ساعتين يا رواية سوف نتوجه للروما الجديدة.

- أتقصد أسمرة، piccolla roma روما الصغيرة، كما يسميها الإيطاليون؟

- بالفعل هي بعينها، أسمرة عاصمة إريتريا.

فقالت رواية بشوق وقد أطلقت العنان بعيدًا وكأنها تتخيلها:

- بلد كم تمنى العالم أجمع زياراتها، بلد أفضل جيش مقاتل في العالم بأسره، أعتقد أنني محظوظة بالرحلة هذه، وإن لم أكن أعلم بمصيري المجهول الذي في أيديكم.

- لا تقلقي، انظري هناك، من القادم؟

فتوجهت أنظار الجميع حيث يشير بعينيه، فهرولت ألماسة في ناحيته صائحة:

- يا عم، يا عم، اشتقت إليك.

أما علا فدمعت عينيها اشتياقا وعشقًا، فصاحت رواية بذهول:

- هذا هو مؤمن؟

ثم رمقت علا بنظرة والتفت للصاقر:

- هل هناك علاقة حقيقية بين علا ومؤمن غير تلك المزيفة التي زعموها علي؟

فأومأ الصاقر رأسه بالإيجاب، ووصل مؤمن ناحيتهم فاحتضن علا وقد تعلقت وتشبثت به كثيراً، بينما تبكي قائلة:

- الشيء الوحيد الذي يضعفني في الحياة هو الاشتياق، ولك الكثير منه يا علاء الدين، بل كله لك.

فذهلت رواية وصرخت بفم ثاغر وحاجبين مرفوعين:

- يا إلهي! إيمان علا، ومؤمن علاء!

فضحك الجميع لذهول رواية فضحكت معهم قائلة:

- الحمد لله أن ألماسة هي الوحيدة التي ما زالت باسمها.

فتعالت أصواتهم ضحكًا وضجيجًا وقال علاء ساخرًا:

- صحيح، الحمد لله أن ألماسة هي سماء!

لم تعثر رواية في قاموس تعجبها على ما تقوله، فاستمعت للصاقر وعلا وهما يشرحان كيف جندوا علاء وسماء للتعاون معهم في خطتهم، فأدركت رواية أنها في أيدي ليس من السهل توقع أفعالها، بل أيقنت أيضًا أنها يجب عليها ترك مخيلتها الواسعة عن بناء الخيالات التي تخمنها وتنسجها لنفسها وما تتخيله لمصيرها وما تكهن به لقدر أنسيموس، فلتترك الأمر لحينه، قاطع تفكير رواية قول الصاقر:

- بما أنه من العسير عبور الحدود البرية الإريترية للوضع الملتهب الآن بينها وبين إثيوبيا وجيبوتي، ليس أمامنا إلا الإبحار من ميناء تاجورا الجيبوتي إلى ميناء مصوع الإريتري ومن هناك نتأخذ القطار الجبلي العجيب لروما الإفريقية.

***

في أعماق البحر الأحمر، وسط الأمواج المتلاطمة العاتية، وفي السفينة الخاصة للمثلث العشري والمُعدة على أعلى مستوى من التقنية الأمنية، تدندن رواية بصوت مسموع:

أعيدوني لأحلامي

أعيدوني لأحلامي

ليوم صاغ أفكاري

وأبعاد المسافات

أعيدوني

لشمس نسقت في القلب

بعضًا من مسراتي

أعيدوني

لنبع أنهل الصحراء

والصحراء باتت رهن ألواني

أعيدوني

فليت البعد طيف من لقاءاتي

غريب الناي أعزف لحن

آهاتي

أبث الوجد من أعلى سماواتي

وفوق مُساحة رعناء

تلهمني جراحاتي

غريب الناي أعزف لحن

آهاتي

إرتيريا.

إرتيريا. يا زمردة الهويات

كان علاء فخوراً برواية وثقافتها وبراءتها، يراقبها وهي تغني وتلحن القصيدة عن كثب، معجبَا وفرحًا، ففاجأها قائلًا:

- من أين لك معرفة العفرية شريفة العلوي؟

- هذه الشاعرة الإريترية القوية هي سبب حبي واهتمامي لمعرفة هذا الشعب المشتت والمنسي في الذاكرة العربية.

تدخل الصاقر سائلًا:

- كيف تعرفتِ عليها وعلى شعرها؟

ضحكت رواية هُزاة وقالت بكيدية:

- يا لها من مفارقة عجيبة كلما أتذكر أول عهدي بمعرفتها، في أثناء قطعكم للإنترنت، يوم ٢٩ يناير، اليوم التالي لجمعة الغضب التي حاربتمونا فيها وقتلتم أجمل من فينا بفتحكم لأفواه النيران لمواجهتنا وهلاكنا، نشرت شريفة قصيدتها مصر الحبيبة، وأعلنت تضامنها مع الثورة المصرية، في حين أنتم يا حراس السلطة كنتم تدسونا بمدرعاتكم وتسحقوننا بجلداتكم، أفحكم الله.

- لماذا تتهمينا بقتل الثوار؟ فليس لنا أي يد أو تدبير فيما حدث.

- صحيح يا سيادة الصاقر المعظم ليس لكم أي دخل في هذا، أمي هي الجانية! أمي هي القاتلة. أمي هي كلبة السلطة.

شعر الصاقر بضيق يجتاح صدره من تهكم رواية، ولكن كتم غيظه، فما يستقر في يقينه وعقيدة رفاقه أن الجهاز هو وحده المسئول، أما رواية فواصلت بانفعال وحماس:

- إن كنتم حقًا لستم بجناة، وأنتم الجهاز الأعظم والأعلم الذي لا يُعلم ولا يُعَلم عليه في مصر! فلماذا إذن لم تمنعوا وقوع أحداث جمعة الغضب؟ لماذا لم يتم

توقيف موقعة الجمل؟ لماذا لم تحرموا وتعطلوا مجزرة رابعة؟ والاتحادية؟ أين كنتم؟ على مرض أم على سفر؟

نظر كل من علا والصاقر لبعضهم البعض وأثروا السكوت، فأي مبرر، وأي كلمات تستطيع محو هذا العار، وتبرئة هذه الجريمة الدنيئة، يا لها من مذلة رزيلة وصمتهم بالنقيصة والخزي الأبدي! أما علاء فقد توقدت حميته بتذكره شهداء الثورة، شهداء الكفاح، شهداء الشباب، شهدائنا الذين ماتوا من أجل حرية البلد، فأتى للبلد من امتلك كامل حريته في ضياع حقوقهم وتشويه ذكراهم، وقال منفعلًا:

- ما رأيت في حياتي قط كلمات تصف حالنا وحال الجهاز الديكتاتوري كما وصفتهما سماء بعد أن اصطحبتها في إحدى المرات للجهاز حيث كنا نعمل.

نظر الجميع لسماء أو ألماسة، أما علاء فتابع بإقدام حماسي:

- وجدها صلاح مكتوبة في يومياتها ذات يوم، فأتى لي بها مذعوراً.

تطلع للمتطلعين إليه في شغف وتوجس مرتقب قبل أن يسرد عليهم:

- كتبت بلغتها التهكمية: لقد خلق الله لكل شعبه جنة ونار، واصطفى الشعب المصري فخلق له جنة ونارين، جنة أظنها بعيدة المنال، وإحدى النارين أراها تتلهف لقاءنا، أتخيلها وهي مكتظة بنا جراء تساقطنا فيها واحد يلو الآخر،

فنملئها، فتتمدد جدرانها وتكاد أن تُصاب بالغثيان، فتقذفنا خارجها، هذا هو ظني بحالنا مع نار الأخرة، أخاب الله ظني فهو التواب الرحيم، فإننا بدون شك نؤمن برحمته ومغفرته، ونرجوه العفو والنجاة، ولكن لا أظن للحظة واحدة أننا ناجون من نار الدنيا، ذات الوجهين، فهي الجحيم المشتعل لأكثر من ٩٥% منا، وهي أيضًا الروضة المُنعمة للآخرين، قاطني طبقة السوبرمصريين، الذين لا ينبغي علينا جهلهم أو تهميشهم، فيجب أن تكون لهم الأولوية، كما تقتضي قوانين الديموقراطية المصرية التي شعارها، الأقلية أولًا. الأغنية أولًا.

جحيمنا الخاص هذا ليس غذاؤه حطب، ولا نفاثه دخان، وإنما يتغذى على الأرواح والأجساد وينفث بالدماء، فكلما التهم بين أذرعه أحدنا، احمرت ألسنة لهيبه، وتطايرت الدماء تسبح في الفضاء راكبة السحاب تجول في كل الأنحاء، ممطرة على المصريين الجرعة المعتادة من الخوف والانكسار، وجحيمنا هذا يتجسد في ظاهره بأربعة جدران، يقام على مساحة فدان، يتكون من عشرات الأدوار، مئات الممرات، في جوفه يحوى على آلاف الأسرار، به عشرات المكاتب للتحقيقات البدنية والنفسية مزودة بأحدث النظم العالمية.

ومن أهم ما يحوي عليه جحيمنا، مكتبة، عدد ورقاتها تجاوز المليارات، تندرج تحت ملفات مرقمة، بحيث كل رقم يمثل رأس، نعم، كل رقم برأس، فأهالينا في الأرياف المصرية الأصيلة يطلقون على الماشية رأس فإذا كان يملك عشر مواشي قال لدي عشر رؤوس، وهكذا المصريون بالنسبة لجحيمهم ما هم إلا مواشي.

ومن باب الأمانة، فهي مكتبة أصيلة، فما من مكتبة في العالم إلا وقد جاء عليها وقت واحرقت أو سرقت، فضاع منها مئات الكتب، أما مكتبتنا - حفظها الله – فلا ينقصها ملف لحي أو لميت، فهي بنت أصول لا تتخلى عن إحدى مواشيها، بها أمهات كتب سُطر على أوراقها سير ذاتية تصل لمئات الأجداد، حتى أظن أنها الوحيدة التي قد تكون على معرفة بمن هو فرعون موسى.

نالت كلماتها منهم، فأصابتهم الدهشة العارمة لهذا الوصف الأدبي الدقيق، والأهم، أنه وصف صحيح صادق، وإن كان الجميع يحاول تجنبه أو غض الطرف عنه، إلا أنه حقيقة نعيشها وتعيش بداخلنا، وبينما الكل يطالع البحر بأمواجه العاتية، رمت رواية سؤالًا عابرًا تعقيبًا على كلمات سماء المنطوقة بلسان علاء:

- ولكن من هم مسؤولوها؟ من هم حراسها؟ أليس لنار الآخرة ملائكة حارسة؟ فمن هم ملائكة نارنا؟

ثم ألقت بنظرة عابرة في اتجاه الصاقر وعلا، وأخرى لسماء التي ما فكرت طويلًا قبل أن تأخذ بزمام الإجابة للسخرية وعيناها تراقب الأمواج المتلاطمة، تسبح في الأفق البعيد:

- حقًا يا روايتي، لكل نار ملائكة حارسة، ولكن جحيمنا فحراسه ذوو نوع وصفات خاصة، فلهم من الصفات ما لا يعد، فما من أنس أو جن أو شيطان، بصفة خاصة، إلا وقد ورثوا منه، ورضعوا من نهديه، وتعلموا على يديه، فصنعوا مشروبًا

رطبًا للتناول صباحًا ومساءًا، وعند الضرورة، وهي اللحظة المتمثلة في استيقاظ الضمير أو مجرد نبضه، وحديثًا أنتجت كوكتيلًا مميزًا بعض الشيء، فهو مستخلص من لعاب العقرب والأفاعي ودهن الخنزير، من أهم نتائجه بث سموم خاصة، لا ترياق لها، لإيقاف الضمير عن نبضه لمدى الحياة، وليجعله غير قابل للإحياء مجددًا، وأظن أن أكثر حراس جحيمنا قد تجرعته بشهية.

صاح الصاقر متعصبًا غضبًا فلم يعد له صبرًا:

- يا إلهي! أليس منكم من يعلمهم ويفهمهم أننا صقور القبة، ولسنا نسورًا أو سيوف الدولة، ولا نمد لهم بأي صلة هؤلاء القردة؟!

فأجابته علا خائبة:

- لا عليك، أتركهم للزمن، ولا محال سيعرفون ما لنا وما علينا، وما لغيرنا وما عليه، فنحن لسنا ملائكة ولا شياطين.

فقال علاء في محاولة لملاطفة الجو بعد هذا الفوران والحدة:

- ولكن الحق أقول، لم يكن ربك بظلام للعبيد، فالشعب المصري الذي يخرج على بكرة أبيه في انتفاضة لإطفاء لهيب ناره الخاصة، وهدم أسوارها، وحرق مكتبتها، هو ذات الشعب الذي يخرج في الذكرى الأولى لانتفاضته للمطالبة

بعودتها، وإعلانه مساندتها، والتزامه بكل ما تقضي به، ولا حاجة للاندهاش كثيراً، فإنها الكيمياء الخاصة بشعبنا العظيم، سر تركيبها في علم الغيب، إنها خلطة سحرية، نزلت علينا كلعنة مجونية، لا نعلم تركيبها أو حتى اسمها، فلقد خرج من هذا الشعب قديمًا من قال أنا ربكم الأعلى، واليوم من نفس الشعب هناك من يخرج طائفًا بجحيمه منادياً لملكها:

(لبيك لبيك، لبيك وسعديك، والتطبيل كله لك، يا عقربنا يا ملكنا، افعل بنا ما تراه في صالحنا، فإننا جاهلون بماضينا، وعاجزون عن كتابة مستقبلنا، فأنت الأعلى وبحالنا أعلم، وإننا نحن الشعب الأعور).

ضحك الجميع للمفارقة العجيبة، والتركيبة الغريبة للشعب المصري، فهو الثائر والمطبل في آن واحد، ثم أظهرت سماء طفولتها حينما وقفت على السلم الحديدي بجانب الشراع، وقد هدت الأمواج، وأمسكت بقلم جعلته ميكرفونًا وقالت بسخرية ضاحكة:

- أعزائي الأخوة والأخوات، لا حاجة لوصف جحيمنا أكثر، فمعظمنا يعلمها ولنا معها حكايات وأحداث تروى، ومن لم يصله الوصف ويتسأل عنها، لا تستعجل يا صديقي، فأتوقع بسماعك لخزعبلاتي هذه كافية لإحضارهم لك، ولكن أبرئ نفسي، فقد أكون سببًا في إحضارهم، ولكن لن أستطيع أن أنتشلك من بين أيديهم، فكما يقول المثل المصري (مش كل اللي يحضر العفريت يعرف يصرفه).

تبسم الجميع لخفة ظلها وذكائها الشديد في إيصال المضمون بطريقة طفولية جذابة، ولتنهي حدة الحوار القائمة التي ستؤثر على طبيعة المهمة التي يتغربون في وسط الأمواج وقلب البحار من أجل توصيل رسالتها السامية.

ولكن ما لا يمكن يعلمه أحد أن العفاريت قد حضرت بالفعل! العفاريت حضرت. حضرت العفاريت. العفاريت أين كانت لتحضر؟!

(٢١)

على حد ميناء مصوع، تقابلت الهيثم البكر مع قادة الدائرة الوسطية والثلاثيات العشبية والثنائيات الجبلية لاستلام إذن وتصريح التنقل بين المدن، والخط الهاتفي، ورخصة القيادة، فالدولة الإريترية من أغرب وأعسف بلدان العالم حتى مع الأجانب، إلا أن القبة المصرية من القليلين أصحاب النفوذ بها، بمجرد الوصول ميدان مصوع، بادرت رواية بسؤال حول تاريخ المدينة الحديث لكي تعيد الروح الطيبة التي كانت تسود بينهم قبل أن يتطرقوا للحديث في الشأن المصري، الذي يدور منذ قيام ثورة يناير، المجيدة والوحيدة، في كل عائلة مصرية، وينتهي بلا أي نتيجة عقلانية غير أنه يخلف بعض المشادات الكلامية والتي تصل لحد القطيعة بين أفراد الأسرة الواحدة من أجل مبدأ إن لم تكن معي فلست مني، فسألت وهي تعلم الإجابة:

- كيف لأسمرة أن تلقب بروما الأفريقية الصغيرة الحديثة مع أن مصوع التي نحن بها الآن هي عاصمة المستعمرة الإيطالية في ١٨٩٠م طبقًا لقرار الإمبراطور أمبرتو الأول؟

- هذا صحيح، وهي كانت كذلك بالفعل إلى عام ١٩٢١م حيث تولى الحزب الفاشي السلطة، وعلى رأسه موسوليني، ومما معلوم للجميع أن خياله الجامح كان ينسج له أنه قادر على إعادة الإمبراطورية الرومانية وأمجادها الغابرة، فكان يرى أن

الدولة الرومانية ستنبعث من جديد، من أفريقيا، ولأن مصوع هي عالم الموتى كما كان يصفها المؤرخون حيث تجمع بين أعلى حرارة وأعلى رطوبة، بدلها موسوليني بقرية أسمرة ذات الأحياء الأربعة، والجو الإيطالي المطابق تمامًا لروما، والتي تقبع في أعلى الجبل بارتفاع ٢,٥ كم عن مستوى سطح البحر، وتبعد عن مصوع بحوالي ٥٠ كم شرقًا، وبالفعل، أرسل إليها المعماريين الإيطاليين العباقرة، الذين استطاعوا في سنوات وجيزة جعل أسمرة كروما في مبانيها ومعمارها المجنح الخيالي.

قاطعهم قائد الثنائيات الجبلية بأدب محذرًا:

- الآن سوف نستقل القطار الإيطالي في طريقنا لوسط أسمرة، أرجو عدم الحديث في الشأن السياسي الإريتري قدر الإمكان، فالدولة بأكملها حائط واحد له ألف أذن.

لأن سماء ورواية أول زيارة لهم لإريتريا تملكتهم الدهشة والذهول والحيرة من هذه الطرق الوعرة الخطيرة للغاية، كيف استطاع الإيطاليون أن يصنعوا في مثل هذه الجبال العويصة المرتفعة هذا القطار الذي مازال يعمل بكامل كفاءته منذ عام ١٩١١م، فركوب الطائرة مهما كان نوعها أو حالتها لا يبعث على الخوف والقلق كهذا القطار، وإن كانت رحلته الجزافية أكثر متعة ومغامرة، أما عند وصولهم أسمرة فما كان من الجميع إلا الاعتراف بأنها حقًا روما، نسخة رومانية طبق الأصل لا تميزها عن روما الأصل سوى البشرة السمراء، ومن بين المباني الخلابة الفاتنة التي

تتفوق في سحرها ما لم يتوقعه الخيال بوجوده في القرن الأفريقي شد انتباه سماء مبنى وزارة التعليم بوسط أسمرة، فتساءلت:

- أرى أن هذا المبنى يمثل فأسًا، أليس صحيحًا؟

فنظر علاء للمبنى القابع أمامهم مجيبًا:

- هذا هو (La casa fascista) البيت الفاشي، الذي كان يدير من خلاله موسوليني خططه الطموحة الاستعمارية.

وأثناء تنقلهم، متنكرين مموهين في لباس سياحي أوربي، بين الأحياء الأربعة الرئيسية لأسمرة التي تعج بالسياح والناس والبيوت، اقتربت رواية من علا وسألتها في سرية وبصوت منخفض للغاية:

- لماذا كل هذه التنقلات من بلد لآخر؟ أليس في استطاعتكم نقلنا إلى مصر دفعة واحدة، في طائرة واحدة، لن تأخذ سوى بضع ساعات؟

- كان باستطاعتنا الرحيل من زنجبار للقاهرة في غضون ساعات، ولكن الأمر معقد أكثر مما تتخيلن، فأنت في حالة مراقبة تامة ودائمة لجهة تعلم عنك وعن مهمتنا بعض الشيء، ولا نعلم عنها أي شيء، فلابد من خطتنا هذه للتمويه، لإتاحة فرصة أمامنا لإرباكهم، لكشف هذه الجهة وآليات عملها قبل أن تصلين للقاهرة في أمان، إن شاء الله.

انتبه الجميع على صوت علاء، يحثهم على الدخول لمبنى الأوبرا، مسرح أسمرة، بمجرد سقوط أعينهم بداخله شعروا بالبراعة والتميز الحقيقي للأوبرا الفريدة من نوعها في العالم، لتصميمها غير المعهود، الذي يحليه الرسومات الرائعة للنساء الراقصات وطيور الخفاش، كما برز وأتقن الإيطاليين التميز العمراني، أبدعوا أيضًا في التميز العنصري، فهناك سلم خارجي بعيدًا عن المسرح لدخول الإريتريين، حتى لا يختلطوا أثناء الدخول بالعرق السامي، الأوربيين الذين يجلسون بالدور الأول، أخذوا يتأملون المسرح بجوانبه المختلفة، وأكثر ما لفت النظر تلك العبارات الثورية المنسقة والمسجلة بلغات مختلفة وعديدة على المقاعد والجدران، فلما سأل أحدهم عنها، تولى الدكتور علاء الإجابة بخصوصها فقال:

- إريتريا تتكون من تسع عرقيات مختلفة، ولذلك الغالبية هنا تتحدث تسع لغات بطلاقة.

فعقبت رواية ساخرة وهي تتطلع الشعارات التي تحتاجها مصر في الوقت الراهن لتفعيلها:

- هل تعلم أن أفضل شيء في إفريقيا، وإريتريا بشكل خاص، أنهم ليسوا بحاجة لكليات الألسن.

في هذه اللحظة اقتربت سماء لتسأل:

- هل الأسطورة الإريترية صحيحة؟!

فعقبت رواية مستوضحة:

- الخاصة بقتال الشعب الإريتري؟
- نعم

فتولت علا الإجابة:

- الشعب الإريتري حارب ثلاثين عامًا متصلة شعوبًا وجيوشًا تفوقه بعشرات المرات.

فسألت رواية:

- وهل القرى الكاملة الكامنة تحت الأرض حقيقية؟

فأجاب علاء:

- الشعب الإريتري، ٨٠% مسلم والبقية مسيحيين، غالبًا في تسامح وود، وفي هذه الحرب ضد إثيوبيا، تفاعل وتشارك مع بعضه البعض بكل السبل، فبنوا معًا قرى كاملة ثم دفنوها، وهناك قرى من آلاف الكيلومترات بين الجبال ردموها أيضًا، كما صنعوا مدينة كاملة تحت الأرض بجميع مرافقها وشوارعها ومصانعها

ومستشفياتها وصيدلياتها ومساجدها وكنائسها، إنه شعب عبقري، اعترف العالم أجمع بعبقريته الحربية، كما أنه ظل صامدًا على هذا المنوال لثلاثين عامًا، كما أنه صنع كل أدواته الحربية في هذه القرى المخبأة تحت الأرض.

فسألت سماء:

- وما حاله الآن؟

ضحكت رواية لعلاء الذي رد عليها ببسمة وكلاهما ينظران قلقًا من علا والصاقر وقادة المجموعات، فأخذت الأولى بزمام الإجابة:

- آه، الشعب المشتت، منذ انتهاء الحرب واستقلال إريتريا يتصدر الموقف السياسي حزب واحد، أحد، وحيد، منفرد، و ...

قاطعها قائد الدائرة الوسطية بعد أن أبصر ساعته بقوله:

- يتوجب علينا التحرك خلال ساعة واحدة من الآن.

حدقت الأعين بأسرها اتجاهه، فشعر بالإحراج قليلًا، فنبأهم قائلًا:

- الحديث في تل أبيب أقل خطورة علينا من الحديث هنا، فلا نريد أي إحراج للقيادة السياسية المصرية، فإريتريا هي حليفنا الأفريقي الأقوى في المنطقة.

فقال علاء بتحسر:

- ولجمع الإمارة أيضًا في الخريطة الجديدة المقبلة على عالمنا الثالث.

فخشت علا من تفاقم الحوار، فأمرت بحزم قاطع:

- كفى جدلًا! لنناقش الأمر خارج الحدود الإريترية، فهذه السلطة الجبارة المتمكنة من حبس ثلث شعبها، وتهجير الثلث الثاني، لقادرة بلا شك على نسفنا في الحال.

فقالت سماء بعفوية، متحدية أمرها:

- وأين الثلث الآخر؟

فأجابها علاء بنبرة لا تخلو من حزن وبتذبذب خشية غضب زوجته والصاقر أو ذاك القائد المستجد في رحلتهم الطويلة:

- الثلث الأخير يحيي في الوطن، مغصوب الإرادة منتزع الكرامة، إن وطئت قدماه خارجه لفر بلا رجعة، يعيش ليل نهار تحت نار العبودية، العبودية الحديثة، العبودية المبررة، التجنيد الإجباري، يا له من نظام تجنيد فريد من نوعه! حيث تمتد فترة التجنيد لأكثر من عشرة أعوام، بدون مقابل مادي، ذكور وإناث، عسكرهم يمتلك كل شيء، البلاد والعباد، فيتعامل مع البلاد كتركة أبيه، ومع العباد كعبيد

أجداده، حتى الإعلام، صحيفة واحدة، قناة تليفزيونية واحدة، محطة إذاعة واحدة، وكلهم ملك الدولة، يعمل المواطن الإريتري التعيس موظف حكومي، صانع، فلاح، عامل محجري، ولكنه كمجند، لا أكثر من بيادة، تصل فترة التجنيد لبعضهم لسن السبعين، فطالما له من الصحة ما يؤهله للسير على قدميه فهو جندي مجند، مقاتل، أو عامل، وللأسف الشديد هذا النظام التجنيدي يدرس الآن على قدم وساق في مطابخنا لإمكانية تنفيذه كاملًا، وإن طبق بعضه بالفعل، فيوما ما سنصير ما صاروا إليه.

في هذه اللحظات شعر أهل المدنية بغليان وفوران أهل القبة، فمع نظراتهم الصامتة سكت الجميع اتقاء سهامهم الغاضبة المنتشرة في الأرجاء، أما الصوت الجديد الذي صدر فكان لتلك النافذة العلوية للمسرح وقد فتحت فجأة وعقبها ثلاثة أصوات رنانة لثلاث طلقات نارية اخترقت جميعها جسد الصاقر.

استهداف جهة ما للصاقر وما له من تاريخ، بهذه الجرأة والكفاءة هي أقسى صفعة وأشد لطمة تلقاها عش الصقور في تاريخه الحديث، ولهذا الخوف والذعر والاحتراس منها كان حقيقي، مما جعل الصقارين ترتبك فتعمل على نقل الصاقر لوجهة سرية بالرغم من إصابته الخطيرة، فنسقت الدائرة الوسطية مع الفرديات الصحراوية نقل الصاقر، بينما تولت الثنائيات الجبلية مع الثلاثيات العشبية تأمين علا وعلاء ورواية وسماء لجزيرة توتي وتسليم المهمة للمجامع المتحدة.

(٢٢)

وبعد منتصف الليل بقليل، وبعد يوم جسيم وعسير لما حدث وأصاب الصاقر وهو غير المعتاد، توقفت المراكب على ضفة مدينة توتي القديمة، فارتحل عنها رواية وسماء وعلاء وعلا راجلين متنقلين بين أزقة المدينة الضيقة للغاية، ولكل يعقوب حاجة في نفسه، وفي صحبتهم قائد المجامع المتحدة، وأثناء سيرهم بدأت سماء في ثورتها على الحزن والقلق الذي انتاب الجميع فسألت مرشدهم الجديد عن سبب تركيبة هذه الشوارع بهذه الطريقة الغريبة، فأجاب وهو يتقدم للأمام وفي يده الكشاف الضوئي:

- هذه التركيبة هي نتيجة طبيعية في كل البلدان الريفية، فالفضاء كان صحراء متسعة، فالابن حينما يبتغي الزواج يقوم ببناء حجرة بجانب البيت الأصلي، فلم يكن معروفًا لهم فكرة البيت الجامع.

وهذا ما فتح له المجال ليتحدث عن المدينة وتاريخها العريق وحكاياتها مع الفيضانات المخيفة التي كانت تهدد موقعها الفريد بالغرق الأبدي، وظل يتمتم بصوت مهموس إلى أن وصل أمام منزل أثري قديم، يتضح على واجهته الأمامية التراثية أهميته وعراقته، فسألت رواية بصوت مرتفع قليلًا:

- أين نحن؟

أطلق قائد المجامع عينيه باتجاه المنزل الخالد، وقال:

- هذه الواجهة الأنيقة هي لمنزل الزعيم مصطفي خالد.

فاستفسرت سماء وهي تنظر بدهشة:

- ومن هذا الزعيم؟

فتنهدت علا ثم سردت:

- مصطفى خالد، الزعيم السوداني، صنع تاريخ حقيقي فنساه التاريخ المزيف، أول من عرفت به أول مواجهة مع الإنجليز دفاعًا عن أرضهم وعرضهم، لقد كان رجل حقًا.

واصلت بعد برهة قصيرة تطلعت فيها لجوانب المنزل:

- في يوم الجمعة الموافق ٧ أبريل ١٩٤٤م، خطب مصطفي خالد في الناس ليعلنوا رفضهم لقرار حاكم الخرطوم الخاص بترحيل غالبية سكان توتي لتخصيص ثلث الأرض لإقامة مشروع تجارب زراعية لعلماء بريطانيين.

ساد الصمت ثواني معدودة، ثم تابع قائد المجامع:

- لإنهاء هذا التمرد قامت السلطات الإنجليزية بعقد اجتماع بين مدير الخرطوم وممثلي أهل توتي يوم ١٤ أبريل، دام لساعتين بلا طائل، فالإنجليز يصرون على انتزاع الأراضي، ومصطفي خالد ومن معه يرفضون خيانة وطنهم وشعبهم، خلال الساعتين توافد على مقر الاجتماع العشرات من الأهالي، فلما خرج مصطفي

خالد وأخبرهم بنتيجة الاجتماع قائلًا: كما قالها سعد زغلول بمصر لا فائدة "مفيش فايدة"، فالأرض منزوعة منزوعة عاجلًا أم آجلًا، اجتاحت صدورهم الكراهية والعداوة والسخط، فحاول بعضهم اقتحام المقر، فتوجهت بنادق الحراس لصدورهم حيث استقرت رصاصة بأحدهم مات في الحال، وألقي القبض على ٢٤ منهم.

في هذه اللحظة فتح الباب الرئيس للمنزل وطل منه شيخ ثمانيني، فبادر القائد قائلًا:

- وهذا هو العم الضرير، أحد هؤلاء السجناء القدامى.

اقترب القائد من العم، فصافحه وقبل رأسه ودخل، وتابعته البقية بنفس الفعل، فكم يحب المصريون أهل السودان الذين يبادلونهم الود والاحترام، وإن لم تكن العلاقات الثنائية، السياسية اسمًا الانقلابية نوعًا، على وفاق على مدار القرن الأخير، فالإدارة المصرية والسودانية كالعاهرتين، يغضبان ويغيران من بعضهن البعض عند طلب أي زبون لإحداهن، سواء خليجي أو أمريكي أو تركي، وبعد أن يأتيها وراء مصنع الكراسي ويفرغ بها، يهملها وينفر منها، فتعود لصاحبتها بما نالت، ويعاودان صحبتهما إلى أن يأتي زبون آخر يباضع إحداهن، وهكذا.

بمجرد جلوسهم بردهة الاستقبال المتواضعة، طمئنهم قائد المجامع على صحة الصاقر لما وصله من تقارير حديثة، أما رواية فلم تتحمل الصبر أكثر من ذلك،

وخاصة بعد كل هذه الأحداث الأخيرة، فهي شاردة في العالم المجهول الذي ينتظرها ولا تعلم عنه شيئًا، فصاحت صارخة:

- يا أنتم كفى هذا الهراء، لن أصبر بعد الآن، أريد معرفة الحقيقة، الحقيقة كاملة، وفي الحال.

أشعل قائد المجامع سيجارته الزرقاء الشاذة، ثم أخذ يقترب ببطء من رواية، وكل خطوة تصل لأذنها تقع عليها ثقيلة كالجائحة، خائفة مرتجفة مما سيقال، ومما سيكشفه من حقيقة تخشى أن تطابق ظنونها وتوقعاتها التي بلغت مبلغها في الأيام القليلة الماضية، وقف أمامها وفتح النافذة، ثم سحب نفثًا عميقًا من سيجاره، ثم قال ونظراته للفضاء تخرج مع سحاب الدخان:

- أنسيموس هو أخ للفتاة التي وجدت منحورة مع أخيك.

هكذا كانت تظن، بل كانت متيقنة من هذه الحقيقة المؤلمة، ولكنها كانت تأمل في أن يقول ما يخالف ظنونها، أو حتى يكذب عليها، فأحيانا كثيراً الكذب نجاة من عذاب نفسي وانكسار روحي لا نستطيع تحمله، أخذ منها التفكير عدة ثوان قبل أن تنهار نفسياً، كل ما ارتكز في عقلها وأيقنته بداخلها أن هدف أنسيموس منها كان الانتقام، الانتقام فحسب، فلا إسلام، ولا حب، ولا صداقة، ولا شيء.

شعر الجميع بالحالة المؤسفة التي عليها رواية فاقتربت منها علا تلاطفها للهوان من الأمر المحزن والمخزي، قائلة:

- لا تحزني يا صديقتي، فلعله لم يقصد الانتقام كما يوسوس لك شيطانك.

جففت رواية دموعها بكبرياء، ولملمت شجاعتها قائلة بتهكم ساخر:

- بما أنكم الجهاز الأول في جمع المعلومات، تعرفون ما نعرف وما لا نعرف، أخبرني أيها القائد العام ماذا كان يريد مني حينما دخل حياتي؟

تلعثمت علا لمخافتها هذا السؤال المتوقع، نظرت في أوجه المتفرقين حولها قبل أن تجيبها:

- حقيقة يا رواية هو كان يريد الانتقام منك، ليلحق بك فضيحة مثل تلك التي ألحقها أخيك بأخته، ولكن هذا ما لم يقم به، وما لم يحدث في الواقع، وهذا مما يدل على عدوله عن قراره المسبق.

- وما الذي يجعلني أثق في أنه مال عن هدفه؟ قد يكون إسلامه مزيفًا، وحبه لي أيضًا زائفًا، قد تكون مجرد خديعة ليوقعني بها.

شعرت القائد العام بغضب واستياء ما يجتاحها نتيجة لكلمات رواية، فقالت مسرعة:

- أنا بالفعل لا أستطيع أن أذكر لك أسباب عدوله عن الانتقام، ولكني أستطيع أن أؤكد أنه أسلم إسلامًا حقيقيًا عن اقتناع، وأنه يحبك حبًا جمًا، فأرجوك لا تظلميه.

تدخل في هذه الأثناء قائد المجامع مبررًا:

- المهمة التي هو فيها الآن هي أكبر دليل على حسن إسلامه وصدق نواياه، أما اهتمامنا بك وحفاظنا عليك دون غيرك هو برهان وإثبات حبه لك، فما نقوم به هي وصيته لنا، وشرطه الوحيد للعمل معنا.

- أين هو الآن؟

فقالت علا، وقد هدأت كثيرًا، بلغة حنونة لطيفة:

- لم يناسب الوقت ولا المكان لمعرفة قصته بعد كما ترين الحالة التي أصابت القبة جراء ما حدث للصاقر، ولكن غدًا في منتصف الليل سوف تنقلك طائرة سودانية دبلوماسية للقاهرة، فسوف تصلين بيتك فجرًا لتنامين في أحضان والدتك، إن شاء الله.

في تلك الأثناء، وبعد أن هدئ الجميع وسيطر شعور ما بالارتياح، قام المندوب الإلكتروني للمجامع المتحدة مفزوعًا من مجلسه وهو يشخص ببصره في شاشة الجهاز التي أمامه وصاح بصوت مخنوق:

- أعتقد يا سيادة القائد العام أن الخطة هذه المرة لم تنجح بعد، وصل تقرير.

تقرير خطير. نحن في كارثة.

(٢٣)

تجلس أم إسحاق على أرضية الشرفة، بيدها اليمنى تقبض على الحاجز الحديدي، وبالشمال تمسك كوب الشاي، بعينها تنظر للشارع في اشتياق وتلهف، ترمى بأذنها لمتابعة جرس الباب، هذه مراسم احتفال وصول ابنتها الحبيبة، فلقد اقترب الموعد الذي أبلغتها به حنان، أخت إيمان، تغيب لبضع دقائق عن الحاضر لتسبح في الذكريات القديمة الأليمة، تتعجب من فعل الزمن بها وبحالها، تذكرت أول لقاء لها بزوجها عندما كانت في العام الأول بالثانوية العامة، حيث دائمًا ما يغازلها الشباب في الشوارع الجانبية بعباراتهم الساخرة:

- كم سعر الكيلو من هذا السمك الطازج؟

وآخر يقول:

- هل أنت مشط أم بلوطي؟

فيقول آخر:

- هذا حوت.

فيقول ثالث:

- أموت أنا في الحوت، العب يا سمك.

كان هناك شاب ثلاثيني، صاحب متجر، دائمًا يتابع هذا المشهد يوميًا أثناء الذهاب والإياب من المدرسة، وفي أحد الأيام تجرأ أحد هؤلاء المعاكسين، فأطال يده ليتحرش بثديها الكبير، ظنًا منه كمعظم الشباب المراهقين والجاهلين أنها مسيحية فهي منكسرة، ضعيفة النفس، لن تقوى علي المقاومة أو فعل شيء، وهي كانت كذلك بالفعل ليس لكونها مسيحية فقط ولكن بالإضافة لفقرها المدقع، ففي مصر أقلية مع فقر يعني السحق العلني بدون دية، غير أن الصدر الممتلئ في بلاد العرب جريمة، نعم يرونه جريمة تستحق صاحبته عقوبة مغلظة، إما لفظًا أو فعلًا، فكيف له أن يتجرأ هذا الصدر فيكبر ويزيد حجمه! ألا يعلم أن معظم العرب معقدين نفسيًا محرومين جنسيًا، ولكن هذا الثلاثيني لم يتقبل الموقف، فركض نحوها حتى خلصها من هؤلاء المتحرشين، وأخذ بيديها إلى متجره، وبعد أن اطمئن عليها وعلى نفسيتها استفسر منها:

- أتسمحين لي أن أسألك لماذا هؤلاء دائمًا ما يعاكسونك بالسمك؟

فتشجعت هذه المرة على الكلام، وصرخت به، وكأنه المسكين قد رأت فيه كل معاكسيها:

- لأن رائحتي سمك، ألا تشم الآن رائحة السمك تنبعث مني؟ أم أنك تخشى خدش مشاعري؟

- لا أقصد، ولكني كنت ...

فقاطعته بجدية قائلة:

- لا عليك يا أخ.

- اسمي عيسى

- وأنا نيلوس

- ما وراءك؟

- أنا ساكنة بلا مسكن، لاجئة بلا مأوى، عائشة بلا عنوان.

- هل تعيشين في العشوائيات؟

- يا ليتني أسكن في العشوائيات، فهي لي أجمل الأحلام، هي الجنة في عيوننا، أنا من سكان النيل، نأكل ونشرب في المركب، ننام في المركب، نقضي النهار في المركب، نعيش الحياة بأسرها في المركب، نصفه المطبخ، والنصف الآخر غرفة النوم، فحرفة أبي هي الصيد، ولا يملك أي شيء سوى قاربه، فلا جدران تجمعنا ولا سقف يحمينا.

- اعذريني، فلا أستطيع استيعاب هذا الأمر، فهل هناك أناس يعيشون في المراكب حقًا؟

- لا تستعجب كثيراً، فأبي لم يمتلك بطاقة هوية إلا حينما ألحقني بالمدرسة فأجبر على استخراجها، فتبرع له أحد سكان الضفة التي نتردد عليها بتسجيل عقد إيجار له حتى يتمكن من إلحاقي بالمدرسة.

قطع عليها تفكيرها دقات الباب المتتالية، فذهبت لفتح الباب لعلها تجد من يثلج صدرها الذي طال غيابه وسئمت انتظاره، فأصيبت بصدمة حينما وجدت حنان وهي تقول لها بأسف:

- اعذريني يا خالة، فلن تأتي رواية اليوم كما وعدتك، فهناك أمور جديدة.

(٢٤)

مرت عشرة أيام على انتقالهم لتوتي، على تلك الليلة المشؤومة التي كانت موعد المغادرة المتوقع، إحدى الجمع، تجلس رواية خلف المنزل بأحد المزارع الخضراء الجميلة في صحبة سماء، ومن حولهن نساء كل حي تجمعن في دوائر حيث يجلسن على الحصير، ويتوسطهن الصواني المليئة بالأكل والشاي والعصائر، والأشجار والنخيل من حولهن يتمخطرن ويرقصن علي أصواتهن الغنائية، فهي عادة نسوة توتي، الالتقاء كل أسبوع، بعد صلاة الجمعة، للغداء الجماعي، وللتشاور في أمورهن العائلية والخاصة، كما يقمن بجمع مبلغ محدد من المال لتغطية تكاليف اللقاء، والجزء الآخر يذهب لواحدة منهن طبقًا للقرعة التي تجريها أصغر طفلة بينهن، في أثناء متابعتهن لأنشطة هؤلاء النسوة، تحاول رواية مناقشة سماء في كثير من الأمور هنا وهناك، لعلها تفهم بعض الشيء مما يدور حولها، فمنذ تلك الليلة الموعودة، وبعد ما قاله المندوب الإلكتروني لم يحدثها أحد في شيء، ولكن يكسو وجوه الهياثم وقائدهم العام حزن أليم وحسرة وانشغال عميق، فهم في اجتماع دائم ومغلق، وفي أثناء جلستهن هذه تطلعت رواية لسماء بنظرات فاحصة ثاقبة ومتأملة ظلت عليها عدة دقائق أتبعتها بسؤال مفاجئ:

- هل أنت حقًا ما زلت بنت التاسعة عشرة وليس أكثر؟

فضحكت سماء ملء شدقيها وقالت:

- كثيرون من يقولون هذا، فما الذي أفعله غريبًا؟

- كلامك دائمًا حماسي، حديثك مليء بالثقافة والمعرفة والاطلاع، هذه معلومات إذا قيلت فلا تخرج إلا من فتاة تخطت الخامسة والعشرين أو ما يزيد.

- أنا لست مميزة ولا متميزة، فأنا فتاة طبيعية، هذا المفروض ما نكون عليه، انظري مثلًا للفتاة الفلسطينية التي لم تتخطَ العاشرة بعد، كيف أن لها لسانًا فصيحًا وقلبًا شجاعًا يرهب العدو المحتل.

- تذكريني دائمًا براتشل كوري.

- الأمريكية؟

- نعم، هل تعرفينها؟

- بكل تأكيد لقد قرأت عنها كثيرًا، أول أمريكية شهيدة تموت في غزة، ومن أجل غزة.

- حينما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، سافرت لروسيا، وفق برنامج تبادل الطلاب، وقالت في إحدى الحفلات:

"حلمي هو إنقاذ أربعين ألف شخص يموتون جوعًا يوميًا، من الممكن لحلمي هذا أن يتحقق بمشيئة الرب، إذا نظرنا للمستقبل وشاهدنا له النور الساطع، وهذا النور قد ينطفئ إذا تجاهلنا الجوع والقهر".

سرحت سماء قليلًا في الكلمات، ثم قالت:

- لقد كانت محقة تماماً، ولقد عملت بهذه القناعة إلى أن انتقلت لجوار ربها.

- أول رسالة كتبتها لوالدتها بعد أن وصلت رفح مع أصدقائها الثمانية في محاولة بائسة منهم لمنع التعدي الصهيوني الغاشم على سكان رفح وغزة قالت فيها:

"لا كتب، لا جرائد، لا أفلام تستطيع أن تصف ما رأيته أنا بعيني هنا في فلسطين".

- هذه كانت شهادة أمريكية منصفة، أما حكامنا في حينها كانوا يخرجوا علينا ببياناتهم التي تفيد بعدم الافتراء والكذب على المحتل بارتكابه تجاوزات، فالمحتل يحتلنا بعدل!

- كم كان يؤسفها ويحزنها موقف العرب وحكامه من القضية الفلسطينية، ماتت راتشيل بغزة بعد شهرين فقط من مكوثها في فلسطين، كان عمرها ٢٣ عاماً فقط.

- كلما رأيت صورتها وهي تموت يكاد قلبي أن ينفطر، كيف كانت لها الشجاعة أن تقف أمام المجرفة الإسرائيلية كدرع بشرية حتى لا يهدم البيوت، وكيف لهذا الحقير الصهيوني لم يرحمها، لم يفكر فيها، في أهلها، في أصدقائها، في براءتها، في شبابها، في حبيبها، وإنما مشى فوق جسدها ذهاباً وإياباً بدم بارد، آه يا زمن، آه منك وآه عليك، فبقتل هذه المسكينة قتلت الإنسانية بأسرها.

- كانت تبحث دائمًا لكي تفهم دور أمريكا في العالم، ودائمًا ما كانت تبحث عن إجابة لسؤال أرقها وأرهقها كثيراً، لماذا يكرهوننا؟

في هذا التوقيت، كان قائد المجامع وعلا على مقربة منهم، فقالت علا وقد بدأت أكثر أريحية عن أيامها السابقة:

- فيما تتحدث الجميلتان؟

- نحكي عن راتشيل كوري

فلما سمع قائد المجامع الاسم، تغير لون وجهه كثيرًا، قائلًا بصوت خافض:

- يا ربي، لقد ذكرتموني بالحبيبة.

سكت قليلًا، ثم استطرد:

- بعد أن قتلت، وعلمت بقصتها، ذهبت لوالديها بأوليمبيا، الواقعة بولاية واشنطن، وكنت حينها في مأمورية قريبا منها، تقمصت شخصية صحفي حتى أتعرف عليها أكثر، وأعرف عن هذه الفتاة الشجاعة الجانب الخفي من حياتها وما لا ليس بمعلوم عن شخصيتها، كان والدها رجل طيب شجاع، لقد كان صحفي ميداني يغطي حرب الفيتنام، وقد زرع في بنته الكثير من المبادئ الحسنة السوية العادلة للمدافعة عن حقوق الأقليات والوقوف بجانب الأضعف، وهي اختارت الوقوف بجانب فلسطين، لأنه الجانب المعتدي عليه والمحتل من قبل الصهاينة، ولذلك حينما قررت السفر لفلسطين لم يعترض والدها، أعطتني والدتها مذكرتها التي كتبتها أثناء تواجدها بغزة، أول ما قرأته كانت رسالة لصديقتها الفلسطينية الجديدة التي تعرفت عليها بمجرد وصولها فلسطين، ولما أحببتها كثيرًا أقامت معها بمنزلها، ظنًا بأنها كأمريكية لن يجرؤ الصهاينة على إيذائها، فكانت تأكل معها من

طبق واحد مقتسمين رغيفًا واحدًا، كما كانت تنام معها على الأرض متلحفين ببطانية واحدة.

أخرج قائد المجامع محفظته، وسلب منها قصاصة صغيرة، ملطخة بالدماء، دمائها الطاهرة، ثم قرأ:

- رسالة إلى صديقتي الفلسطينية، والتي هي كل فلسطينية:

"أنت جميلة من الداخل والخارج، كنتي لطيفة جدًا معي، لديك قلب حنون جميل، ولكن يا حسرتاه حياة الناس هنا صعبة، صعبة جدًا، فعلينا وعلى العالم أجمع أن يشعر بالخجل مما يحدث هنا، كما أن عليه أيضًا أن يتأثر ويتعلم من الأشخاص الأقوياء أمثالك، سأفكر بك دائمًا وأبدًا يا عزيزتي، اتبعي أحلامك، ثقي بنفسك دائمًا، ولا تستسلمي، حاربي عدوك الصهيوني الضعيف والمتخلف، ناهضي من أجل حريتك، مع حبي واحترامي".

تأثر الجميع بشدة من كلمات الشهيدة راتشيل، شهيدة الإنسانية، فقالت سماء:

- هذه شهادة أمريكية في وصف فلسطينية، ولكن أنظر اليوم للسياسيين العرب!

فتابعت رواية بتأثر واضح:

- دائمًا ما كانت تبحث عن معنى لحياتها.

فاستغلت علا حال رواية لتطرق على حديدها الساخن:

- ألا تبحثين أنت أيضًا عن معنى لحياتك؟

تفاجأت رواية من قولها، فارتبكت قليلًا قبل أن تجيب بثقة:

- دائمًا كنت أبحث عن معني لحياتي، ولقد وجدته حينما اهتديت للإسلام.
- الإسلام في حد ذاته ليس هدفًا، وإنما جعل الله الدين في العموم طريقة لإعمار الكون وترسيخ المبادئ الإنسانية.
- ماذا تقصدين؟ إلى أي شيء ترمين؟
- هل تقبلين بالعمل معنا؟
- إذا رفضت، ما العقاب؟
- لا شيء، ولكن عملك معنا ليس سوى إنقاذ لأنسيموس، فهو في خطر، خطر كبير، وأنت وحدك القادرة على إنقاذه، بل إنقاذ الإنسانية.

ساد صمت تام طويلًا، رواية تفكر في الأمر بجدية، من كل الجوانب، وما هي عواقب كل من القبول والرفض، وبينما الآخرين يترقبوا نتيجة تفكيرها وقرارها الذي يترتب عليه الكثير مما خططوا له، بعد التفكير هنا وهناك لم تجد رواية سوى

وضع مبدأ واحد لقرارها أي كان، وهو إنقاذ أنسيموس بخلاف ما هي الطريقة، فقالت للجميع بإقدام:

- إذا كان عملي معكم في صالح أنسيموس فأنا معكم قلبًا وقالبًا، وإن كان الأفضل للأنسيموس هو ضدكم، فأنا ضدكم وعدوتكم للأبد.

تفاجأ الجميع من هذا الرد القوي الشجاع والحازم، وعاد الصمت ثانية ولكنه لم يطل حيث قطعته الهيثم البكر بقولها:

- إذا فلنبدأ في تنفيذ خطة ستنا لبيبة.

فسألت رواية:

- لا أرى الدكتور علاء، فأين هو؟

- لقد حلق في الهواء ليتجول في بلاد الله الفسيحة استعدادًا للعملية القادمة، فأمامنا مهمة ليست هينة ولا يسيرة.

فقالت سماء وقد تقدمت من رواية لتودعها:

- والآن دوري، فأنا راحلة وقريبًا سنلتقي، في رعاية الله يا رفاق.

نظرت علا لرواية وقائد المجامع وقالت:

- ونحن سنعمل معًا لحين أن يشد كل منا رحاله، فكلنا راحلون عاجلًا أم آجلًا، كلنا يا رواية.

شعرت رواية بالقلق والتوجس، أحست بوجود رسالة غامضة في مضمون كلامها.

قال قائد المجامع ليقطع التفكير وليبدأ أول خطوة في تنفيذ ستنا لبيبة:

- الطائرات في الانتظار، علينا الرحيل.

فتعجبت رواية من قوله الطائرات وانزعجت، فسارعت علا لشرح الأمر:

- إحدى الطائرات سوف تنقلنا أنا وأنت فقط للمكان الآمن، والطائرة الأخرى سوف تقل فريق المجامع المتحدة، وفي الساعة المحددة سنلتقي، لا تقلقي طالما أنا في رفقتك.

وأقلعت الطائرات.

(٢٥)

استيقظت قصة من نومها لبكاء رضيعها، أخذته بين أحضانها، لقمته صدرها ليتجرع من لبنها، فسكت صراخه، ولكن لم يسكت صخب عقلها وصراخ خيالها، ألقت برأسها للخلف وأراحتها على السرير، وأذنت لعينيها بالبوح عما في داخلها، انهمرت الدموع الساخنة على وجه الرضيع الذي ما زال في شهوره الأولى، دخل والده الذي يحمل من الشجون والخطوب ما أثقل همه، وأنحى كتفه وأعجز شبابه، اقترب من الرضيع فلثم جبينه، وقبل رأسها، جلس بجوارها ليشد من أذرها بعدما رآها وقد كسا وجهها الغم والكمد، وانهمرت منها الشلالات، فبادرته سائلة في انكسار:

- أنا عاهرة؟!

- لا تقولي هذا، فنحن متزوجان.

- ولكن أي زواج هذا الذي يجعلنا نخاف، فنسجن أنفسنا في قصر لا نبرحه، ولا حتى نُعلم أحد بمطرحنا.

- ألست من طلبتِ مني الزواج بكامل إرادتك؟

- هذا صحيح، ولكن لماذا يحبسوننا هنا؟

- أتنسين أننا طلبنا هذا! أعتقد أننا هنا أفضل بكثير مما كنا فيه، على الأقل هناك كنت ميتًا بلا محالة.

- الحمد لله أنك أصبحت بخير يا حبيب الروح.

- هذا بفضلك بعد الله، يا حبيبة القلب والعقل والروح، جعلني الله حبيب عقلك وقلبك أيضًا.

تجاهلت دعاءه وعتابه، فقالت:

- ما فعلت إلا ما كان واجب عليَ فعله.

احتضنها بين ذارعيه هي وطفلها، ثم تطلع للطفل قائلًا:

- يشبه رواية كثيراً.

- فعلًا كلما تأملته وجدت رواية أمامي.

سكتت قليلًا ثم تابعت:

- افتقدتها كثيراً، أشتاق لها، أين هي وكيف حالها؟

- ما فهمته من الرجال الذين تفاوضوا معنا ليخرجونا من السجن، أنها بخير وتعمل معهم ولا داعي للقلق عليها.

(٢٦)

أثناء رحلتها على متن الطائرة الدبلوماسية المتجهة لمصر، لم تتمكن من حبس عقلها عن التفكير أو حتى تحجيمه، فهي في حيرة من أمرها لا يحسد ذهنها عليها، طَرق تفكيرها كل الاحتمالات، وخطر ببالها كل التوقعات، حاولت إعمال عقلها ولكن هيهات هيهات، فأين أنسيموس؟ وهل هو في خطر حقًا أم لا؟ إذا كان في خطر كيف ستساعده؟ هل هو في إسرائيل؟ هل هو في أمريكا؟ هل هو في أوربا أم في آسيا أم أفريقيا؟ عجز عقلها عن التنبؤ بشيء أكيد، إلى أن هبطت الطائرة الأراضي المصرية، ولكن في أي أرض مصرية هبطت؟! في قلب الصحراء الغربية، مطرح لم تعرفه ولم تعتده من قبل، مَربَع وكأنه لوحة لفنان سطر كل ما فيها بدقة وإبداع فائق الجمال، أرض تفوح بالشموخ والعراقة الفاخرة، واحة كبيرة مليئة بالنخيل والحقول المخضرة، والمباني البدوية البسيطة منتشرة هنا وهناك، كما واضح من على بعد صلابة أطلال عالية مشرفة، وقد تجمعت بعض من النسوة البسيطات، تحت نخليها، تغني موالًا:

دنيا قديمة ما تدوم لوالي

يا طول ما هدت من قصور عوالي

دنيا قديمة ما تدوم لوالي

تخرب العامر وتبني الخالي

أخبرتها علا بأنهما نزلا الواحات الداخلة، بمحافظة الوادي الجديد، وتحديدًا في قرية القصر الإسلامية.

لاحظت رواية، وهن في طريقهن لعصارة الزيتون، بأن القرية تعج بالسياح بالرغم من اختفائهم من جميع الأماكن السياحية المصرية الشهيرة، راجلين متنقلين في حب وترحاب، يعيشون حياتهم الطبيعية وكأنهم هاربين من العالم وصخبه ليقضوا أيامهم في هدوء وصفاء، هي أيضًا أحبت المطرح هذا كثيراً، فهناك أماكن من الوهلة الأولى نشعر معها بالارتياح، وبأننا عشنا وقضينا الأيام والأعوام نكافح في هذه الدنيا حتى نصل إلى هذه الجنة الأرضية لنستقر بها ما تبقى من الحياة، بعدما وصلوا مقر طاحونة عصر الزيتون، انتظرت علا اختفاء السياح والأهالي من حولهن وتسللت لأسفل الحجر فانتزعت كيسًا قماشيًا به ورقة بردية مغلفة فقرأتها:

"عز يدوم وسعادة لا تنقضي، وبلوغ ما تهوى النفوس وترضي، وسعادة مقرونة ما دام يخلط أبيض في أسود"، فأدركت علا خطوتها التالية، وهي البحث سريعًا عن المكان الذي تشير إليه هذه الكلمات الحكيمة، فأخذت رواية واتجهت في طريقها للعثور على نقطة الالتقاء، أما في الواحات الخارجية، وعلى بعد ٩٠ كيلومتراً منهن، اجتمع شيخ الصقارين بكل من الصاقر المصاب وقادة المجامع المتحدة والمطارح المنبثقة لما يربو على أربع ساعات متواصلة بمقرهم الآمن بصرح المعماري حسن فتحي، معماري الفقراء، بقرية باريس.

وصلت علا ورواية مقر بيت القاضي حيث وجدوا الكلمات المتفق عليها وقد زينت الوجهة الأمامية، فدخلتا، وكان الشيخ والصاقر وقائد المتحدة في انتظارهن، وبعد ساعة خرج الجميع ما عدا رواية التي لن تخرج منه للأبد.

(٢٧)

في شرفة القصر العتيقة، وإن كانت متهالكة ولكن يظهر عليها عبق التاريخ، حيث قصة وأنس يلاعبان طفلهما الرضيع، وتجلس بجانبهم الخالة توحيدة مشرفة القصر، التي تلبي احتياجاتهم وتعمل في خدمتهم، يطل أنس بعينه في الأفق البعيد المعتم ليسترجع الأحداث التي مرت على مدى العام، ويتذكر كيف أدخله جهاز أمني السجن بلا وجه حق، وكاد أن يموت لولا رعاية قصة له، ثم يخرجه جهاز أمني آخر وهو يعتذر له عما حدث من جرم في حقه وحق قصة وحق الرفاق، وحينما سأله أحد القادة الكبار بالجهاز عن كيفية وآلية تقديم الاعتذار المناسب لرفع اللوم عنهم وليعوضهم عن الفضيحة الكبرى التي لحقت بهم ظلمًا وبهتانًا دار الحوار الآتي:

- ترى القيادة العليا أنه يتوجب علينا حمايتكم وتقديم كل السبل والآليات لتعويضكم عما اقترف من جرم وذنب في حقكم.
- لسنا في حاجة إليكم ولا نريد منكم شيئًا سوى أمرين، يتم نشر تكذيب عن كل ما لحق بنا من تلفيق، والآخر الاعتراف بزواجنا رسميًا.

فتفاجأ القائد المسئول وقال في تعجب:

- نشر تكذيب مستحيل، ولكن لا أفهم ما تعنيه، ماذا تقصد بزواجكم؟

- عندما جمع بيننا وبين بقية الرفاق معًا في زنزانة واحدة في الأيام الأواخر لمحبسنا، تناقشنا بعناية جيدة وبنظرة مستقبلية فيما أوقعه القدر علينا من بلاوي ومصائب، وخرجنا بنتيجة واحدة يقينية لا شك فيها، ففقدنا الأمل كل الأمل في خروجنا جميعًا سالمين من هذا الجحر الثعباني، فعقدنا العزم وأخذنا الخطوة المفترضة والوحيدة أمامنا لتنقذ الناجي منا أمام المجتمع وأمام نفسه ولنتعهد على أنفسنا الارتباط الوثيق ببعضنا البعض في الضراء قبل السراء، فحللنا على أنفسنا ما اتهمنا به باطلًا، فعقد كل رجل منا القران على إحدى الرفيقات.

فنظر القائد بذهول منقطع النظير في جميع المتراصين أمامه، واختص قصة بنظرة خاصة في تساؤل منه عن مصيرها وهي، على حد علمه، كانت على المسيحية، فأجابته قصة بثقة وبلا مبالاة واضحة:

- ما زلت على المسيحية، وسأظل للأبد خادمة للمسيح، ولكن هذا لم يمنعني من الزواج بأنس.

- ولكن كيف تزوجتم بلا مأذون أو شهود؟

- الزواج الشرعي هو العلانية في محيط الزوجين، ونحن محيطنا غرفة من أربعة جدران، فاتخذنا من بعضنا شهودًا وقرأنا الصيغة، وبارك الله لنا وعلينا.

صدم القائد من هذا التفكير الجبار والشجاع، ولكنه تذكر قصتهم الأصلية وكيف تحدوا الواقع الطبيعي الذي يعيشون فيه، فليس بالعسير عليهم تحدي الأمن

والسجن وضربهم بالمجتمع عرض الحائط، وبعد الاجتماعات الكثيرة والمناقشات الفياضة في القيادة العليا، تقرر توفير مبالغ مالية وتأشيرات سفر لجميع الرفاق على حسب رغباتهم، إلا أنه فرض على أنس وقصة عدم مغادرة البلاد في الوقت الحالي، وإخضاعهم لأجل غير مسمى في مسكن إجباري إذا ما كان كلاهما ما زالا راغبان في استمرار زواجهم والاعتراف به، وهو ما اتفقا عليه أنس وقصة في آخر الأمر، وكانت القيادة تشعر بأن بقاء أنس وقصة داخل مصر وتحت عيون الصقور أمرًا هامًا وضروريًا قد يحتجان له في المستقبل القريب أو البعيد.

لم يقطع على أنس ذكرياته المؤلمة والمملة سوى سؤال قصة للخالة توحيدة لتحكي لهما شيء من قصصها حتى تؤنس وحشتهم، فأخذت الخالة تقص على مسامعهم قصة حقيقية طريفة متواترة سمعتها من والدتها عن جدتها فسردت:

- في بدايات القرن العشرين، حيث الاحتلال البريطاني لمصر، كانت تشتهر بلدتنا هذه دير مواس، الكائنة في شمال صعيد مصر، بإنتاج العسل الأسود ذي الطعم الجذاب المتميز، وكان هناك رجل يدعى عفيفي بن عفاف، حدثته زوجه ذات ليلة فقالت له:

- والله إن لاسم أبيك تعيس فياله من اسم نسائي، وإني قد رأيت في منامي لو لقبت بعفيفي بن أبي زيد، على غرار أبناء العمدة زيد، أشراف البلد لزاد عليك الخير كله.

فاقتنع بحجتها، ومن ثم أخذ يشتهر بين الناس بلقبه الجديد، عفيفي بن أبي زيد، كان يشتغل بصناعة العسل، فيصنعه ومن ثم يرسله للقاهرة للبيع، وكان قد اختزن كمية كبيرة منه فقالت له زوجه:

- رأيت في منامي، أن العسل غالي الثمن لأنه شحيح في الأسواق، فباكر ترسل كل ما لديك إلى القاهرة.

فأعد العدة، وعند بزوغ الفجر أمر عماله، فحملوا الزلع إلى محطة السكة الحديد، وكان عددها مائتي زلعة، أخذ ينتظر القطار وبعد برهة قصيرة من الزمن، تزاحمت على المحطة جموع غفيرة من البشر، فسأل عن سبب التجمع فأجاب أحد المتجمعين:

- اليوم ميعاد مرور قطار الضباط البريطانيين عائدين من السودان.

- لقد كان موعده البارحة.

فأجابه الرجل فرحًا:

- لقد تعطل في أسيوط بالأمس، فقدر لنا اليوم أن نتظاهر أمامه لنعلمه بمطالبنا.

فرد عفيفي مرتبكًا:

- ولكني والله أشعر بأنه قدري وقدر عسلي.

ثم ألقى بصره على الزلع المتراصة حول سكة الحديد في خوف وقلق واضح ثم أردف:

- من أميركم فأحدثه؟

فقال الرجل مشيرًا بأصبعه بعيدًا:

- إنه هذا، خليل ابن أبي زيد.

فتحير عفيفي وشرد وقال في نفسه:

- ما شأني وشأن هؤلاء، لقد انتحلت لقبهم، ولو ذهبت إليهم لعلهم ينحرون رأسي، فلنصبر وننظر ماذا تخبئ لنا هذه الساعة.

أخذ ينتظر، وكلما اقترب ميعاد القطار تزداد جموع الناس، بينما هو يزداد قلقًا ويرتجف قلبه، وظل هكذا حتى أتى القطار، وتحولت المسيرة الشعبية السلمية إلى ملحمة ثورية حقيقية، قتل فيها الضباط البريطانيين التسع، وما كان على الثوار أسهل وأيسر من قذف القطار بالزلع، فلم يبقَ من أثره شيء، فعاد عفيفي إلى بيته جارًا قدميه بالانكسار والخيبة فاستقبلته زوجه صائحة:

- ويحك يا عفيفي، ما أعادك بطولك لا شيء أمامك ولا خلفك؟

فسرد عليها ما حدث، وناموا، وفي الصباح جاءته بمنامها:

- اطمئن، فلقد رأيت في منامي البارحة بأن أبناء أبي زيد سوف يشيدون ببطولتك في الملحمة الثورية لفقدانك عسلك، وسوف يكرمونك بأفضل التكريم والتشريف والتقدير.

أخذ بمنامها على أمل تحقيقه قريباً، وكان حينما يسير في الطرقات يرى الناس تهمس لبعضهم البعض، وكأنهم يشيرون إليه، ولكن كانت تصبره قائلة:

- اصبر يا قعودي، فلقد رأيت في منامي بأنه سيأتي منهم من يكافئك بأضعاف ما خسرت من عسل وفقدت من مال.

مرت الأيام القليلة وفي إحدى الليالي، قرابة الفجر، دق الباب فأيقظته قائلة:

- قم لترى من بالباب، لقد رأيت في منامي الليلة بأن أبناء أبي زيد جاءوا ليعوضك عن عسلك.

فقام مستبشراً فرحاً لفتح الباب، فوجد القوات البريطانية هي القارعة، فأخذوه، وترحل للمحاكمة العسكرية هو وثمانين معه لمشاركتهم في قتل الضباط التسع،

وبعد قرابة شهر نُطق الحكم بالإعدام على ٧ فقط من المتهمين، ثلاثة هم أبناء أبي زيد بك وثلاثة من أولاد عمومتهم، والسابع هو عفيفي بن أبي زيد.

فسأل عفيفي القاضي مستنكرًا:

- ولمَ أنا؟!

فقال القاضي متعجبًا:

- ألست ابن أبي زيد؟

- لا والله، ما أنا بابن أبي زيد.

فقال القاضي البريطاني مستخفًا به:

- فمن أنت إذن؟

- أنا من اختلط عسله بدمائكم، ويا ليته كان اختلط بدمائها.

فقال القاضي بحزم:

- بدماء من تعني؟

فقال بحسرة وانكسار:

- من كان منامها دليلي.

أضحكتهم القصة طويلًا، حتى قال أنس:

- نحن إذن في دير مواس؟
- نعم نحن في دير مواس التابعة حاليا لمحافظة المنيا.
- لقد قرأت ذات مرة بأحداث القطار الصعيدي الذي ذكرتيه في القصة ولكن لم أكن أعلم بأن هناك من أعدم في هذا الحادث.

فتابعت قصة باستعجاب واستنكار:

- وأنا لا أعلم أي شيء عن هذا التاريخ، ولا هذه الأحداث والإعدامات.

فقالت الخالة بحسرة:

- إنهم رجال ونساء صنعوا التاريخ فنسيهم التاريخ يا بنيتي.

ثم أخذها الصمت قليلًا، تشخص ببصرها في إحدى أركان الشرفة، قبل أن تستطرد:

- في مكانك هذا يا بنيتي كانت تجلس ستنا لبيبة كل ليلة، وأمامها الشيشة الخاصة بها، وكانت الشيشة للسيدات آنذاك في الصعيد لا حرج فيها، وكان دومًا

في صحبتها خليل بن أبي زيد حيث يخططان لمقاومة الإنجليز، وهو ما نتج عنه ما حدث في ١٨ مارس الذي أصبح عيد المنيا القومي فيما بعد.

- خليل هذا هو زوج لبيبة؟

- لا الدكتور خليل هو ابن زوجها، أبو زيد، أثناء دراسة خليل في بريطانيا العظمى تزوجها العمدة وكانت ابنة شيخ الأزهر آنذاك.

- نحن في قصر العمدة إذن؟

- نعم نحن في قصر الشهداء الأحرار، قصر سيدي العمدة أبو زيد.

فسأل أنس في لطف لا يخفي شغفه:

- هل تستطيعين أن تقصي علينا هذه القصة بإيجاز، فلديّ فضول لمعرفة هذا التاريخ المثير والمنسي من ذاكرتنا وكتبنا؟

- أرسل العمدة ابنه خليل لدراسة العلوم الزراعية في إنجلترا، فعاش هناك وخالط الأجانب وتعلم التحضر والتمدن ورأى الحرية الحقيقية ومارسها، وحينما عاد لمصر وجد الاحتلال الإنجليزي الغشيم كاد أن يقضي على الأخضر واليابس، ويكاد الفلاحون يموتون جوعًا، فانشغل بأمرهم، وكان والده أيضًا معاديًا لسياسة الإنجليز علانية وسرًا، وكان يبغضهم بالرغم ما كان لديه من الأراضي والدور والقصور والمخازن المليئة، فكان ينفقها على الفلاحين ليل نهار، ودومًا ما حاول مقاومة الإنجليز، وكانت تشجعه على ذلك زوجته الثانية الشابة لبيبة، الجميلة

الأنيقة، بنت شيخ الأزهر، كانت متفتحة مثقفة متعلمة تحب الحرية والكرامة وتبغض الاستعباد والذل، وكانت علاقة ستنا لبيبة بالدكتور خليل قوية، منذ أن كان بإنجلترا، فبعد أن تزوجت من العمدة وساكنا بمصر، ولمعرفتها بالكتابة ولحسن قلمها، كانت تكتب الخطابات التي يرغب في إرسالها العمدة لولده، ومع الوقت وُلد داخلها رغبة في تزويج خليل من دولت، أختها من أمها، فبدأت تكتب له أخبارها وترفق معها الصور من خلف أهلها وزوجها، وهذا ما أدى إلى تعميق العلاقات وتوطيدها بينهما من قبل أن يتقابلا وجه لوجه، وحينما عاد خليل لمصر، قرر العيش بدير مواس، ثم عاد العمدة لموطنه بلبيبة، فبنى لها هذا القصر الجميل بأفضل المهندسين والمعماريين الأجانب، فكما ترون اليوم روعته وإبداعه من كل زواياه.

أطبق الصمت بعض الوقت سرحت فيه الخالة توحيدة في فخر واعتزاز في أحداث ١٨ مارس ثم أردفت:

- هذه الأحداث المجهولة للأبطال المنسيون مهدت لصنع أكبر وأهم حدث تاريخي مصري ألا وهو ثورة ١٩١٩م، بل هي تاريخ في حد ذاتها، تاريخ مستقل، مشرف، عريق، كما أنه عزيز علينا، ولكن واأسفاه فلقد نُسي من التاريخ، بل سرق ومزق من صفحات الكتب لأنه لم يجد من يدافع عنه وينادي به، مثله مثل الكثير من الأحداث التاريخية العريقة في مصر والتي طويت في صفحات التاريخ المنسية، علمنا وسمعنا أن سيدي عباس محمود العقاد كان ينوي تسجيله وتأريخه، وقد

شرع بالفعل في تجميع مصادره، إلا أن القدر أبى علينا هذا الشرف، فحرمنا منه، وانتهى أجلنا بانقضاء أجل عقادنا.

(٢٨)

في باطن كنيسة السيدة العذراء، خرجت رواية من النفق الأثري والسري الممتد من بيت القاضي بقرية القصر حتى كنيسة السيدة مريم العذراء بدلجة، إحدى قرى المنيا حديثًا ومدخل الصعيد قديمًا، ثاني أكبر القرى المصرية وأشهرها على مدى التاريخ، اشتهرت في زمن المسيحية بشهدائها، وفي أوائل الإسلام بقادتها وأبطالها، وفي عصر العلم والفلسفة والترجمة بعلمائها، وفي أيام التجارة ورأس المال بتجارها، وفي الآونة الأخيرة حيث زمن الانقلابات والمجازر، اجتازت شهرتها البحار والمحيطات بأحداثها.

سلكت رواية النفق طبقًا للخطة الموضوعة من قبل القبة لحمايتها بعدما أدركوا مدى أهميتها، حيث إنها موضع استهداف لتصفيتها من قبل جهة ما، عندما خرجت رواية لصحن الكنيسة بصحبة مرشدها، قائد المطارح المنبثقة، وجدتها محترقة خراب، بالرغم ما لها من عراقة وأصالة ونشأة قديمة ترجع للقرون الأولى من ميلاد السيد المسيح عليه السلام، كان ينتظرها هي وقائد المنبثقة، طبقًا للخطة، الدكتور علاء لتوصيلهم للمقر الآمن المتفق عليه، فركبوا السيارة وساروا في طريقهم، وكعادتها الفضولية لن تترك رواية الفرصة لمعرفة سبب حرق الكنيسة الأثرية بهذا الشكل والوضع المخزي، فسألت علاء في استنكار شديد:

- لمَ هي محترقة بهذه البشاعة؟

- نحن في قرية دَلجة يا رواية، بفتح الدال لا بكسرها.

- يا الله، أليست هذه القرية التي قتل فيها ذاك المسيحي بعشر طلقات، وما يربو على عشرين طعنة، كما هُجِّر الكثير من أقباطها ودمرت منازلهم وأحرقت كنائسهم بالتزامن مع فض اعتصام رابعة؟

- نعم هي بعينها التي حدث فيها كل هذه الجرائم البشعة.

- وهل صحيح أن الجهات الأمنية اقتحمتها بالدبابات والمظلات والطائرات والفرق الشرطية والعسكرية؟

- داهمتها وهاجمتها بكل ما أوتيت من قوة، شردت المئات من عائلاتها، اعتقلت ما يقرب من ألفي شخص، خرج منهم من خرج، وبقي من بقي، ومات من مات.

- حسنًا، فلا بد من العقاب، فالأقباط، على أي حال، في ذمة الله ولهم كل الحقوق في الأمن والأمان.

- ما حدث في دلجة جريمة شنيعة مريعة مخجلة لهم ولنا وللمسلمين عامة، كما أنه إثم كبير نهى عنه الإسلام وجرمه وحرمه، ولكن ليس العقاب لجريمة شنيعة أن يتم الانتقام بجرائم أشنع وأكثر بشاعة وجرمًا، لم يقبض على أي ممن ارتكبوا الجرائم، سواء بالتحريض، أو بالفعل، وإنما تركوا أحرارًا، اعتقل الفقراء والصالحون الذين لم يرتكب معظمهم أي جريمة من أي نوع، عانوا من أقسى وأقصى أنواع العذاب الجسمي والنفسي، أما الفاعلون والمحرضون بالمال والكلام

هجروا البلدة، يتنعمون الآن بالأموال والتجارات والعقارات وكل شهوات الدنيا، وهؤلاء الصالحون المظلومون عانوا من الجوع، والقهر، وحظر التجوال، والإقامة الجبرية في منازلهم لأكثر من عام على هذا المنوال، ظل هؤلاء الناس طوال لياليهم يترقبون الموت مرتعبين مرتجفين في انتظار اقتحام منازلهم، ضربهم، قتلهم، سحقهم في الشوارع، وهذا ما كان يحدث بالفعل، فما أقمرت ليلة إلا واقتحمت عشرات المنازل، ودمرت أثاثها، وسحل المئات في الأزقة والزنقات، إلا من رحم ربي من أصحاب الواسطات والعائلات البوليسية، فكل من لا واسطة له، دمر وأهلك وسحل وعذب ورأى ما لم يتحمله جسد ولا يتقبله عقل.

- أرى أنك حزين على هذه القرية يا دكتور؟

- حزني ليس مقتصرًا على هذه القرية أو تلك، وإنما ما وقع على المصري بشكل عام والدَلجي بشكل خاص من تنكيل وسحل وظلم علني بكل تبجح.

سكت برهة، اتضح فيها الانكسار والغم والحسرة، ثم أردف:

- التقيت ذات مرة، منذ عشر سنوات على الأرجح، رجل من هذه القرية، معلمًا صالحًا طيبًا لا دخل له بالسياسة ولا صراعاتها، بالرغم من القوة والنفوذ الأمني والحركة السياسية التي تشغل هذه القرية برمتها، حكى لي هذا الرجل قصته وكيف بدأ من أقل القليل حتى أصبح رجلًا يضرب به المثل في النجاح، وأصبح صاحب أهم وأشهر المكتبات في هذه القرية التي لا يستطيع أي نجاح زائف أن يصمد فيها، فهي من أهم وأكبر مراكز التجارة في الصعيد، بل في مصر، فمن بين

أهلها عشرات من رجال الأعمال الذين تتعدى ثرواتهم الملايين التي لا تعد، فدلجة تصدر الأغلال والحبوب لجميع البلاد العربية من أقصى المحيط لأقصى الخليج، فإذا آتى أثرياؤها الزكاء فقط، فلن يظل بها أو بغيرها من القرى المحيطة فقير قط.

أخذ ينظر علاء عن شماله محدقًا في المرآة وسرح كأنه يتذكر شيئًا، ثم استطرد:

- تعمقت علاقتي بهذا الرجل، صرت أحدثه ويحدثني من حين لآخر، وعندما دخلت قوات الاقتحام البلدة كنت أطمئن عليه بين الفنية والأخرى، وفي الآونة الأخيرة كان يحدثني مرتعدًا خائفًا فلقد اقتحم باسمه مثل المئات غيره ظلمًا في كشوف المطلوبين التي أعدها بعض المرشدين، الذين جعلوا هذه القضية تصفية لاختلافاتهم الشخصية والعائلية، فصنعت دفاتر كاملة، وكشوف من عشرات الأوراق تضم بينها مئات الأفراد ممن ليسوا بعلاقة لا من قريب ولا من بعيد بهذه الأحداث الدموية، فمنهم الشيخ الكهل والطفل الرضيع والشاب العاجز، وأسماء كتبوها وأحداث راوها لا يقتنع بها كل ذي عقل، بينما أصحاب اللحى المزيفة، وأصحاب الأعمال الذين كانوا يطمعون في الحصص المحلية والذين أنفقوا عشرات ومئات الآلاف على هذه الجرائم، تركوا بلا أدنى عقاب أو أي مساءلة، اشتروا هروبهم ونفيهم خارج القرية بالمال والواسطات، فالعار كل العار على دولة تعتمد كل الاعتماد على مرشدين مرتشين، وواسطات فاسدة لا نهاية لها.

ذلك الرجل المسكين هاتفته إحدى المرات، وكان هارباً في دار مهجورة وسط الحقول، اتخذها ملجأ له لتحميه من عيون المرشدين الشرطيين وتعصمه من بطشهم، وبينما هو يحدثني في الهاتف المحمول اقتحم خلوته أحد أقاربه بفزع وهلع ليبلغه بأنه جارِ البحث عنه من قبل قوات الأمن، وداهمت الشرطة منزله للمرة الثالثة، فأفزعوا أولاده وزوجه التي سقطت مغشياً عليها وفي يديها طفلها الأصغر، فارتعد وارتجف وأخذ الضيق والحنق الشديدين يجتاحا صدره، وشرع يصرخ بصوت مبحوح وأنا على الجانب الآخر من الهاتف:

"كفى ظلمًا يا الله، لم أعد أحتمل هؤلاء الجبابرة وهم يكسروننني ظلمًا وبهتانًا، اللهم عليك بهذه الدولة الظالم حكامها، اللهم أذقهم العذاب في الدنيا والآخرة، اكسر قلوبهم، حطم نفوسهم، نكث رؤوسهم، أزل ملكهم، أزل ملكهم، أزل ملكهم".

اغرورقت عينا علاء بالدمع الحار قبل أن يردف:

- وظل يدعو هكذا لمدة دقيقتين قبل أن تضطرب أنفاسه، ثم صمت، صمت للأبد.

غلبت الدموع عينيه حينما تذكر تلك اللحظة بكل تفاصيلها الموجعة، فهناك شخص برئ يموت على مسمع منه قهراً وظلمًا، يا له من موقف عصيب عسير، ويا لها من لحظة مؤلمة تلك التي تموت فيها العدالة أمامك ولا تجرؤ على تغيير شيء، أو حتى مجرد التفوه بكلمة واحدة، أما رواية فشهقت لموته وقالت في تأثر بليغ:

- الإحساس بالظلم والشعور بالقهر عذاب أليم يقتل الإنسان بالبطيء، فهو سم يجري في الوريد إلى أن يقضي عليه.

أما علاء فكفكف دمعه قائلًا بصوت أجش:

- رحمك الله يا عاصم، كان مسالمًا حتى مع الظلم.

- كم هم مساكين، جلساء الكنبة الصامتون، يرضون بالظلم والأذى والذل خشية شر الظالم، فيأبى الظالم صمتهم فيقتلهم حسرة وندامة.

أخذت رواية تتجول بعينيها من نافذة السيارة بين الشوارع والأزقة والمساجد والأسواق والبيوت، وتقلب بصرها في الوجوه، وتتعجب للمتناقضات التي تملأ القرية، من أبرزها مجاورة البيوت المتواضعة والمتهالكة والقديمة للقصور والبيوت الضخمة والحديثة، ثم سألت بحذر:

- ولكن ما الذي يدفع بأناس صعايدة لهم أصول وسلالات وعائلات عريقة ومتنوعة من كل العروق والأجناس، كما أنهم تجار ناجحون، وأحفاد لفلاسفة وعلماء أزهريين علموا الآلاف في القرون السابقة جميع العلوم والفنون، ومنهم العشرات من أصحاب المناصب في أرقى وأهم أجهزة الدولة الأمنية، بأن يقدموا على مثل هذه الأفعال الخبيثة والجرائم النكراء؟

- هذه القرية التي نسير فيها الآن وتتطلعين إلى أناسها من أكثر القرى الإسلامية حفظًا للقرآن، فالأغلبية من أطفالها يختتمون القرآن كاملًا حفظًا قبل أن يتموا عامهم الخامس عشر، وبها من المشايخ والعلماء والفقهاء الكثير، ولكنها مثلها مثل مئات القرى الصعيدية التي غلب الجهل عليها فأكسبها التعصب الديني اللاديني المحرم بنص القرآن الكريم والسنة النبوية، ولهذا لا تخلو فترة إلا ويصلنا أنباء عن أحداث طائفية في القرية الفلانية، أو القرية العلانية.

- صحيح فالجهل هو المعضلة الحقيقية في مصر، كما أعتقد أن الجهل هو مشكل أدى إلى تعصب متبادل بين المسلمين والمسيحيين أيضًا.

- غالبية المسلمين وغالبية المسيحيين في مصر يكرهون بعضهم البعض كرهًا حادًا، وإن تبسم الجميع في وجه الجميع، وأنا مسلم وأعرف كم يكره المسلمون المسيحيين، وأنت كنت على المسيحية وتعرفين كم يبغض المسيحيون المسلمين، ومن يلفظ بغير ذلك فهو مضلل كذاب، وإن تمكن أحد الفريقين، وخاصة في الصعيد، أن يبيد الآخر لفعل في الحال دون تردد أو أدنى تفكير، ولكن القانون وما سيحل من عقاب هما المانعان الوحيدان لخمول الفكرة مؤقتًا.

تنفس علاء بأريحية كبيرة، وكأنه فارس فاز لتوه في معركة خاضها بكل بسالة، ثم تابع يقول بكل جدية:

- ولكن يا رواية أريد أن أنبهك لشيء هام للغاية، كره المسلمين للمسيحيين ليس لأن الإسلام أمر بذلك، وبغض المسيحيين للمسلمين ليس لأن المسيح عليه

السلام أو المسيحية علمتهم ذلك، ولكن لأن هؤلاء طائفة وهؤلاء طائفة، والإنسان الجاهل من اليسير زراعة الحقارة فيه بسهولة، فيحب نفسه أولًا، ثم يفضل أخوته، ثم يحب قبيلته، ثم يفضل طائفته، وهو تطبيق للمثل الشهير "أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب".

انظري في الإسلام، كم تبغض كل فرقة أصحاب الفرق الأخرى، ولو أطالت نحر الآخرين لفعلت بكل ترحاب، فكل منهم يرى أنه وحده الحق، وتأملي في المسيحية كيف كل فرقة تريد لو أن تقضي على الأخرى وتحاول جاهدًا تكفير البقية، وكم من حروب نشبت وكم من رجال قتلت بسبب الطائفية، فمثلًا في مصر، السنية عندما يتعلق الأمر بالشيعة يقولون إن اليهود والنصارى أحب إلينا من الشيعة فهم أقل كرهًا لنا، وكذلك البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس في المسيحية، ولهذا فمشكلتنا الحقيقية هي الطائفية، وهي ليست من صنع الدين بدليل تحارب أبناء الدين الواحد، وإنما هي من صنع السلطة باختلاف مسمياتها على مر العصور، نعم السلطة يا عزيزتي هي التي صنعت كل هذا التحارب وزرعت كل هذا الحقد والكره، بانتزاعها الإنسانية من داخل كل إنسان، فأصبح الإنسان اسمًا فقط خاويًا من الداخل، فلا ضمير ينبض ولا عقل يفكر، أصبح ابن ادم جسدًا بدم ونفس فقط، فكل الحكومات والسلطات الجبارة الفاسدة تعمل منذ الأزل على صنع فئات وإيجاد أقليات لاستخدامها كفزاعة يرعبون بها الأغلبية، وفي نفس الوقت يزرعون في الأغلبية الحقد والكره ليتولد السخط بداخلهم على كل من هو مخالف لهم في عرق أو دم أو دين، ثم يقوم هؤلاء الحكام الفسقة بصنع القوانين بزريعة حماية

الأقليات وما يتبعها من جمعيات وشعارات رنانة كذابة، فهم المحرضون وهم الحامون وهم أولاد الكلب أيضًا.

- اتفق معك بشدة يا دكتور علاء، فالمتسامحون دينيًا الحقيقيون ليسوا رجال الدين المسلمين أو المسيحيين الذين عرفوا الدين جيدًا ومن المفترض هم الأعلم بتعاليم الدين التي تدعو للتعايش والتسامح وتقبل الآخر، وإنما المتسامح الحقيقي هو أي إنسان ما زالت إنسانيته فيه فلم ينصب نفسه إله يحاسب ويعاقب كيفما ووقتما شاء، وإنما عمل بدينه وطبق منه في حياته ما يرضي ربه، وتعامل مع الآخر طبقًا لإنسانيته التي بداخله التي تتسع لتشمل كل العالمين وليس أهل ديانته فقط.

- عدم اعترافنا بمشاكلنا الحقيقية، وإن كانت قاسية هو ما يأخرنا ويخلفنا عن ركب التقدم والتحضر، مهما كانت الحقيقة مرة لاذعة إلا أنها الجزء الأكبر من الحل، فحينما تحدث أي مشكلة طائفية يخرج علينا دعاة الإسلام ورجال المسيحية ويشيدا بمصر العظيمة المتسامحة التي تقبل كل الأديان، مع أن الحقيقة على نقيض ذلك، فلماذا لا يعترفون بفاعلية الجهل المتعمد من قبل السلطات؟! فما هم أيضًا إلا دمى في يد الحاكم يروضهم كيفما يشاء.

- ولكنني راغبة في الاستفسار عن شيء آخر بعيدًا عن السياسة وأصحاب السلطة وما يستغلونه في الترويج لأفكارهم وكسب المناصب، فهناك في اليهودية

كل من هو غير يهودي فهو كافر، وفي المسيحية كل من هو ليس مسيحيًا فهو كافر، وفي الإسلام كذلك، أليس هذا أحد أسباب التحارب والقتال؟

- هذا الأمر موجود في كل ديانة، ولكن دليني على أي رب من أصحاب كل الديانات الموجودة يشترط أن يكون الكون كله من أقصاه لأقصاه يدين بدينه وحده؟

- لا يوجد أي رب يطلب أو حتى يعترف بهذا، ولكن من المؤكد أن كل إله يريد لديانته أن تنتشر وتسود العالم، ولهذا كل إنسان يشعر بالرغبة في محاربة أعداء ربه.

- إذا كان يريد أي إله حقيقي أن يدين العالم أجمع بدين واحد، لأوجد دينًا واحدًا وخلق البشر جميعًا على التدين به بالفطرة، وخلق جنة بلا نار، وأعدم إبليس، وأنهى وجوده من الحياة للأبد، أليس قادرًا على هذا وهو إله الكون بأسره؟! فيا بنيتي مهما كان الإله الحقيقي سواء رب اليهود أو رب النصارى أو رب المسلمين أو أي رب لأي ديانة فهو يريد التعدد والتنوع، ولهذا فالخالق الحقيقي ورب هذا الكون خلق شيئين أساسيين في الوجود، الشيء الأول هو العديد من الشرائع سواء كانت سماوية أو بشرية، وجعل كل دين مهمته في ربط مجموعة من الناس في إطار معين من القيم والأخلاق، فهناك اليهود ولهم قيمهم وهناك المسيحيون ولهم قيمهم، وهناك البوذيون وهكذا.

والشيء الثاني أنه خلق شيء واحد موحد، كرابط يجمع عليه كل الناس بالرغم من الاختلافات الفرعية من أجل إيجاد سبيل للمعاملات والتنوع والتعدد بينهم، ألا

وهو الإنسانية، فوضع في جميع الخلق إنسانية حقيقية بما تحمله الكلمة من معني جميل طاهر، فمن سلمت إنسانيته وحافظ عليها فلم تنحرف عن مسارها القويم استطاع أن يتعامل مع كل الأشكال وكل الناس باختلاف اللغات والألوان والأجناس والأديان، ومن فقد بعض إنسانيته فلا يستطيع إلا أن يتعامل مع فئته المحدودة سواء تربطهم ديانة أو عرق أو نسب أو غيرهم من الروابط الفرعية، وأما من فقد إنسانيته كاملة فلا يستطيع التعامل إلا مع نفسه فقط.

استغرقهم الحديث الفكري فلم يشعروا بالوقت ولا بالمسافة التي قطعوها، وفجأة إذ بهم على مقربة من المقر الآمن، فالمنظر المحيط للمكان جعل رواية على غير عادتها من الفضول، فأخذت تطالع الحقل وتتأمل القصر، وقبل أن تشرع في أسئلتها المعتادة عن المكان عندما توقفت السيارة، حدث آخر ما توقعته، وقع شيء تمنت لو أتت لهذا المكان منذ مئات الأيام وآلاف الساعات، فإذ يفتح باب السيارة، على غرة، وهي مشغولة بمطالعة المكان ويأتيها صوت رقيق يخالطه الدموع ولكنه مألوف لديها وإن لم تكن سمعته واستمتعت به منذ أمد طويل:

- اشتقت لك يا رواية، الحمد لله على سلامتك.

جسدها تسمر، عينيها شاخصتين، أذنيها لم تصدق ما سمعته، فأخذت الواقعة منها نصف دورة للدقيقة مرت طويلة، بالغة الطول، قبل أن تطل على مصدر الصوت في محاولة منها لتصديق أذنيها بأن الصوت هو بعينه ذاك الصوت المألوف، وأدارت

نفسها ووجهها ببطء ناحية المصدر لترى بعينها حقيقة هذا الحلم الذي تعيشه، وما أن وقعت عينيها على قصة حتى انقضت عليها فرحًا وذهولًا حتى أبرحتها أرضًا، وسقطت فوقها وهي تقبلها تارة وتضربها تارة، لا تقوى على الكلام، فتخرج الحروف بين ثنياها متقطعة مذبذبة، وكأنها ابتلعت لسانها من أثر المفاجأة، بينما قالت عينيها كل ما عجز لسانها عن الحديث به، ظلت رواية تضرب قصة لعدة دقائق بيديها النحلتين، تبكي بحرارة شوقًا وغبطة، بينما تحتضنها قصة بين ذراعيها في محاولة دنوها من صدرها، وتتساقط منها دموع السرور، ضاحكة بفمها الصغير من أفعال رواية، وتقول لها بصوت فارح باكي:

- لا تقلقي يا صغيرتي فأنا معك.

فصاحت رواية بها وهي تبكي بصوت مذبذب:

- لماذا تخليت عني هكذا طوال هذا الوقت، أنا أكرهك، أكرهك يا قصة.

وأخذت تصيح، تصرخ، تبكي، تركلها بقدميها كالطفلة، بينما قصة تحتضنها كالأم، ثم ارتمت في حضنها لبرهة قصيرة شعرت خلالها بروحها تعود إليها ثانية، فحاولت أن تشبع وتتجرع من رائحة قصة كل ما افتقدته خلال الفترة التي قضتها خارج مصر، وهي كذلك اقترب إليها أنس وبين يديه الطفل الصغير فأحدقت عيناها به، وكأنها تستنكر أن يحدث لها مفاجأتين سارتين على غير توقع ودون انتظار في ذات

اليوم وفي نفس الوقت، فبعد أن ملئ كل منهما روحه بنفس ورؤية الآخر، تطلعت رواية للطفل، واقتربت منه في توجس لتقبله، فبادرتها قائلة:

- إنه أنيس.

وتابع أنس:

- أنيس أنس.

فشهقت لسماع هذا قبل أن تقول قصة:

- وإن كان ابني، ولكنه يشبهك كثيراً.

ففهمت رواية، وإن ارتبك عليها الأمر، ولكنها أحست بسعادة وبهجة تغمر قلبها لمجرد تخيلها أن هناك رابطًا يجمع بين أغلى أحبابها، ورفيقي حياتها.

مكثت رواية في القصر لثلاث ليالٍ، قصوا على مسامعها كل ما حدث، وروا لها ما تعرضوا له خلال تلك الفترة، وإن كانت لم تستطع أن تحكي لهم كل ما تعرضت له وعرفته، تنفيذا لتعليمات الصاقر في آخر لقاء لهم، وبعد انتظار طويل، حانت اللحظة الحاسمة التي تنتظرها رواية لمعرفة ما تخفى عنها طوال الفترة الماضية، وعن وضع أنسيموس المجهول، في الليلة الثالثة لإقامتها بقصر العمدة، وصلت علا بصحبة الصاقر وقد التأمت جراحه كثيراً، فاجتمعوا بها لتوضيح الأمور، لحظتها

خفق قلبها، واضطرب عقلها مخافة ومهابة مما سيقال، ومما سيكشف عنه الحجاب، فبعد نظرات كل من الصاقر وعلا لبعضهم البعض، تطوعت علا للبدء:

- روايتي، أولًا وقبل كل شيء، لابد أن تأخذي قولنا بجدية، فهو الحقيقة، ولا حاجة لنا للكذب عليك في شيء، فمن الآن فصاعدًا أنت تعملين معنا، كما كان يتعامل معنا أنسميوس.

- وفيما وكيف كان يتعامل أنسيموس؟

فتبرع الصاقر للإجابة هذه المرة:

- كنت أضع خطة منذ سنوات، تمكنا من اختراق الجماعات الإرهابية المسلحة في الشرق الأوسط، ولقد علمنا مؤخراَ بناشئة جماعة جديدة ما زالت في عملية التكوين الأولى، ولهذا جندنا أنسيموس، وكان هذا سهل علينا لوقوعه في فترة التجنيد، فصنعنا نحن العملية الانتحارية لنبرر اختفائه، وبالفعل استطعنا زرعه في قلب الجماعة وهي في طريقها لتكون أكبر قاعدة مسلحة في العالم بأسره، ونجح أنسيموس في اختراق صفوفها لمعرفته بالإلكترونيات وهو أهم ما يحتاجون إليه، ولكن ...

ثم صمت وكأن الكلمات أبت أن تبوح لها بما يجري، فارتجف قلبها، فتجرأ قائد المطارح المنبثقة لأول مرة بالحديث لإيضاح الأمر:

- ولكن للأسف تم كشف أمره ووقع تحت قبضتهم.

فقالت علا في عجالة لاستدراك الأمر:

- ولهذا فإنقاذه، ومهمة عودته تقع على عاتقيك.
- ومتى وكيف سأنقذه؟

تفاجؤوا من ردة فعلها المتماسكة والواثقة من نفسها، ولهجتها ونبرتها التي لا تخلو من كبرياء، فأغلب الظن أن ما يقولونه قد أدركه قلبها منذ أن وقع، فأجابها الصاقر:

- ستعرفين كل شيء في وقته، لا تقلقي يا رواية، وثقي بنا، ستعود ثلاثتكم بسلامة إن شاء الله.

خرجوا من الغرفة لبهو القصر، وكان الجالسين يتناقشون في أحداث ١٨ مارس، وانتفاضة دلجة الحديثة، والتي تشغل بال الكثير من المصريين في الآونة الأخيرة، فتدخل الصاقر عاقدًا مقارنة باختصار وتبسيط شديد بين كليهما:

- أحداث ١٨ مارس لعام ١٩١٨م وقعت في دير مواس والتي تبعد قليلًا عن دلجة، والتي تعد جزء أصيل منها، وكان قائدها الدكتور خليل وأخوته ضد الإنجليز ومعه مجموع الشعب مسلمين وأقباط، ولأول مرة اتحد الهلال مع الصليب، أما أحداث دلجة والتي وقعت بعد قرن من الزمان ١٤ أغسطس لعام ٢٠١٣ كانت

بقيادة بعض المشايخ وأصحاب الأعمال المستغلين، ومن خلفهم العديد من المتعصبين المتطرفين ضد الأقباط شركاء الوطن، هذه هي المفارقة العجيبة بين الحادثين، لقد وصل بنا الجهل والتخلف عبر قرن واحد لتحويل الكره والحقد من ضد الإنجليز المحتل إلى الأقباط شركاء الوطن.

فقالت قصة وقد نهضت من كرسيها حتى تداعب طفلها الباكي، وكان هذا أول حديث لها مع الصاقر، بجديتها وصراحتها المعهودة:

- أتفق معك، بل أعتقد أننا جميعنا نتفق مع رأي سيادتك حول الجهل والتخلف الذي أدى بنا إلى هذه الحال، ولكن دعني أسألك، من المسئول الأول عن هذا التخلف؟ من الذي تعمد استشراء هذا الجهل بيننا حتى وصلنا لأخطر المراحل؟ فما بيننا وبين الحرب الأهلية بكثير، ألا توافقني الرأي في أن الحكومة والسلطات اتخذت من نفسها مغتصب ومحتل بصيغة وطنية؟ لم ينجح الإنجليز في تفرقة الشعب المصري على أساس ديني، واتحد المسلمون مع الأقباط في ثوراتهم ضد الإنجليز والفرنس وغيرهم من المغتصبين، أما الحكومات المصرية اتخذت من الكنيسة واجهة لتحمي بها نفسها أمام المجتمع الدولي، لتؤيدها علنًا في التفويضات والمسرحيات الانتخابية الهزلية، وهذا لا يبرر على الإطلاق جريمة الكنيسة في سكوتها وصمتها على المذابح التي ترتكب، والكنيسة تعلم جيدًا أنها ستكون أول كبش فداء ستتخذه الحكومة والسلطة في حال انقلاب الأمر عليهم، وماسبيرو ليست ببعيدة، أعذرني حضرة الصاقر، ولكن المسيح علمنا ألا نكذب أبدًا، وأن نكون دومًا وأبدًا

شجعان ولو قُتلنا من أجل الرسالة والحق الذي يجب أن يتبع، وإن كنت لا أعلم هل نسيت الكنيسة وتناسى الأزهر تعاليم دياناتهم وكتبهم المقدسة في ضرورة اتباع الحق، أما المناصب والأموال أعمت الأبصار وأغفلت القلوب؟!

ظن الجميع بالغضب الذي سيجتاح الصاقر جراء هذه الكلمات الصادقة، فالكل يتهمه وكأنه المسؤول عن كل المصائب التي ترتكب في حق الوطن والعرب والمسلمين والعالم أجمع، ولكن لا أحد يعلم كيف تدار الدار، فانتصب من كرسيه قائلًا:

- أتفهم موقفك يا عزيزتي قصة.

وهلم للصعود لأعلى حيث غرف النوم، فاستوقفته رواية:

- لقد قلت سابقًا ونحن بالداخل ستعود ثلاثتكم سالمين للوطن، فمن ثالثنا غيري أنا وأنسيموس؟

فقال بثقة وحذر في نفس الوقت:

- لا تقلقي يا رواية، ستعرفين كل شيء في أوانه، الآن عليك الخلود للنوم، فهناك الكثير غدًا في انتظارك، سيأتي لك رجل أزهري في الصباح الباكر ليطلعك على أهم المعلومات الخاصة بالمذاهب الإسلامية وفرقها المتعددة.

- ولماذا سأتعلم المذاهب والفرق؟

- الجماعة الجديدة التي تتكون الآن تسمى الحشاشون الجدد، ولها علاقة قديمة بالماضي البعيد، وتذهب على التشيع المتطرف.

ثم غادرها في طريقه لأعلى، وبعد أن صعد درجتين من السلم وقف وأدار ظهره فجأة، وقال:

- أعلم أن فضولك سيقتلك من هنا للصباح لمعرفة كل التفاصيل عن هذه الفرق والمذاهب، ولهذا منعت من دخول الإنترنت والكتب لهذا القصر، فلا تنتظري صعودي لأعلى حتى تستفردي بالدكتور علاء لسؤاله، يجب عليك الراحة لأن غدًا سيكون يومًا فاصلًا في رحلتك القادمة، هيا يا عزيزتي.

- سأصعد ولكن لدي سؤال واحد فقط، لماذا أخذتموني لماردين ومنها لزنجبار ولم تأخذوني لأي دولة عربية أو أوربية أخرى؟

- ذهبنا بك لتركيا لأنها الدولة الوحيدة التي كان لها مبرر السفر إليها وهي تخصصك في اللغة والأدب التركي، وبعثناك لزنجبار لأنها هي الدولة الوحيدة التي كان يستطيع أنسيموس رؤيتك فيها قبل ذهابه للمهمة المكلف بها.

فضولها رغب في الاستفسار أكثر، ولكنها رأت في عيني الصاقر ما يحثها على الصمت والصبر لحين الأوان، فصعد لأعلى وصعدت خلفه، وأتبعها أنس وقصة بصحبة طفلهما.

انفض المجلس إلا من علاء وعلا، قام علاء من كرسيه، جلس بجانبها، قبل جبينها، لثم يديها، أخذ برفق رأسها على صدره، شرع في مسح كتفيها، ولم يفسد عليهما هذه اللحظة العاطفية سوى وصول أذانهم بكاء أنيس، فاجتاحت ذاكرتهما كل على انفراد، صورة ذاك الابن الشقي الذي لم يكن يكف عن الملمة والبكاء، ولكنه أين الآن وسوف يتركونه يبكي لآخر يوم في حياتهما، لن يتضايقا، أين هذا الطفل العنيد، البريء، الجميل؟! فقاتله لم يقضى على جسده فقط، بل قضى على الجمال والبراءة للطفولة وأنهى الإنسانية الطاهرة، أما الحكومة المتسيبة فقضت على إحساس الأمن والأمان للأبد، فمن الذي يتجرأ بعدئذ لينجب طفل يشقى ويسهر على مدار أعوام في تربيته ماديًا ومعنويًا، وما أسهل من موته كلمح البصر، فالطفل والشاب المصري يخرج من بيته على قدميه، ويعود في أقل من ساعة بداخل تابوت محمل على الأعناق، فياله من أحمق هذا الذي يجلب لنفسه الحزن الأبدي بإيجاد طفل لهذه الحياة داخل الحدود المصرية، ويا لها من تعيسة تلك التي تحب الأطفال وتتمنى تربيتهم، وإن كانت هذه سنة كونية حقيقية أوجدها الله داخل النساء، ولكن أحجب هذه الفرحة والأمنية عن المصريات كما في جميع أحوالهن، فصبرًا يا نساء مصر، عسى الله أن يهلك الظالمين جميعًا وإن كانوا كثر ولكنه الواحد القادر عليهم، فتنعموا بأولادكم، فلا يسجن ابن لكم أو يقتل أو يصاب ويعجز، وإن لم تخلُ أسرة مصرية على مدى الستين عامًا الماضية إلا وفيها إحدى المصائب الثلاث.

تساقطت دموعهما بلا إرادة وبللت الأوجه، حزنًا على ابنهما، قهرًا على دولة عاجزة عن حماية طفل يلهو بمشاهدة مباراة يحبها ويحب لاعبيها، أجرم هذا الطفل بعشقه لأبو تريكة، هذا المثالي الذي أفرح مصر على مدى أعوام كانت قيادتها تحاول جاهدة وبكل طغيانها تعكير صفوها وظلم أهلها؟ أهذا الطفل إرهابي أيضًا؟ فلعله اتصف بها في تلك الفترة الحقيرة التي جعلتنا كالدمى، نرمي بالشائعات والصفات على كل المخالفين في الفكر والرأي، فسبحان الله ففي مصر فقط الأطفال إرهابين، هذا شيء تميزنا به عن غيرنا، يا لنا من حمقى مجانين، دول تذهب بأطفالها للقمر، ودول تذهب للمريخ، ونحن نرسل أطفالنا للسجون والقبور، ماذا ارتكبوا هؤلاء السبعون شهيدًا حتى يقتلوا بهذه الطريقة البشعة في استاد لكرة القدم؟

فبأي ذنب قتل هؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء، ولن ننتهي من عد هؤلاء، وهؤلاء، فكل دم سقط في الأراضي المصرية سيظل عارًا علينا وعلى حكوماتنا، وكل المحاولات لنسي دم شهدائنا لن تنجح، فلن ننسى ولو بعد حين، فنحن أولياء دم، سيأتي اليوم الذي لا فرار فيه من القصاص، سيأتي، كفكف علاء دمعه وقال محاولًا تثبيت علا:

- هو لا حزن عليه، قد يجعله الله شفيعًا لنا.

ثم سكت قليلًا، أخذ وجهها بيديه، مسح دموعها بكفيه، ثم قال:

- ألا تتذكرين وائل حينما كان يصرخ دائمًا بنا لنشتري له أخًا صغيراً يلعب معه، ما رأيك؟

- رأيي في أي شيء؟

- نصعد الآن لنشتري له أخًا.

فتبسمت قليلًا، وإن كان حزنها قد أرهق عينيها، فقام علاء، انتزعها من مقامها، أخذها بين يديه، صعد بها لأعلى، وهي تضحك وهو يضحك، وجرحهما الداخلي ما زال ينزف.

لا رواية استطاعت النوم ولا الصاقر، فالأرق قتلهما، فكل صنع قهوته، وتقابلا في الشرفة، يتزاحم في عقلهما العديد من الأسئلة والاستفسارات فالمستقبل أمامها مجهول، ولا أحد يعلم كيف سيصير غير الصاقر، وماضيها، بالنسبة له، مجهول أو هكذا يتظاهر، فحاول أن يمسك بزمام الأمر قبل أن تشرع رواية في أسئلتها التي بكل تأكيد تتزاحم بداخلها، فبادر بالقول:

- بالرغم من كبر قصة عنك بهذه السنوات إلا أنكما صديقتان حميمتان للغاية، ولكن الأعجب هو بالرغم من اختلاف دياناتكم الآن، بل ومن قبل، فهي أستاذة جامعية وأنت طالبة؟!

- أمها ذي قربة وثيقة لأمي، فوالدتها دائمًا ما كانت توصيها بأمي، وكانت توصي أمي عليها لأنها كانت مصابة بالسرطان، توفت حيث كانت قصة صغيرة،

وبالرغم من الفرق الاجتماعي الكبير بيننا إلا أننا استطعنا أن نكون أصدقاء بل أكثر من أخوات، ولم أرى أمي تحب شخصا مثلي إلا أنسيموس وقصة، ولأنها ابنة رجل ذي سلطة ومال استطاع أن يعينها معيدة في الجامعة، أحببتني في قسم اللغات الشرقية وشجعتني لألتحق به، وأنا بالفعل لم أدخله سوى أنني سأكون برفقة قصة، وبالتالي سوف تساعدني في الدراسة بكل تأكيد.

- وكيف تعرفتِ على أنس؟

- كانت قصة تشعر بحبي للإسلام من تعاقب أسئلتي معها، ولم تقتنع بحجتي الكاذبة، الرغبة في المعرفة والثقافة فقط، ولهذا منذ أن اعترفت لها لم تعترضني، كانت تناقشني فقط وتبدي آراءها من غير عنف أو احتجاج، تؤمن قصة بالحرية الحقيقية للعقيدة، ولكن عندما صرحت لها بأنني عقدت عزيمتي للدخول في الإسلام انزعجت، ليس لأمري، وإنما خوفا علي من العواقب التي ستحل بي، فاقترحت أنها ستوصلني بشخص مسلم، ولكنه على خلق، متفتح، متفهم لدينه جيدًا، وليس متعصبًا، كأنه ملاك برفعة خلقه، وطيب لسانه، وحسن معاملاته التي تجبر الجميع على حبه، وهو زميل لها، معيد أيضًا، ومن المؤكد سوف يرشدني للصواب، وبالفعل تعرفت عليه، تحاكينا، تناقشنا، وهكذا أصبحت أنا وأنس أصدقاء.

(٢٩)

في ضحى اليوم التالي وصل فضيلة الشيخ الأزهري قصر العمدة، وكانت رواية تنتظره على أحر من الجمر، بعد أن سلم على الحاضرين، استفرد بها في غرفة جانبية، ثم قال بعد أن استعاذ بالله وبسمل وصلى على سيدنا محمد صلَى الله عليه وسلم:

- أنا مكلف بشرح الفتنة الكبرى.

- أنا على علم كافِ بالفتنة وما أنتجته من شيعة وخوارج، ولكن لا علم لي بمصير الشيعة؟

- كأي فرقة، انقسم الشيعة من حيث عدة عوامل، أولها الفرق التي ادعت بألوهية سيدنا علي، حيث قالوا إن سيدنا علي هو الله، حيث اتحدت الروح الإلهية به، أو انحلت بداخله، فعبدوا سيدنا علي، فبدأ يقتلهم ويحرقهم بالنيران، فيقولون لا يقتل بالنار إلا رب نار ولا يستطيع الحرق بالنار إلا رب النار، وكان زعيم هؤلاء عبد الله من سبأ، وقد نفاه سيدنا علي خارج المدينة، وتراجع عن قتله لما كان من حوله من حشود كانت ستثير فتنة كما حدث مع سيدنا عثمان بن عفان، وكانت هذه الفرقة تسمي السبئية وقد اندثرت الحمد لله في هذا الزمان، وانقرض اتباعها، فقد كانت معولًا كبيرًا من معاول هدم الإسلام، وإن كان تبعها فرقتان أخريان في ألوهية سيدنا علي وأبنائه وهم البيناية والمغيرية ولكنهما أيضًا انقرضتا مع الزمن.

أما عن باقي الفرق الشيعية لم يصل بهم الحد لألوهية علي وأبنائه، وإنما يتفقون على أن الإمامة كانت لعلي وأبنائه، ولكنهم اختلفوا في مسألة هل الإمامة لأبناء علي من فاطمة الزهراء فقط، أم كل نسل علي، فهناك من جعل الإمامة في ولد علي من غير فاطمة، وهم فرقة الكيسانية نسبة لكيسان مولى علي بن أبي طالب، وكان زعيمها المختار بن عبيد الثقفي وكان من الخوارج ثم تشيع، وكانوا يدعون لإمامة محمد بن الحنفية بعد علي والحسن والحسين، وهو ابن علي ولكن من امرأة من الأحناف، وكان محمد بن الحنفية رجلًا عابدًا تقيًا، ولما بلغه ما يقوله المختار الثقفي في ألوهيته هاجمه ولعنه.

أما الفرق التي تؤمن بإمامة علي وأولاده من فاطمة الزهراء فقط فهم الزيدية القديمة، والزيدية المتأخرة، والإمامية، وكل ما انبثق عنها من فرق أخرى.

- اعذرني يا إمام، كل تلك الفرق التي تؤمن بإمامة علي وأولاده يقولون إنه معه نص من رسول الله بوجوب الإمامة له، هل هذا صحيح؟

- هذا كذب وافتراء، لأن علي وفاطمة الزهراء لما يعترضا على خلافة أبي بكر وعمر، حتى أنهما زوجا ابنتهما أم كلثوم لعمر بن خطاب! كما أن الخلاف بين أبي بكر وفاطمة الزهراء أثناء خلافته كان خلافًا شخصيًا؛ طالبته الزهراء بنصيبها في إرث أبيها، فاعترض أبو بكر ذاكرًا لها حديث النبي، نحن معاشر الأنبياء لا نورث وإنما أموالنا صدقات، كما أن أبا بكر تزوج من أسماء بنت عويس أرملة الشهيد جعفر بن أبي طالب، ووافق سيدنا علي على هذا الزواج، حتى بعد موت أبي بكر

رجع علي فتزوجها، فلم يحدث أدنى اعتراض من سيدنا علي على أبي بكر أو عمر وأفضل ما قيل في هذا الأمر هو قول ابن كثير: لو كان مع علي بن أبي طالب نص، فلمَ كان يحتج به على الصحابة لإثبات إمارته عليهم ولإمامته لهم، فإذا لم يقدر على تنفيذ ما معه من نص فهو عاجز، والعاجز لا يكون خليفة، وإن كان يقدر ولم يفعل فهو خائن والخائن لا يكون خليفة، وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل والجاهل لا يكون خليفة، ونتيجة قول ابن كثير أنه لم يكن هناك نص كما يدعي الشيعة.

نعود للفرق، فالزيدية القديمة هي من أعدل الفرق الشيعية على الإطلاق وأقربها للسنة، وهي نسبة إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، وهو رجل تقي اشتهر بالصلاح والعبادة، وربى في أتباعه التقوى والصلاح وعدم التكفير، وترى أن الخلافة في علي ثم أولاده من فاطمة، كما أنهم يصححون ولاية أبي بكر وعمر ولم يكفروهما، فهم يرون بصحة ولاية المفضول مع وجود الفاضل، أي بالرغم من أنهم يرون أن سيدنا علي أفضل الصحابة إلا أنه لا يمنع من تولي أبي بكر وعمر، إن عدلا، ولوجوب الحاجة لذلك لأن سيدنا علي لم يكن يجف سيفه من دماء المشركين بعد، وقد كانت ولايته قد تسبب بعض الفتن لأن البعض بالرغم من إسلامهم فمازالت العصبية الجاهلية تعتريهم، اتصف الإمام زيد بصفات قلما توفرت في إنسان، فكان تقيًا نقيًا وفيًا مخلصًا محبًا للعلم والعلماء وصحابة رسول الله، ولهذا كان يرفض الظلم والعدوان الواقع عليه من والي العراق وقتئذ، في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولما اشتكى، أوذي وأخرج من بلده، فخرج

على مبايعة هشام بن عبد الملك، واجتمع حوله أربعين ألف رجلًا من الشيعة وحين بلغ هشام بن عبد الملك هذا، كتب لوالي العراق يستحثه لملاقاته وقتله، وأرسل له جيشًا جرارًا، وعند الواقعة ناقشه الشيعة الخارجون معه في رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فصرح برأيه بأنهما مضيا على السنة، وأنهما من أفاضل الصحابة، فانفض عنه معظمهم، لكن ذلك لم يهن من عزيمته، ولم تخر من شجاعته، فقاتل حتى استشهد رحمه الله.

أما الزيدية المتأخرة والحديثة فهم عادوا لتكفير أبي بكر وعمر ولم يسيروا على نهج أسلافهم السابقين.

أما مذهب الإمامية الشيعي فهو الذي يمثل التشيع الحاضر في عالمنا المعاصر، وهم كثر، أهمهم الباقرية الواقفة، والجعفرية الواقفة، والإسماعيلية، والإثني عشرية.

هذه الفرق تؤمن بأن الأمام هو أحد أركان الدين، لا يصلح الإيمان ولا يتم المسلم الشيعي إسلامه، إلا عندما يؤمن بالإمام، وبمبادئ الشيعة الأربعة، العصمة والرجعة والمهدية والتقية.

لكي تفهمين هذه الفرق لابد أن ندرس الخط الإمامي، الشائع في الأوساط الشيعية هم اثنا عشر إمامًا بالترتيب، علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، زين العابدين بن الحسين، محمد الباقر، جعفر الصادق بن محمد الباقر، موسى الكاظم بن جعفر الصادق، محمد التقي، علي النقي، الحسن العسكري الذكي، محمد بن الحسن العسكري.

من يؤمن بالاثني العشر إماماً فهم الاثنا عشرية، والذين يؤمنون فقط حتى الإمام الخامس محمد الباقر فهم الباقرية الواقفة، أي توقف إيمانهم بالأئمة عند محمد الباقر، والذين يؤمنون بالجعفر الصادق الإمام السادس فهم الجعفرية الواقفة.

وكل فرقة توقفت عند إمام فهو يعد بالنسبة لها مهديها المنتظر، وتؤمن كل الإيمان بأنه معصوم ولا خطأ له، فكلامه أصل تشريعي يعتمدون عليه في فقههم، وأنه سيعود في آخر الزمان لكي ينتصر لهم ويملئ الدنيا عدلًا بعد أن امتلأت جوراً، ولهذا كانوا يطبقون في الآونة الأولى وما زالت مطبقة في البلدان السنية لليوم كمصر والسعودية مبدأ التقية، أي إخفاء الهوية الشيعية عن غير الشيعين حتى لا يتعرضوا للتنكيل بهم، حيث في نشأتهم الأولى تعرضوا لكثير من القتل والإبادة الجماعية.

- ولكن الفرقة الإسماعيلية لمن انتسبت؟

- الإمام السادس جعفر الصادق رحمه الله كان إماماً تقيَا ورعًا حكيمًا عابدًا زاهدًا، كان له ست أولاد، أحدهم موسي الكاظم وهو الإمام السابع الذي يؤمن به الاثنا عشرية، وأحدهما كان يسمى إسماعيل وقد مات في حياة أبيه، وهذا الذي اختاروه وتوقفوا عنده وتسموا به، والإسماعيلية هم الحشاشون، وهم أيضًا المعروفين بالباطنية لأنهم يعتقدون بأن لكل ظاهر باطن، ولكل تنزيل تأويل، فمثلًا يعتقدون بأن الطهارة في القرآن ليس مقصوداً بها طهارة البدن، بل هي طهارة القلب من كل العقائد سوى عقيدة الباطنية، والذكاة هي نشر العلوم الباطنية، والحج هو طلب العلم من الإمام المعصوم، والجماع والنكاح هما نشر العلوم الباطنية، وهكذا يفسرون القرآن والإسلام، واشتهروا خلال التاريخ بأسماء كثيرة منها

التعليمية أي التعليم من الإمام فقط لأنه المعصوم، والسبعية لأن إمامهم إسماعيل كان ترتيبه السابع.

(٣٠)

تبكي أم إسحاق نادبة حيث تصلي في الكنيسة، تتضرع بالدعاء لحفظ ابنتها مما أصابها، والذي علمته منذ أيام من قائد متواترة الأصل بناء على تعليمات الصاقر، أخرجت صورة زوجها وهي تنتحب بغزارة فأغرقت الصورة بدموعها، توبخ نفسها لائمة لوامة:

- سامحني، سامحني، يسامحك الرب، فأنا السبب في هذا الذي يجري، لقد قتل الولد، والبنت لا أعلم مصيرها، لم أتوهم أن إخفاء الحقيقة سيؤدي لهذا الهلاك، أعرف أنني خنت الأمانة التي أودعتها إياي، أصفح عني، لم أقل الصدق ولم أنقل الأمانة، كنت أظن أن الأمر لن يجري هكذا، ولكن ظهر الحق الذي لم أكن أظن لمرة واحدة أنه سيطفو، اعفُ عني عفاك الرب.

ظلت هكذا تستدمع وتطلب المغفرة لتضليل وتدليس الحقائق التي لا يعلمها سوى ثلاثة، الأب المتوفى، والأم، والصاقر، والذي بدوره سيجعلها مخفية إلى أن يأذن هو وحده بقولها.

وصلت السيارة المصفحة التابعة للقبة أمام الكنيسة لتنقلها إلى حيث مقابلة الصاقر، في طريقها على النيل تذكرت تلك الأيام التي عاشتها على هذه الشواطئ، وسط المياه، بداخل مركب مخروق مثقوب مشقوق تتسرب إليه المياه من كل جانب، تذكرت تلك الطفولة حينما لم تتعدَ الخمس السنوات أثناء تعليمها العوام

في البحر، يأتون بجركن بلاستيك ويربطونه على ظهورهم ويتركونهم في الماء هكذا ساعات طوال يتعلمون العوام بهدف التأقلم للعيش في هذا المحيط المائي.

وليتفادى الأهل غرق الأطفال أثناء الليل كانوا يقيدون أقدام بعضهم البعض، ويوثقونهم جميعًا في يد الأب ورجل الأم حتى لا يسقطوا في الماء أثناء نومهم على ظهيرة المركب، أما في الليالي الحمراء، كان القيد يمنع الأب والأم من ممارستهما للحب بالشكل الذي يكسبهم المتعة الكافية، وإن لم يكن هذا الجماع في أغلب الحالات لا يتجاوز الخمس الدقائق.

بعد أن دخلت نيلوس مرحلة المراهقة، بدأ الأب يتبادل مع صديقه الجماع في ليلتين مختلفتين، فيوم الجمعة هو من نصيب الأب، فكانت تذهب نيلوس لتنام في مركب صديقه، ويوم الثلاثاء كان من نصيب صديق الأب، فكانت صديقتها نهرو تأتي للمبيت معهم، وهكذا كل جمعة وثلاثاء.

كانت كلما أحست بغضب الوالد أو الوالدة، أدركت مدى حاجتهما للانفراد ببعضهما، تتبين ذلك في وضح النهار من خلال لمساتهم أو احتكاكهم، فتبدي على الفور رغبتها في زيارة صديقتها نهرو على القارب الآخر، فكانوا قاربين لا ثالث لهما في المنطقة النيلية التي كانوا يحتلونها، وكانت صديقتها أيضًا تقوم بنفس الفعل في نفس الظروف، حتى أتت إحدى الليالي الحمراء التي أضحت سوداء للأبد، فك الأب والأم القيد الذي يربط الأخ والأخت الصغيرين من أيديهم وأرجلهم، حتى يتمكنا من ممارسة الحب على أكمل الطرق، فاختار القدر هذه الخمس الدقائق لكي يغرق

الأخ والأخت الأصغر في عمق الماء، فمع قوة الأب التي يطلقها باتجاه الأم التي بدورها تقابله بقوة أكبر، فاللقاء بعد الحرمان يجعل من المكبوتين طاقة جبارة، ونتيجة لهذه الشدة والاستقواء أخذ المركب يهتز يمنيًا ويسارًا حتى تساقط الطفلان أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، ولم تمهلهما الماء للصراخ أو تنبيه الوالدين الغارقين في اللذة، وبعد أن انتهى الزوجان من متعتهما أفاقا على الحزن والألم الذي سيصاحبهما طوال العمر، فالقدر استكثر عليهما المتعة الوقتية فأكسبهما حزنًا دائمًا.

في تلك الأثناء، وصلت سيارة متواترة الأصل حيث المكان المتفق عليه لمقابلة الصاقر، رحب بها، وشرع في الحديث مباشرة قائلًا:

- أنا أعرف الحقيقة، ولكن لا أعرف تفاصيلها، فهل تسمحين لي أن أطلع عليها لمساعدة رواية، إذا لم يكن لديك مانع؟

- في البدء، أنا لم أكن أعرف أنا مسلمة أم مسيحية، إلا في سن العاشرة، اعتدت في المدرسة على حضور حصص الدين مع المسلمين، عندما كان ينادي المعلم في الطلاب المسيحيين بالخروج للملعب ليتلقوا حصصهم الدينية، لم أكن أذهب، كنت أجلس مع الأغلبية، فتعلمت الشيء القليل عن الإسلام من خلال الكتب والحصص الدينية التي كنا ننتظرها لننام فيها، أو نحكي مع بعضنا البعض، أو نرسم، حيث كان المعلم يقول لنا هذه ليست مادة ضرورية فهي خارج المجموع، فلم يكن بدوره يهتم بها، فمن الطبيعي أننا لن نهتم بها، وهكذا كانت تمر جميع الحصص حتى إذ فجأة قرأ المعلم اسمي كاملًا على الكتاب مما أوحى له بأنني

مسيحية، فأنبني كثيراً على هذا الجرم، الجلوس في حصص الدين الإسلامي التي كان ينام فيها ويتركنا لنلعب ونلهو! كما ضربني ضرباً مبرحاً لحملي كتاب إسلامي، وهو لا يمسه إلا المطهرون، وأنا بالنسبة له نجسة كافرة.

تلقيت كل هذه الإهانة والضرب وعندما عدت أنا وصديقتي للمركب، وجدنا أسرتي وأسرة صديقتي مجتمعين للغداء، وفي انتظارنا كالعادة، قصيت عليهم ما حدث لي، ولم يحدث مع صديقتي، فأخذ أبي وصديقه يسخرون من هذا المعلم المنافق الذي مازال يعبد إله، وما فهمته، وقتئذ، أن صديق أبي من المفترض أنه مسلم وبالتالي عائلته مسلمة، ولكنه ليس ملتزم دينياً ولا يعلم أدنى شيء عن دينه الإسلام، كما فهمت أن أبي مسيحي وبالتالي فعائلته مسيحية، وإن لم يكن يعرف شيء عنها، ولم يتعبد أو يصلي مرة واحدة، وقال لي أبي يومها:

"يا بنيتي كل هذه هي أشياء ورثناها عن الأجداد الذين أقحمونا في هذه الدنيا الحقيرة، عليهم اللعنة، فالرب لا وجود له إلا عند الأغنياء فقط، فإن كان موجود وعادل كما يقولون لماذا تركنا هنا وحدنا نعيش بلا مأكل ولا ملبس ولا مأوى؟"

ففهمت منذ ذلك الوقت أن الكون هذا بلا إله، أو رب، وأن لا معنى لكلمة ديانة، فعشنا حياتنا على هذا المنوال إلى أن حدثت ذات يوم مشاجرة طائفية بين المسلمين والأقباط على إحدى الشواطئ التي نرسو عليها أحياناً لنتبضع ونبيع السمك، كان الجميع في حالة غليان ونفور والدماء تراق هنا وهناك، وكنا نحن الأسرتين فقط اللذين نضحك من هؤلاء وهؤلاء اللذين يحاربون بعضهم البعض

من أجل آلهة غير موجودة، فلو أنها موجودة بحق فلما لا تمنع هذه الدماء التي تسال باسمها؟!

ظللنا طوال اليوم نسخر من هؤلاء وهؤلاء، ولكن مع بداية الليل بدأ الحديث يزداد حدة من اتجاه أبي تارة، ومن اتجاه صديقه حجاج تارة، وأمي مرة، وأم صديقتي مرة أخرى، وقد بدأت عدوى الطائفية تنتقل إليهم وتزداد شدة مع الوقت، وهم الذين لم يعبدوا ألهتم أبدًا من قبل، بدأ الحديث يأخذ مجرى الانفعال، كل يدافع عن دينه، وكلاهما جاهل به، لا يعرف دليل أو معلومة حقيقية عن دينه يجادل بها، ولكنه اختلاف احتدم، فالجهل اتخذ طريقه ومسلكه وبدأ يتفاعل في عقول المتخلفين، عرج الجهل المهمة لصديقه الشيطان، فبدأ الشيطان وسواسه لكليهما، فأخرج كل منهم مطواته، فكان لأبي النصيب في البدء، فغرس سكينه في صدر صديق عمره وزميل كفاحه، فأتت امرأته فغرست سكينها في قلب أبي، فتولت أمي المهمة سريعًا فغرست في رقبتها المطواة، فأتت صديقتي بسكين أباها وذبحت أمي من عنقها، أمسكت نصلي، وصديقتي وقفت أمامي بنصلها، وكلانا تراسل الأخرى بعقلها وحالنا يقول هؤلاء الذين يكفرون بآلهتهم، ولم يعبدوها يومًا، يموتون من أجلها، يا له من هراء! وفي لحظة واحدة توقف معها الزمن، رمت كلتنا سكينها، وأبصقنا على الجثث المترامية، ولعناهم هم وآلهتهم التي لم يؤمنوا بها، ولم يعبدوها، وماتوا من أجلها، فالجهل والتخلف كفيلان أن يفعلان مثل هذا، ثم أشعلنا النيران في أجسادهم، وانطلقنا فارحين وكأننا تخلصنا من كابوس عظيم، ظلموا أنفسهم وأظلمونا في الحياة، فكنا الوحيدات من بنات

جنسنا ننام عراة في وسط الماء، لا نجد من يحمينا، أو يسترنا، حتى الدين الذي يعتبر الملاذ الوحيد لتصبير الإنسان أقصونا عنه، حينما كنا نسأل أمهاتنا متهمين إياهن بتقصيرهن في تعليم الدين وإبعادنا عنه، يقلن:

- لم نبعد عن الدين ولم نبعدكم عنه، إنما هو الرب الذي أقصانا عنه، فنبذنا وتركنا وحيدين في المجتمع.

وأخيراً بعد هذه المجزرة خرجنا من الشاطئ كل منا اتجهت لحياتها الجديدة التي صنعتها بنفسها.

تمت

القاهرة – مايو ٢٠١٧